علاء الأسوانى

عمارة يعقوبيان

مكتبة مدبولى

١

.. المسافة بين ممر بهلر حيث يسكن زكي بك الدسوقي ومكتبه في عمارة يعقوبيان لا تتعدى مائة متر لكنه يقطعها كل صباح في ساعة ، إذ يكون عليه أن يحيي أصدقاءه في الشارع: أصحاب محلات الملابس والأحذية والعاملين فيها من الجنسين ، الجرسونات والعاملين في السينما ورواد محل البن البرازيلي ، حتى البوابين وماسحي الأحذية والمتسولين وعساكر المرور يعرفهم زكي بك بالاسم ويتبادل معهم التحيات والأخبار، زكي بك من أقدم سكان شارع سليمان باشا، جاء إليه في أواخر الأربعينات بعد عودته من بعثته في فرنسا ولم يفارقه بعد ذلك أبدا وهو يشكل بالنسبة لسكان الشارع شخصية فلكلورية محبوبة عندما يظهر عليهم ببدلته الكاملة صيف شتاء التي تخفي باتساعها جسده الضئيل الضامر ومنديله المكوي بعناية

المتدلي دائما من جيب السترة بنفس لون رابطة العنق وذلك السيجار الشهير الذى كان أيام العز كوبيا فاخرا فصار الآن من النوع المحلى الرديء المكتوم ذي الرائحة الفظيعة، وجهه المتغضن العجوز ونظارته الطبية السميكة وأسنانه الصناعية اللامعة وشعره الأسود المصبوغ بخصلاته القليلة المصففة من اليسار إلى أقصى يمين الرأس بهدف تغطية الصلعة الفسيحة الجرداء ، باختصار يبدو زكى الدسوقى أسطوريا على نحو ما ، مما يجعل حضوره مشوقا وغير حقيقي تماما (كأنه قد يختفي في أي لحظة أو كأنه ممثل يؤدى دورا ومن المفهوم أنه بعدما يفرغ سوف ينزع عنه ملابس التمثيل ويرتدى ثيابه الأصلية) فإذا أضفنا إلى ذلك روحه المرحة ونكاته الفاحشة المنهمرة وقدرته المدهشة على مخاطبة أي شخص يراه و كأنه صديق قديم أدركنا عندئذ سر الحفاوة التي يلقاه بها كل إنسان في الشارع والحق أنه ما أن يظهر زكى بك في أول الشارع ، في نحو العاشرة صباحا ، حتى تتعالى تحيات الصباح من كل صوب و كثيرا ما يندفع نحيته بعض مريديه من الشبان العاملين في المحلات ليسألوه مداعبين عن بعض المسائل الجنسية التي غمضت عليهم ...عندئذ يستعين زكى بك بدائرة معارفه الجنسية الجبارة ويشرح للشباب (باستفاضة وتلذذ وصوت مسموع للجميع) أدق

الأسرار الجنسية بل انه أحيانا ما يطلب ورقة وقلما (يتم إحضارهما في لمح البصر) ليرسم بوضوح للشباب بعض أوضاع الجماع الطريفة التي جربها بنفسه أيام شبابه...

• • •

بقيت معلومات مهمة عن زكى الدسوقى ..

- أنه الابن الأصغر لعبد العال باشا الدسوقى ، القطب الوفدي المعروف ، الذى تولى الوزارة أكثر من مرة وكان من كبار الأثرياء قبل الثورة إذ كان يملك وأسرته ما يزيد عن خمسة آلاف فدان من أجود الأطيان الزراعية ..وقد تعلم زكى بك الهندسة في جامعة باريس في فرنسا وكان متوقعا له بطبيعة الحال أن يلعب دورا سياسيا بارزا في مصر بواسطة نفوذ أبيه وثروته لكن الثورة قامت فجأة فتغير الحال : تم القبض على عبد العال باشا وتقديمه لمحكمة الثورة ولم تثبت عليه تهمة الفساد السياسي وان ظل رهن الاعتقال فترة وانتزعت معظم أملاكه ليوزعها الإصلاح الزراعي على الفلاحين . ولم يلبث الباشا أن مات متأثرا بما جرى وتركت نكبة الأب وقعها على الابن فلم يلبث مكتبه الهندسي الذي افتتحه فى عمارة يعقوبيان

أن باء بالفشل وتحول مع الأيام الى مكان يقضى فيه زكى بك وقت فراغه اليومي حيث يقرأ الجراند ويحتسى القهوة ويلقى أصدقاءه وعشيقاته أو يقضى فى شرفته الساعات يتأمل المارة والسيارات فى شارع سليمان باشا .. على أن الإخفاق الذى لقيه المهندس زكى الدسوقى فىحياته العملية لا يرجع فقط إلى قيام الثورة ، وانما يرجع في الأساس إلى فتور همته وتهافته على اللذة ، والحق أن حياته التي امتدت خمسة وستين عاما إلى الآن، بكل أحداثها ومفارقاتها السعيدة والمؤلمة على السواء تتمحور غالبا حول كلمة واحدة : ..المرأة .. انه واحد من هؤلاء الواقعين تماما ونهائيا في قبضة الأسر الأنثوي اللطيف ، والمرأة بالنسبة إليه ليست شهوة تشتعل حينا ويتم إشباعها فتخبو وانما عالم كامل من الغواية التى تتجدد في صور لانهاية لتنوعها الفتان : الصدور العامرة المكتنزة بحلماتها النافرة كحبات العنب اللذيذ ، المؤخرات الطرية اللدنة المترجرجة وكأنها تترقب اقتحامه المباغت العارم من الخلف ، الشفاه المطلية التي ترتشف القبل وتتأوه من اللذة ، والشعر بكافة تجلياته (الطويل المنسدل الهادئ أو الطويل الوحشي المبعثرة جدائله أو متوسط الطول العائلي المستقر أو ذلك القصير الاجرسون الذي يوحي بأنواع غلامية غير مألوفة من الجنس) والعيون ..

آه مـن نظـرات العيـون الصادقة أو الكاذبة المتوارية، الفاجرة أو الخجلى ، حتى العاتبـة الغاضبـة المستنكرة ما أجملها ..إلى هذا الحد وأكثر أحـب زكـى بك النسـاء وقد عرف منهن كل الأنواع بدءا مـن النبيلة كاملـة ابنـة خـال الملك السـابق التـي تعلـم معهـا آداب المخـادع الملكيـة وطقوسها ؛ من شموع تضاء طوال الليل وكئوس النبيذ الفرنسي الذي يؤجج الرغبـة ويزيـل الرهبـة والحمـام الساخن قبل اللقاء حيث يدهن الجسم بالكريمـات والعطـور .. تعلم من النبيلة كاملة (ذات الشهوة العارمة) كيف يبدأ ومتى يكف وكيف تطلب أكثر الأوضـاع الجنسية مجونـا بكلمات فرنسية رقيقة للغاية ، كما ضاجع زكى بك نسـاء من كل الطبقات .. راقصات شرقيات وأجنبيـات وسيدات مجتمع وزوجات لرجال أفاضل مرموقين وتلميذات جامعة وثـانوي بـل وسـاقطات وفلاحـات وخادمـات بيـوت ، كـل واحدة ولها مذاقها ، وكثيرا ما يقارن ضاحكـا بين مخـدع النبيلة كاملـة المحكوم بـالبروتوكول وتلك المتسولة التـي التقطهـا ذات ليلـة وهـو سـكران فـي سـيارته البويـك واصطحبها إلى شقته في ممر بهلر وعندما دخل بهـا إلـى الحمام ليغسل جسدها بنفسه اكتشف أنها لفقرها قد صنعت ملابسها الداخليـة مـن أكيـاس الأسمنت الفارغـة ، ولازال يذكر بمزيج من الحنان والأسى ارتباك المرأة وهـى تخلع

لباسها المكتوب عليه بحروف كبيرة " أسمنت بورتلاند طره " ويذكر أيضا أنها كانت من أجمل من عرفهن وأكثرهن حرارة في الحب .. كل هذه التجارب الحافلة المتنوعة جعلت من زكى السوقى خبيرا حقيقيا بالمرأة ، وله في "علم المرأة " - كما يسميه - نظريات غريبة وطريفة ، قد تقبلها أو ترفضها لكنها حتما تستحق التأمل : فهو يرى مثلا أن المرأة فائقة الجمال تكون عادة عاشقة باردة في الفراش أما النساء متوسطات الجمال أو حتى الدميمات قليلا فهن دائما أكثر حرارة لأنهن يحتجن فعلا إلى الحب و يبذلن كل ما في وسعهن لارضاء عشاقهن .. ويعتقد زكى بك أن نطق المرأة لحرف " السين " بالذات يدل على مدى حرارتها في الحب فإذا نطقت المرأة كلمة " سوسو " أو كلمة "بسبوسة" " مثلا بطريقة متهدجة مثيرة يفهم حينئذ أنها من الموهوبات في الفراش والعكس صحيح ويؤمن زكى بك، أيضا ، أن كل امرأة على وجه الأرض يتكون حولها مجـال أثيري ما ، تتردد فيه باستمرار ذبذبات غير مرئية أو مسموعة لكنها محسوسة على نحو غامض ويستطيع من يدرب نفسه على قراءة هذه الذبذبات أن يدرك مدى الشبع الجنسي لهذه المرأة ، فمهما كان وقار المرأة وتحشمها يكون بمقدور زكى بك أن يشعر بجوعها الجنسي من تهدج صوتها أو

ضحكتها العصبية المبالغ فيها أو حتى من الحرارة المنبعثة من يدها إذا صافحها ، أما النساء اللاتي تتملكهن الشهوة الشيطانية التي لاترتوى أبدا ، " نساء القدر " كما يسميهن زكي بك بالفرنسية ، هؤلاء النساء الغامضات اللاتي لا يشعرن بوجودهن الحقيقي إلا على فراش الحب واللاتي لا يعدلن بالجنس لذة أخرى في الحياة ، هذه الكائنات الشقية المسيرة من فرط ظمأها للذة إلى مصيرها المروع المحتوم ، هذا النوع من النساء يؤكد زكي الدسوقي أن شكلهن جميعا واحد وان تغيرت الوجوه، وهو يدعو المشككين في هذه الحقيقة إلى مطالعة الصور التي تنشرها الجرائد للنساء المحكوم عليهن بالإعدام لاشتراكهن مع العشيق في قتل الزوج ، ولسوف نكتشف - بقليل من التأمل - أن لهن جميعا سحنة واحدة فالشفاه غالبا مكتنزة حسية منفرجة غير مضمومة والملامح غليظة شهوانية والنظرات لامعة فارغة كنظرة حيوان جائع ..

• • •

اليوم الأحد : تغلق المحلات في سليمان باشا أبوابها وتمتلئ البارات ودور السينما بالرواد ويبدو الشارع المظلم الخالي بمحلاته المغلقة والعمارات ذات الطراز الأوروبي

العتيق وكأنه جزء من فيلم غربي رومانسي حزين و من أول النهار ينقل الشاذلي البواب العجوز مقعده من جوار المصعد إلى أمام عمارة يعقوبيان على الرصيف ليراقب الداخلين والخارجين من العمارة في يوم العطلة .. ..وقد وصل زكى الدسوقى إلى مكتبه قبيل الظهر ومنذ الوهلة الأولى أدرك الفراش أبسخرون أبعاد الموقف ، بعد عشرين عاما من العمل مع زكى بك صار أبسخرون يفهم أحواله بنظرة واحدة وهو يدرك معنى أن يأتى سيده إلى المكتب وقد أفرط فى أناقته ، تسبقه رائحة العطر الفاخر الذى يحتفظ به للمناسبات ، معنى أن يبدو متوترا مشدودا يقف ويجلس ويمشى بعصبية ولايستقر على حال و يدارى لهفته بالاقتضاب والفظاظة .. كان هذا يعنى دائما أن البك ينتظر لقاءه الأول مع عشيقة جديدة ..من هنا لم يغضب أبسخرون عندما أخذ البك يعنفه بلا سبب لكنه هز رأسه بطريقة من يتفهم الأمر وانتهى بسرعة من كنس الصالة ثم قبض على عكازيه الخشبيين وأخذ يضرب بهما بلاط الردهة الطويلة بقوة وسرعة حتى وصل الى الحجرة الكبيرة حيث يجلس البك .. وقال بصوت تعلم بالخبرة كيف يجعله محايدا تماما:-

- .. سيادتك عندك اجتماع ؟ .. أجهز "الحاجات" لسيادتك؟ ..

تطلع البك ناحيتـه وتأمله لوهلة وكأنه يقرر فـى نفسه اللهجة الملائمة الرد عليه .. نظر الى جلبابـه الكستور المقلم المتهرىء فى أكثر من موضع ، الـى عكازيـه وموقـع ساقه المبتورة ووجهه العجوز بذقنه النابتة الشيباء وعينيـه الضيقتين الماكرتين وتلك الابتسامة المتوسلة المذعورة التي لا تفارقه ..

– " جهز حاجات الاجتماع بسرعة ..

هكذا قال البك باقتضاب وهو يدخل الى الشرفة .. كان " الاجتماع " يعنى في قاموسهما المشترك اختلاء البك بامرأة في المكتب ، أما " الحاجات " فترمز الى طقـوس معينة يهيئها أبسـخرون لسيده قبيل الغرام : وتبدأ بحقنـة " التراى بى " المستورد التى يحقنه بها في عضلة الإلية والتى تؤلمه كل مرة حتى يتأوه بصوت عال ويصب لعناتـه علـى أبسخرون الحمـار ذى اليد الغاشمة الثقيلة ، ويعقـب ذلـك فنجان قهوة سادة مـن البـن المحـوج بجوزة الطيب يرتشفه البك على مهل وهو يستحلب تحت لسانه قطعة صغيرة من الأفيون و تنتهى الطقوس بطبق كبير من السلطة يتوسط المائدة بجوار زجاجة ويسكى ماركـة" بـلاك ليبل " وكاسين فـارغين وآنيـة معدنيـة " شـمبانييرا " ممتلئـة الـى حافتهـا بمكعبات الثلج ..شرع أبسخرون فى تجهيز الحاجات بهمة بينما جلس زكى بك فى الشرفة المطلة علـى شارع سليمان

باشا وأشعل سيجارا وأخذ يراقب المارة ، كانت مشاعره تتراوح بين اللهفة المتوثبة إلى اللقاء الجميل وهواجس القلق من أن تخلف محبوبته "رباب" الموعد فيضيع عليه مجهود شهر كامل أنفقه فى مطاردتها ، كان متيما بها منذ رآها لأول مرة فى بار " كايرو " بميدان التوفيقية حيث تعمل مضيفة ، سحرته تماما وظل يتردد على البار يوميا حتى يراها وقال فى وصفها لصديق عجوز : " .. إنها تمثل الجمال الشعبي بكل سوقيته وإثارته ، وكأنها قد خرجت لتوها من إحدى لوحات محمود سعيد " ثم استطرد زكى بك موضحا لصديقه : " هل تذكر تلك الخادمة فى بيتكم التى كانت تداعب أحلامك الجنسية وأنت مراهق ؟ والتى كانت أقصى أمانيك أن تلتصق بمؤخرتها الطرية ثم تقبض بيديك على صدرها الكبير البض وهى تغسل الصحون أمام الحوض فى المطبخ؟!.. فتتأود هي بطريقة تزيد من التصاقك بها وتهمس بتمنع مثير قبل أن تمنحك نفسها : "سيدي .. عيب كده يا سيدي " .. لقد عثرت في رباب على مثل هذا الكنز .."

.. لكن العثور على الكنز لا يعنى بالضرورة امتلاكه ، ومن أجل المحبوبة رباب اضطر زكى بك الى احتمال مضايقات كثيرة : كأن يقضى ليالى كاملة فى مكان قذر ضيق سيئ الإضاءة والتهوية مثل بار " كايرو " .. يكاد

يختنق من الزحام ودخان السجائر الكثيف ويوشك على الصمم من الصوت العالي لجهاز التسجيل الذى لا يتوقف لحظة عن بث الأغاني المنحطة البذيئة ، ناهيك عن المشاحنات المقذعة والتشاجر بالأيدي بين رواد المحل وهم خليط من الحرفيين والمشبوهين وشذاذ الآفاق ، وكنوس البراندي الرديء الحارق للمعدة الذى يضطر الى تجرعه كل ليلة ، والمغالطات الفاحشة فى فواتير الحساب التى يغض النظر عنها بل ويترك أيضا بقشيشا كبيرا للمحل وبقشيشا آخر أكبر يدسه فى فتحة صدر فستان رباب وعندما يلمس بأصابعه نهديها الممتلئين الرجراجين يشعر فورا بالدم الساخن يتدفق فى عروقه والرغبة العارمة تكاد تؤلمه من فرط قوتها وإلحاحها .. كل هذا تحمله زكى بك من أجل رباب وظل يدعوها المرة تلو المرة الى لقائه خارج المحل وهى تتمنع بدلال فيكرر دعوته ولا يفقد الأمل حتى وافقت بالأمس فقط على زيارته فى المكتب ومن فرط سعادته دس فى صدرها ورقة بخمسين جنيها (ولم يندم) واقتربت هي منه حتى لفحت أنفاسها وجهه وعضت بأسنانها شفتها السفلي وهمست بصوت مثير قوض ما تبقى من أعصابه :

- غدا .. أكافئك يا حبيبي على كل ما عملته من أجلى ..

* تحمل زكى بك حقنة التراى بى المؤلمة واستحلب الأفيون

وراح يرتشف على مهل الكأس الأولى من الويسكي ثم أتبعها بكأس ثانية وثالثة ولم يلبث أن تخلص من التوتر وغمره الانشراح وراحت الخواطر تداعب رأسه برفق وكأنها أنغام لطيفة .. كان موعد رباب الساعة واحدة ولما دقت ساعة الحائط دقتين كاد زكي بك أن يفقد الأمل لكنه، فجأة ، سمع وقع ضربات عكاز أبسخرون على بلاط الردهة ولم يلبث وجهه أن بان من فرجة الباب وقال وهو يلهث بانفعال وكأن الخبر يسعده حقا :

– مدام رباب وصلت يا سعادة البك *

• • •

في عام ١٩٣٤ فكر المليونير هاجوب يعقوبيان ، عميد الجالية الأرمينية في مصر آنذاك ، في إنشاء عمارة سكنية تحمل اسمه فتخير لها أهم موقع في شارع سليمان باشا وتعاقد لبنائها مع مكتب هندسي ايطالي شهير وضع لها تصميما جميلا : عشرة أدوار شاهقة من الطراز الأوروبي الكلاسيكي الفخم : الشرفات مزدانة بتماثيل لوجوه إغريقية منحوتة على الحجر والأعمدة والدرجات والممرات كلها بالرخام الطبيعي والمصعد ماركة شندلر على أحدث طراز .. استمرت أعمال البناء عامين كاملين خرجت بعدهما تحفة

معمارية جاوزت كل توقع لدرجة جعلت صاحبها يطلب من المهندس الإيطالي أن ينقش على بابها من الداخل اسمه "يعقوبيان" بحروف لاتينية كبيرة تضاء ليلا بالنيون وكأنه يخلد اسمه ويؤكد ملكيته للمبنى البديع ، وقد سكن في عمارة يعقوبيان صفوة المجتمع في تلك الأيام ، وزراء وباشوات من كبار الإقطاعيين ورجال صناعة أجانب واثنين من مليونيرات اليهود (أحدهما من عائلة موصيري المعروفة) وانقسم أسفل العمارة بالتساوي بين جراج متسع له أبواب متعددة من الخلف حيث تبيت سيارات السكان (ومعظمها من طرازات فخمة مثل الرولزرويس والبويك والشيفروليه) وفي الواجهة محل كبير على ثلاثة نواص خصصه يعقوبيان كمعرض للمنتجات الفضية من إنتاج مصانعه ، وظل هذا المعرض يعمل بنجاح على مدى أربعة عقود ثم تدهورت حالته شيئا فشيئا حتى اشتراه مؤخرا الحاج محمد عزام وافتتحه كمحل لبيع الملابس..وفوق سطح العمارة الفسيح خصصت حجرتان بمنافعهما لاقامة البواب وأسرته ، وفي الناحية الأخرى من السطح تم بناء خمسين غرفة صغيرة بعدد شقق العمارة ، لا تتجاوز مساحة الغرفة مترين ، جدرانها و أبوابها جميعا من الحديد الصلب وتغلق بأقفال تسلم مفاتيحها لأصحاب الشقق. وكانت للغرف الحديدية أغراض متعددة آنذاك مثل تخزين المواد الغذائية ومبيت

الكلاب (إذا كانت كبيرة الحجم أو شرسة) وأيضا غسيل الثياب الذى كانت تقوم به آنذاك غسالات متخصصات (قبل انتشار الغسالة الكهربائية) يغسلن فى الغرفة وينشرن الغسيل على الحبال الطويلة الممتدة بعرض السطح .. ولم تستعمل الغرف الحديدية قط في مبيت الخدم ربما لأن سكان العمارة فى ذلك الوقت من الأرستقراطيين والأجانب لم يتصوروا إمكانية نوم أى إنسان فى غرفة ضيقة بهذا الشكل كما أنهم فى شققهم الفاخرة الفسيحة (التي تضم أحيانا ثمانى أو عشر حجرات على مستويين يصل بينهما سلم داخلي) كانوا يخصصون حجرة للخدم .. وفى عام ١٩٥٢ قامت الثورة فتغير كل شىء ..بدأت هجرة اليهود والأجانب خارج مصر وكانت كل شقة تخلو بهجرة أصحابها يستولي عليها أحد ضباط القوات المسلحة ، أصحاب النفوذ فى ذلك العهد، حتى جاءت الستينيات فصارت نصف شقق العمارة يسكنها ضباط من رتب مختلفة من أول ملازمين ونقباء حديثي الزواج وصولا الى اللواءات الذين كانوا ينتقلون بأسرهم الكبيرة الى العمارة بل ان اللواء الدكرورى (مدير مكتب الرئيس محمد نجيب فى وقت ما) استطاع أن يحصل على شقتين كبيرتين متجاورتين فى الدور العاشر خصص واحدة لسكنه وأسرته و الأخرى كمكتب خاص يلتقي فيه بأصحاب الحاجات بعد

الظهر .. وقد بدأت زوجات الضباط فى استعمال الغرف الحديدية بطريقة مختلفة فصارت لأول مرة أماكن مبيت للسفرجية والطباخين والشغالات الصغيرات المجلوبات من قراهن لخدمة أسر الضباط ، وكانت بعض زوجات الضباط من أصول شعبية فلم يجدن غضاضة فى تربية الدواجن (أرانب وبط ودجاج) في الغرف الحديدية وشهدت سجلات حي غرب القاهرة شكاوى كثيرة تقدم بها السكان القدامى وذلك لمنع تربية الدواجن فوق السطح لكنها كانت تحفظ دائما بفضل نفوذ الضباط حتى شكا السكان إلى اللواء الدكرورى فاستطاع بمكانته عند الضباط أن يمنع تلك الظاهرة غير الصحية .. ثم جاء الانفتاح فى السبعينيات وبدأ الأثرياء فى الخروج من وسط البلد الى المهندسين ومدينة نصر وباع بعضهم شققهم فى عمارة يعقوبيان وخصصها البعض الأخر كمكاتب وعيادات لأبنائهم حديثي التخرج أو قاموا بتأجيرها مفروشة للسياح العرب .. وكانت النتيجة أن انقطعت الصلة شيئا فشيئا بين الغرف الحديدية وشقق العمارة وتنازل السفرجية والخدم القدامى مقابل المال عن غرفهم الحديدية لسكان فقراء جدد قادمين من الأرياف أو يعملون فى مكان ما فى وسط البلد ويحتاجون الى سكن قريب ورخيص .. وساعد على سهولة التنازل موت وكيل العمارة الأرمني المسيو " كريكور " الذى كان يدير أملاك

المليونير حاجوب يعقوبيان بمنتهى الأمانة والدقة ويرسل الريع في ديسمبر من كل عام الى سويسرا حيث هاجر ورثة يعقوبيان بعد الثورة ، وقد خلف كريكور في وكالة يعقوبيان الأستاذ فكرى عبد الشهيد المحامى الذى يفعل أى شىء مقابل المال فكان يأخذ نسبة كبيرة من المتنازل عن الغرفة الحديدية ونسبة أيضا من مستأجرها الجديد حتى يحرر له عقد ايجار بالغرفة .. وانتهى الأمر بنشأة مجتمع جديد فوق السطح مستقل تماما عن بقية العمارة ، استأجر بعض القادمين غرفتين متجاورتين وصنعوا منهما سكنا صغيرا بمنافعه (دورة مياه وحمام) بينما تعاون البعض الآخر (الأكثر فقرا) ليصنعوا حماما مشتركا لكل ثلاث أو أربع غرف وصار مجتمع السطح لا يختلف عن أى مجتمع شعبي آخر في مصر : فالأطفال يركضون فى أنحاء السطح حفاة وأشباه عراة والنسوة يقضين النهار فى إعداد الطبيخ ويعقدن جلسات النميمة فى الشمس ويتشاجرن كثيرا ويتبادلن أثناء المشاجرات أشنع الشتائم والاتهامات الماسة بالشرف وسرعان ما يتصالحن بعد ذلك ويتصافين تماما كأن شيئا لم يكن بل ويطبعن قبلات حارة منغمة على خدود بعضهن البعض وقد يبكين أيضا من فرط التأثر والمحبة أما الرجال فلا يهتمون كثيرا لمشاجرات النسوة ويعتبرونها مجرد دليل آخر على نقص عقلهن الذى تحدث عنه الرسول (صلى الله

عليه وسلم) والرجال جميعا فوق السطح يقضون اليوم في كفاح شاق مرير من أجل لقمة العيش ويعودون آخر النهار منهكين يسعون إلى تحقيق متعهم الصغيرة الثلاث : الطعام الساخن الشهي و بضعة أحجار من المعسل والحشيش ان تيسر ، يدخنونها على الجوزة فرادى أو يسهرون لتدخينها معا على السطح في ليالي الصيف أما المتعة الثالثة فهي "الجنس" الذى يحتفي به أهل السطح كثيرا ولا يجدون غضاضة في الحديث الصريح عنه ما دام حلالا ، وثمة تناقض هنا : فالرجل من سكان السطح الذى يستحي كعادة الشعبيين من ذكر اسم زوجته أمام الرجال فيشير إليها بأم فلان أو يتحدث عنها بصفتها العيال كأن يقول مثلا " العيال طبخوا ملوخية " فيفهم الحاضرون أنه يتحدث عن زوجته .. نفس هذا الرجل لا يتحرج في مجلس الرجال من ذكر أدق تفاصيل علاقته الخاصة مع زوجته حتى يكاد الرجال فوق السطح يعرفون كل شيء عن علاقات بعضهم البعض الجنسية ..أما النساء فهن جميعا وبغض النظر عن درجة تدينهن والتزامهن الأخلاقي ، يحببن الجنس جدا ويتهامسن عن تفاصيل الفراش ثم يطلقن ضحكات رائقة أو حتى خليعة إذا كن وحدهن .. وهن لا يحببن الجنس لمجرد إطفاء الشهوة وانما لأن الجنس وحرص رجالهن عليه يشعرهن بأنهن برغم كل الضنك

الذى يعانينه لازلن نساء جميلات ومرغوبات من رجالهن . وفي تلك اللحظة عندما يكون الأولاد نائمين بعد أن تعشوا وحمدوا ربهم وثمة طعام فى البيت يكفى أسبوعا ويزيد وثمة نقود قليلة مدخرة للطوارئ والحجرة التى يعيشون فيها جميعا نظيفة ومرتبة ويجئ الرجل ليلة الخميس رائق المزاج من تأثير الحشيش ويطلب زوجته أولا يكون واجبها حينئذ أن تلبى نداءه بعد أن تستحم وتتزين وتتعطر ؟! أولا تعطيها هذه الساعات القصيرة من السعادة دليلا على أن حياتها البائسة موفقة على نحو ما برغم كل شيء ؟!..
ويحتاج الأمر إلى رسام بارع لكي ينقل إلينا تعبيرات وجه امرأة فوق السطح ، صباح الجمعة ، عندما ينزل زوجها لأداء الصلاة وتغتسل هي من آثار الحب ثم تخرج إلى السطح لتنشر ملاءات الفراش المغسولة ، تبدو في تلك اللحظة بشعرها المبلل وبشرتها المتوردة ونظراتها الصافية وكأنها وردة ارتوت بندى الصباح فاكتملت وأينعت .

• • •

كان ظلام الليل ينسحب إيذانا بصباح جديد ، وثمة ضوء صغير شاحب فوق السطح ينبعث من نافذة حجرة الشاذلي بواب العمارة حيث كان ابنه الشاب طه قد قضى

ليلته ساهرا من فرط القلق ، أدى صلاة الفجر وركعتي السنة ثم جلس بجلبابه الأبيض على السرير يقرأ في كتاب الدعاء المستجاب ويردد بصوت هامس ضارع في سكون الحجرة :

" اللهم أني أسألك خير هذا اليوم وأعوذ بك من شره وشر ما فيه . اللهم احرسني بعينك التي لاتنام واغفر لي بقدرتك فلا أهلك و أنت رجاني. ربى يا ذا الجلال والإكرام لك وجهت وجهي فأقبل إلى بوجهك الكريم واستقبلني بمحض عفوك وكرمك وأنت ضاحك إلي وراض عنى برحمتك. "

ظل طه يقرأ الأدعية حتى سطع نور الصباح في الحجرة وشيئا فشيئا دبت الحركة في الغرف الحديدية : أصوات وصياح وضحكات وسعال وأبواب تغلق وتفتح و روائح ماء ساخن وشاي وقهوة وفحم ومعسل .. بالنسبة لسكان السطح كانت بداية ليوم جديد أما طه الشاذلي فكان يدرك أن مصيره سوف يتحدد اليوم إلى الأبد فبعد ساعات قليلة يتقدم إلى كشف الهيئة في كلية الشرطة ، الحاجز الأخير في سباق الأمل الطويل ، كان يحلم منذ الطفولة بأن يكون ضابط شرطة ومن أجل تحقيق الحلم بذل كل ما لديه .. انكب على الاستذكار في الثانوية العامة حتى حصل على مجموع ٨٩ ٪ أدبي بدون دروس خصوصية (باستثناء

بعض مجموعات التقوية في المدرسة التي كان أبوه يوفر ثمنها بالكاد) . وانضم في العطلة الصيفية إلى مركز شباب عابدين (بمصاريف عشرة جنيهات شهريا) وصبر على تمرينات كمال الأجسام الشاقة حتى يكتسب القوام الرياضي الذي يؤهله لاختبارات اللياقة في كلية الشرطة ومن أجل تحقيق الحلم تودد طه إلى ضباط الشرطة في المنطقة حتى صاروا جميعا أصدقاءه سواء الضباط العاملين في قسم قصر النيل أو في نقطة كوتسيكا التابعة له وعن طريقهم عرف طه كل التفاصيل الخاصة باختبارات القبول للشرطة وعرف أيضا موضوع العشرين ألف جنيه التي يدفعها الأثرياء رشوة حتى يضمنوا قبول أولادهم في الكلية (وكم تمنى لو يملك هذا المبلغ) .. ومن أجل تحقيق الحلم، أيضا ، تحمل طه الشاذلي رذالة سكان العمارة وغطرستهم ، كان يساعد أباه منذ الصغر في الخدمة ولما ظهر ذكاؤه وتفوقه في الدراسة تقبل السكان الأمر بطرق مختلفة :بعضهم كان يشجعه على الاستذكار ويجزل له العطاء ويتنبأ له بالمستقبل الباهر أما الآخرون (وهم كثيرون) فكانت فكرة " ابن البواب المتفوق " تزعجهم على نحو ما ، وحاولوا إقناع أباه بإلحاقه بالتعليم الصناعي بعد الإعدادية .. "حتى يتعلم صنعة فينفعك وينفع نفسه" هكذا قالوا لعم شاذلي العجوز وهم يتظاهرون بالإشفاق عليه وعندما التحق طه بالثانوي

العام واستمر في التفوق كانوا يسألون عليه أيام الامتحانات ويكلفونه بأعمال شاقة تستغرق وقتا طويلا ويغدقون عليه البقشيش لاغرائه وفى نفوسهم رغبة دفينة خبيثة لتعطيله عن الاستذكار وكان طه يقبل تلك الأعمال لحاجته للنقود لكنه ظل يتفانى في الاستذكار حتى أنه كثيرا ماكان يقضى يوما أو يومين بلا نوم حتى ظهرت نتيجة الثانوية العامة وحصل على مجموع أكبر من أولاد الكثيرين في العمارة ، عندئذ ، بدأ المتذمرون يتكلمون علانية ، فكان الواحد منهم يلتقي بالآخر أمام المصعد فيسأله متهكما إن كان قد هنأ البواب على تفوق ابنه ثم يضيف ساخرا إن ابن البواب سيلتحق بكلية الشرطة قريبا ويتخرج ضابطا بنجمتين على كتفه عندئذ يعلن الآخر بصراحة امتعاضه من هذا الموضوع فيثنى أولا على أخلاق طه واجتهاده ثم يستدرك بجدية (وكان ما يعنيه هو المبدأ وليس الشخص) إن مناصب الشرطة والقضاء والمناصب الحساسة عموما ينبغي أن تقتصر على أولاد الناس لأن أولاد البوابين والكوائين وأمثالهم لو أخذوا أية سلطة سوف يستعملونها في تعويض مركبات النقص والعقد النفسية التي أصابتهم في نشأتهم الأولى ثم ينهى حديثه بلعن عبد الناصر الذي استحدث مجانية التعليم أو يستشهد بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :.." لاتعلموا أولاد السفلة" ..

هـؤلاء السكان ، أنفسهم ، أخذوا يتحرشون بطه بعد ظهور النتيجة ويوبخونه على أهون سبب كأن يغسل السيارة وينسى إرجاع الدواسات إلى مكانها أو يتأخر بضع دقائق في مشوار بعيد أو يشترى عشرة طلبات من السوق وينسى طلبا واحدا ، كانوا يتعمدون إهانته بوضوح كامل حتى يدفعوه إلى الرد عليهم بأنه لا يقبل هذه الإهانات لأنه متعلم ، عندئذ تحين فرصتهم الذهبية لكي يعلنوا له الحقيقة : انه هنا مجرد بواب لا أكثر ولا أقل ، وإذا كانت شغلته لاتعجبه فليتركها لمن يحتاجها .. لكن طه لم يمنحهم هذه الفرصة أبدا ، كان يقابل ثورتهم بصمت واطراقة وشبه ابتسامة وكان وجهه الأسمر الوسيم عندئذ يعطى الانطباع بأنه لا يوافق على ما يوجه إليه وأنه بمقدوره تماما أن يرد الإهانة إلى صاحبها لكن احترام الكبير يمنعه من الرد .. كان هذا واحدا من أوضاع كثيرة ، بمثابة وسائل دفاعية ، يستعملها طه في المواقف الصعبة لكي يعبر عما في نفسه ويتفادى المشاكل في آن واحد ، أوضاع يبدأ بتمثيلها وسرعان ما يؤديها بصدق وكأنها حقيقة فكان مثلا لا يحب الجلوس على دكة البواب حتى لا يضطر للوقوف احتراما لأي ساكن وإذا جلس على الدكة ولمح الساكن قادما تشاغل بشيء يمنع عنه واجب الوقوف وتعود أن يحدث السكان بقدر من الاحترام محدد بدقة ، أن يعاملهم كموظف مع

رئيسه وليس كخادم مع سيده ، أما أولاد السكان المقاربين له في السن فكان يتصرف معهم بندية كاملة فيناديهم بأسمائهم المجردة ويحادثهم ويعابثهم كأصدقاء حميمين ويستعير منهم كتبا مدرسية قد لا يكون بحاجة إليها لكي يذكرهم بأنه ، برغم وضعه كبواب، زميل لهم في الدراسة .. كانت هذه ابتذالات الحياة اليومية : الفقر والعمل المضني وعجرفة السكان وتلك الورقة بخمسة جنيهات المطوية دائما التي يمنحها له أبوه يوم السبت والتي يحتال بألف طريقة حتى تكفيه طوال الأسبوع ، منظر يد أحد السكان الدافئة الناعمة تمتد بكسل وتفضل من نافذة السيارة لتمنحه البقشيش ولابد حينئذ من أن يرفع يده بتعظيم سلام ويشكر المحسن إليه بحرارة وصوت مسموع ، تلك النظرة الوقحة الناطقة بالتشفي أو المتسامحة المتعاطفة المتوارية خجلا من " الموضوع " التي يلمحها في عيون زملائه في المدرسة عندما يزورونه ويكتشفون أنه يسكن في حجرة البواب " فوق السطح " .. ذلك السؤال الكريه المحرج الذي يوجهه إليه الغرباء عن العمارة " انت البواب ؟! " .. تثاقل السكان المتعمد وهم يداخلون إلى العمارة حتى يهرع ويحمل عنهم ما يحملونه (مهما يكن خفيفا وتافها) .. هكذا يمضي النهار بمضايقاته وعندما يدخل إلى فراشه آخر الليل ، يكون دائما طاهرا متوضئا بعد أن يصلي العشاء والشفع والوتر ،

ويظل محملقا في ظلام الحجرة لفترة طويلة وشيئا فشيئا يحلق عاليا فيرى نفسه بعين الخيال ضابط شرطة يتهادى معتزا ببدلته الرسمية الجميلة وعلى كتفه تلمع النجوم النحاسية وتتدلى من حزامه الطبنجة الميرى المهيبة ويتخيل نفسه وقد تزوج من حبيبته بثينة السيد وانتقلا إلى شقة لانقة في حي راق بعيدا عن ضوضاء السطح وقذارته ، كان لديه إيمان راسخ بأن الله سيحقق أحلامه جميعا أولا لأنه يتقي الله قدر جهده فيحافظ على الفرائض ويتجنب الكبائر وقد بشر الله عباده المتقين في الآية الكريمة " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض " وثانيا لأنه يحسن الظن بالله وقد أكد عز وجل في حديثه القدسي : " أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وان شرا فشر " وها قد صدق الله وعده ووفقه في الثانوية العامة وقد نجح والحمد لله في كل اختبارات كلية الشرطة ولم يبق أمامه سوى كشف الهيئة وسوف يجتازه اليوم بإذن الله .

نهض طه وصلى ركعتي الضحى وركعتين لقضاء الحاجة ثم اغتسل وحلق ذقنه و بدأ يرتدي ملابسه ، كان قد اشترى من أجل كشف الهيئة بدلة جديدة لونها رمادي وقميصا أبيض ناصعا ورابطة عنق زرقاء جميلة وعندما ألقى نظرة أخيرة على نفسه في المرآة كان يبدو أنيقا جدا وقبل أمه مودعا فوضعت يدها على رأسه وتمتمت بالرقية

ثم أخذت تدعو له بحرارة خفق لها قلبه وفي مدخل العمارة وجد أباه جالسا وقد ربع ساقيه على الدكة كعادته ونهض العجوز ببطء وتأمل طه قليلا ثم وضع يده على كتفه وابتسم فاهتز شاربه الأبيض وظهر فمه خاليا من الأسنان وقال في زهو : "مبروك مقدما ياحضرة الضابط" .. كانت الساعة جاوزت العاشرة وشارع سليمان باشا قد ازدحم بالسيارات والمارة ومعظم المحلات فتحت أبوابها وفكر طه في أن أمامه ساعة كاملة حتى موعد الامتحان وقرر أن يستقل تاكسيا خوفا من إفساد البدلة في زحام المواصلات وتمنى لو يقضى الوقت المتبقي مع بثينة وكانت الطريقة المتفق عليها بينهما أن يمر أمام محل شنن للملابس حيث تعمل وعندما تراه تستأذن من الأستاذ طلال صاحب المحل بحجة إحضار أي شئ من المخزن ثم تلحق به في مكانهما المفضل عند الحديقة الجديدة في ميدان التوفيقية .. فعل طه المتفق عليه وظل جالسا هناك ما يقرب من ربع ساعة حتى ظهرت بثينة، وشعر بقلبه يخفق لمرآها.. كان يحب طريقتها في المشي ، تسير بخطوات ضيقة بطيئة وهى مطرقة فتبدو وكأنها خجلي أو نادمة لسبب ما أو كأنها تسير بحذر بالغ على سطح هش لئلا تكسره بخطواتها.. لاحظ أنها ترتدي الفستان الأحمر الضيق الذي يبرز تفاصيل جسدها ويظهر من فتحته الواسعة صدرها المكتنز فشعر

بالغضب وتذكر أنه تشاجر معها من قبل حتى لا ترتدى هذا الفستان لكنه كظم غيظه ولم يرد أن يفسد المناسبة وابتسمت فبانت أسنانها الصغيرة المنتظمة الناصعة والنغازتان الرائعتان اللتان تحيطان بفمها وشفتيها المطليتين بلون داكن . جلست بجواره على سور الحديقة الرخامي الواطئ ثم استدارت ناحيته وتطلعت إليه بعينيها العسيليتين الواسعتين كالمندهشة وقالت: " كل هذه الأناقة ؟! " فأجابها بصوت هامس مضطرم :

- أنا ذاهب الآن إلى كشف الهيئة وأحببت ان أراك

- ربنا معك..

هكذا قالت بحنان صادق فخفق قلبه بشدة وتمنى في تلك اللحظة لو يضمها إلي صدره .

- أنت خائف ؟!

- لقد فوضت أمري لله عز وجل وكل ما يفعله ربنا سأقبله بنفس راضيةً إن شاء الله .. هكذا قال بسرعة وكأنه جهز الرد سلفا أو كأنه يتكلم ليقنع نفسه ثم صمت لحظة و استطرد برقة وهو ينظر إلى عينيها :

- ادعى لى ..

- يارب يوفقك ياطه ..

هكذا هتفت بحرارة ثم استطردت وكأنها أحست بأنها أفرطت في إظهار مشاعرها :

- لا بد أن انصرف الآن لأن الأستاذ طلال ينتظرني

كانت تنسحب ، حاول أن يستبقيها لكنها مدت يدها مصافحة وهى تتحاشى النظر إلى عينيه وقالت بلهجة عادية رسمية : " بالتوفيق إن شاء الله " وفكر طه بعد ذلك وهو جالس في التاكسي أن بثينة قد تغيرت ناحيته و أن هذه حقيقة لاجدوى من تجاهلها ، انه يعرفها جيدا وتكفيه نظرة واحدة لكي ينفذ إلى أعماقها وهو يحفظ عن ظهر قلب كل أحوالها : وجهها المشرق بالسعادة أو الحزين ، ابتسامتها الحائرة ووجهها المتضرج إذا خجلت ، نظراتها المتنمرة وملامحها المربدة من الغضب (الجميلة مع ذلك) .. حتى وقد استيقظت لتوها من النوم كان يحب أن ينظر إليها وآثار النعاس على وجهها تجعلها أشبه بطفلة وديعة مستسلمة .. كان يحبها و يحتفظ في ذاكرته بصورتها وهى طفلة صغيرة تلعب معه فوق السطح ويركض وراءها ويتعمد أن يلتصق بها فتدغدغه رائحة الصابون المنبعث من شعرها ، صورتها وهى تلميذة في مدرسة التجارة الثانوية ترتدي القميص الأبيض والجيبة الزرقاء والجورب الأبيض المدرسي القصير على الحذاء الأسود وتمشي وهى تحتضن حقيبتها وكأنها تخفى بها صدرها الناضج ، تلك الصور الجميلة وهما يتنزهان معا في القناطر الخيرية وحديقة الحيوان وذلك

اليوم عندما تكاشفا بالحب وتعاهدا على الزواج وتعلقها به بعد ذلك وسؤالها عن تفاصيل حياته وكأنها زوجته الصغيرة القائمة بشئونه ، كانا قد اتفقا على كل شيء في المستقبل حتى عدد الأطفال التي ستنجبهم منه وأسماؤهم وشكل الشقة التي سوف يتزوجان فيها لكنها فجأة تغيرت ، قل اهتمامها به وصارت تتحدث عن " مشروعهما " بعدم اكتراث وسخرية ، تتشاجر معه كثيرا وتتهرب من لقائه بحجج مختلفة ، حدث ذلك عقب وفاة أبيها .. لماذا تغيرت ؟! هل كان حبهما مجرد مراهقة فلما كبرت تجاوزته أم أنها صارت تحب شخصا آخر ، كان هذا الخاطر يوخزه حتى يدميه كالشوكة وأخذ يتخيل الأستاذ طلال السوري (صاحب المحل الذي تعمل فيه) وقد أخذ ذراعها تحت إبطه وهو يرتدي بدلة العريس .. شعر طه بهم ثقيل يجثم على قلبه ثم انتبه من تفكيره عندما توقف التاكسي أمام مبنى كلية الشرطة الذي بدا له في تلك اللحظة مهيبا وتاريخيا وكأنه قلعة القدر حيث يتحدد مصيره وعاودته الرهبة من الامتحان فأخذ يهمس بتلاوة آية الكرسي وهو يدنو من البوابة.

• • •

المعلومات المتوفرة عن أبسخرون في شبابه قليلة للغاية :

.. فنحن لا نعرف ماذا كان يصنع قبل سن الأربعين ولا الظروف التي بترت فيها ساقه اليمنى .. كل ما نعرفه يبدأ في ذلك اليومي الشتوي الممطر ، منذ عشرين عاما ، عندما وصل أبسخرون إلى عمارة يعقوبيان في السيارة الشيفروليه السوداء لمدام سناء فانوس وهى أرملة قبطية من أصل صعيدي ، ثرية ولها ولدان تفرغت لتربيتهما بعد وفاة زوجها لكنها برغم حدبها على ولديها كانت تستجيب لنزوات جسدها من وقت لآخر وقد تعرف إليها زكى الدسوقى في نادى السيارات ورافقها لفترة وبقدر استمتاعها بالعلاقة ظل ضميرها الديني يؤرقها وكثيرا ما يجعلها تنخرط في بكاء مؤلم وهي مستلقية في أحضان زكي بعد انقضاء اللذة وراحت تهدئ من إحساسها بالذنب بالإكثار من عمل الخير عن طريق الكنيسة ومن هنا .. ما أن مات "برعي" الفراش القديم لمكتب زكى حتى ألحت عليه في توظيف أبسخرون (الذي كان اسمه موضوعا على قائمة المساعدة في الكنيسة) وهاهو أبسخرون ، يقف مطرقا منكمشا كالفأر في أول لقاء مع زكى بك الذي أصيب بخيبة أمل من مظهره الرث وساقه المبتورة وعكازيه اللذين يطبعانه بسمت الشحاذين فقال لصديقته سناء ساخرا بالفرنسية:

- "لكنني يا عزيزتي أدير مكتبا وليس جمعية خيرية"

وظلت هي تستعطفه وتتدلل عليه حتى قبل على مضض في النهاية استخدام أبسخرون وفي ذهنه أن يرضيها بضعة أيام ثم يطرده بعد ذلك لكن هيهات.. فقد أثبت أبسخرون من اليوم الأول كفاءة نادرة: قدرة فذة على العمل الشاق المتصل حتى أنه كان يطلب كل يوم إلى البك إضافة أعمال جديدة إلى قائمة مهامه وذكاء حاد ولباقة وكياسة تجعله دائما يسدد التصرف في مكانه الصحيح وقدرة على الكتمان المطلق فهو لا يرى ولا يسمع ما يحدث أمامه ولو كان جريمة قتل.. وبفضل هذه المزايا العظيمة لم تمض بضعة أشهر حتى كان زكي بك لايستغنى عن أبسخرون ساعة واحدة حتى أنه صنع جرسا جديدا في مطبخ الشقة يستدعيه به عندما يريده وأجزل له المرتب وسمح له بالمبيت في المكتب (وهذه لم يفعلها مع أحد قبله) وقد فهم أبسخرون طبع البك من اليوم الأول وعرف أن سيده مدلل ولاه وصاحب نزوات وأحوال وقلما يخلو رأسه من أثر المكيفات وهذا النوع من الرجال (طبقا لتجربة أبسخرون العريضة في الحياة) سريع الغضب حاد الطباع لكنه نادرا ما يؤذى وأقصى ما يناله المرء منهم تعنيف وتوبيخ وقد آلى أبسخرون على نفسه ألا يجادل سيده أو يراجعه فيما يريد

أبدا بل وأن يبادره دائما بالاعتذار والتوسل حتى يكسب وده وهو لا يخاطبه أبدا إلا بلفظ " سيادتك " يضعه في أية جملة ينطق بها فإذا سأله البك مثلا : "كم الساعة الآن ؟!.." ستكون إجابة أبسخرون : "..سيادتك .. الساعة خامسة ..!!" .. والحق أن تكيف أبسخرون مع عمله في المكتب يبدو كظاهرة بيولوجية على نحو ما ، ففي وسط الظلمة الهادئة التي تعم الشقة في ساعات النهار وتلك الرائحة العطنة العتيقة الناتجة عن اختلاط رائحة الأثاث القديم بالرطوبة برائحة الفنيك المركز الذي يأمر البك باستعماله في تنظيف الحمام ، في ذلك " الوسط " ، عندما يبرز أبسخرون من أحد أركان الشقة بعكازيه وجلبابه المتسخ دائما ووجهه العجوز البائس وابتسامته المتزلفة ، يبدو حينئذ وكأنه كائن ينشط في مجاله الطبيعي (كالسمك في الماء أو الحشرات في البالوعة) بل انه عندما يخرج من عمارة يعقوبيان لسبب ما و يمشي في الشارع المشمس وسط المارة وضجيج السيارات يبدو شكله عندئذ غير مألوف واستثنائي (وكأنه وطواط في وضح النهار) ولا يستعيد تناسقه إلا إذا عاد إلي المكتب حيث قضى عقدين من الزمان كامنا في الظلمة والرطوبة .. على أننا لا يجب أن ننخدع فنعتبر أبسخرون مجرد خادم مطيع فالحق أنه أكثر من ذلك بكثير وخلف مظهره الضعيف الخانع تكمن إرادة

قوية وأهداف محددة يقاتل ببسالة وعناد من أجل تحقيقها وهو إلى تربية بناته الثلاث وتعليمهن قد أخذ على عاتقه العناية بأخيه الأصغر ملاك وعياله أيضا .... من هنا تفهم ما يفعله كل مساء عندما ينفرد بنفسه في حجرته الصغيرة ويخرج من جيب الجلباب مكسب النهار، كل القروش والأوراق المالية الصغيرة المطوية المبللة بالعرق، سواء التي حصل عليها كبقشيش مباشر أو تلك التي نجح في اختلاسها من مشتريات المكتب .. (وتعد طريقة أبسخرون في السمسرة نموذجا للتحايل البارع الدقيق فهو لا يبالغ في أسعار ما يشتريه كما يفعل الهواة لأن الأسعار معروفة أو قابلة للمعرفة في أية لحظة لكنه، مثلا، يختلس من البن والشاي والسكر قدرا صغيرا يوميا يستحيل ملاحظته ثم يعيد تغليف التموين المسروق في باكوات جديدة ويعيد بيعها لزكي بك مع تقديم فواتير حقيقية يحصل عليها باتفاق خاص مع السني البقال في شارع معروف) ..

.. في المساء قبل أن يأوي إلى فراشه، يعد أبسخرون نقوده مرتين بعناية ثم يخرج القلم الكوبية الصغير الذي يضعه دائما خلف أذنه ويكتب رصيد مكسبه ويطرح منه جزء الادخار (الذي سيضعه في دفتر التوفير يوم الأحد ولن يمسسه بعد ذلك أبدا) ثم يسدد في ذهنه من باقي الرزق احتياجات أسرته الكبيرة وسواء تبقى له شئ بعد ذلك أو لم

يتبق فـان أيسـخرون ، المسيحي المؤمن ، لايمكن أن ينام قبل أن يرتل صلاة الشكر للرب وفى سكون الليل يتردد صوته وهـو يهمس بـورع صادق أمـام تمثـال يسـوع المصلوب المعلق علـى حـائط المطبخ : " ... لأنك ياسيدى أطعمتني وأطعمت أولادي فانـا أحمدك تمجـد اسمك فـي السماوات ..آمين "

• • •

كلمة ، لابد منها ، عن ملاك

تختلف أصابع اليد في الشكل لكنها تتحرك كلها بتناسق لتؤدى مهمة ما .. وفى الملعب ، يرسل لاعب الوسط الكرة بمنتهى الدقة لتسقط أمام قدم المهاجم فيسجل منها الهدف .. هكذا تمضي علاقة أبسخرون بأخيه ملاك في تناغم رائع.. تعلم ملاك التفصيل في ورش القمصان منذ الصغر فلم تترك عليه الخدمة في البيوت طابع الذل مثل أخيه ، والحق أنه بقامته القصيرة وبدلته الشعبية الداكنة وكرشه الضخم ووجهه المكتنز المفتقر إلى الوسامة يترك في النفس لأول وهلة انطباعا غير مريح لكنه يسرع فيبادر أى شخص يلقاه بابتسامة عريضة ويصافحه بحرارة ويحدثه بحميمية ويمتدحه ويحترمه ويوافقه على ارائه جميعا

(مادامت لاتمس مصالحه الحيوية) ثم يدعوه بالحاح إلى سيجارة كيلوباترا (من علبته المجعدة التي يخرجها من جيبه بحرص ويتأكد في كل مرة من سلامتها وكأنها جوهرة) .. على أن هذا اللطف البالغ له جانب آخر فإذا لزم الأمر يتحول ملاك ، فورا ، بكل سهولة ، إلى البذاءة الكاملة الجديرة بشخص مثله تلقى معظم تربيته الأساسية في الشارع .. ولأنه يجمع بين النقيضين : الشراسة والجبن .. الرغبة العنيفة في إيذاء الخصوم والخوف البالغ من العواقب، فقد تعود في معاركه أن يهجم بأقصى ما يسمح به الموقف فإذا لم يجد مقاومة أمعن في العدوان بلا أدنى رحمة وكأنه لا يعرف الخوف وإذا لقي مقاومة جدية من خصمه انسحب فورا لا يلوى على شيء .. كل هذه المهارات العالية لملاك تضاف إلى حكمة أبسخرون ودهائه فيعمل الاثنان معا بتناسق تام ويأتيان بالعجب العجاب والحق يقال .. وقد أراد الأخوان الحصول على حجرة فوق السطح فخططا ودبرا للأمر شهورا طويلة حتى حانت اليوم ساعة التنفيذ وما أن دخلت رباب عند زكى بك حتى وقف أبسخرون على عتبة الباب وانحنى وقال بابتسامة خفيفة ماكرة : " سيادتك .. أستأذن في مشوار بسرعة ؟! .." وقبل أن يكمل الجملة أشار له البك (المنهمك مع عشيقته) أن يذهب فأغلق الباب برفق وبدا وهو يضرب بعكازه الخشبي بلاط الردهة وكأنه يغير

وجهه ، اختفت الابتسامة الذليلة المتوسلة وظهر بدلا منها تعبير جاد قلق .. اتجه أبسخرون إلى المطبخ الصغير بجوار مدخل الشقة وتطلع حوله في حذر ثم شب لأعلى مستندا إلى العكاز حتى استطاع أن ينتزع برفق صورة العذراء المعلقة على الحائط وكان وراءها كوة دس يده فيها وأخرج بضع رزم من الأوراق المالية الكبيرة قام بإخفائها بحرص في صديريته وجيوبه ثم خرج من الشقة بعدما أغلق وراءه الباب برفق واحكام .. وعندما وصل إلى مدخل العمارة استدار إلي اليمين بعكازه واقترب من حجرة البواب وسرعان ما ظهر أخوه ملاك الذي كان ينتظره ، تفاهم الأخوان بنظرة واحدة وبعد دقائق كانا يذرعان شارع سليمان باشا في طريقهما إلى نادى السيارات لمقابلة فكرى عبد الشهيد المحامى وكيل عمارة يعقوبيان . كانا قد أعدا لهذا اللقاء وتحدثا عنه على مدى شهور بحيث لم يعد لديهما ما يقولانه فمضيا صامتين إلا أن أبسخرون أخذ يتمتم بالأدعية للعذراء ويسوع المخلص حتى يوفقهما في المهمة أما ملاك فكان يكدح ذهنه لاختيار العبارات المؤثرة التي يبدأ بها الحديث مع فكرى بك ، كان قد قضى الأسابيع الأخيرة في جمع المعلومات عنه فعرف أنه يصنع أي شئ مقابل المال وأنه يحب الخمر والنسوان فذهب للقائه في مكتبه بشارع قصر النيل وأهداه زجاجة ويسكي من نوع

"الأولد بار" الفاخر قبل أن يفتحه في موضوع الغرفة الحديدية في مدخل السطح التي خلت بموت عطيه بائع الجرائد الذي عاش ومات وحيدا فآلت حجرته إلى صاحب العمارة وكان ملاك يحلم بهذه الحجرة ليفتتحها كمحل قمصان بعد ما تجاوز الثلاثين وهو صبي ينتقل من محل إلى محل حسب الظروف .. ولما فاتحه في الموضوع طلب فكرى بك مهلة ليفكر وبعد إلحاح من ملاك وأخيه وافق على إعطائهما الحجرة مقابل مبلغ ستة آلاف جنيه لا ينقصون جنيها واحدا وحدد لهما موعدا في نادى السيارات حيث تعود أن يتناول غداءه كل أحد .. وصل الأخوان إلى النادي وأحس أبسخرون برهبة من فخامة المكان وراح يتطلع إلى الرخام الطبيعي الذي يغطي الجدران والأرضية وذلك البساط الأحمر الوثير الممتد إلى حيث المصعد وكأنما شعر به ملاك فضغط على ذراعه مشجعا ثم تقدم وصافح بواب النادي بحرارة وسأله عن فكرى عبد الشهيد وكان ملاك ، تحسبا لهذا اليوم ، قد تعرف إلى عمال نادي السيارات خلال الأسبوعين الماضيين واكتسب ودهم بأحاديث لطيفة مجاملة وبعض الجلابيب البيضاء قدمها لهم هدايا ، من هنا تسابق السفرجية والعمال إلى الترحيب بالأخوين وقادوهما إلى المطعم في الدور الثاني حيث كان فكرى بك يتناول الغداء مع صديقة له بيضاء وبدينة ، لم

يكن يليق بالطبع أن يقتحم الأخوان على البك جلسته فبعثا إليه من أخبره بوجودهما وانتظراه في حجرة جانبية منعزلة ولم تمض دقائق حتى ظهر فكرى عبد الشهيد بجسده البدين وصلعته الفسيحة ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالأجانب وبدا لهما فورا أنه قد أسرف في الشراب من احمرار عينيه وثقل خفيف في النطق وبعد التحيات والمجاملات بدأ أبسخرون فاصلا طويلا في مديح البك وطيبة قلبه وتمثله ليسوع المخلص في كل تصرفاته ، ظل يحكي (وأخوه ملاك ينصت متظاهرا بالانبهار) كيف أن البك يعفى كثيرا من موكليه من أتعاب القضايا إذا تأكد له أنهم مظلومين وفقراء يعجزون عن الدفع ..

- " تعرف ياملاك ماذا يقول فكري بك للموكل الفقير إذا حاول أن يدفع مالا ؟ " ..هكذا سأل أبسخرون وسرعان ما أجاب نفسه :" يقول له .. اذهب واسجد شكرا للسيد المسيح لأنه دفع لي أتعاب قضيتك بالكامل ..! " ... مصمص ملاك شفتيه وعقد يديه على بطنه البارز وأطرق وقد بدا عليه التأثر البالغ وقال : " هكذا يكون المسيحي الحقيقي " لكن فكرى بك برغم سكره كان منتبها لمسار الحديث ولم يسترح كثيرا للمعنى الكامن في كلامهما فقال بلهجة جادة ليحسم الأمر : هل أحضرتما المال كما اتفقنا ؟! .. صاح أبسخرون " طبعا يا سعادة البك وأضاف وهو

يناوله ورقتين " هاهو العقد كما اتفقنا سيادتك والرب يبارك " ثم دس يده في صديريته ليخرج النقود ، كان قد أحضر الستة آلاف المتفق عليها لكنه وزعها في أنحاء ثيابه ليحتفظ لنفسه بهامش للمناورة وقد بدأ بإخراج أربعة آلاف جنيه ومد يده بهم إلى البك الذي صاح غاضبا : ما هذا .. أين الباقي ؟! " .. وهنا اندفع الأخوان في نفس واحد ، وكأنهما ينشدان مقطوعة ، أخذا يتوسلان معا : أبسخرون بصوته اللاهث المحشرج المبحوح وملاك بصوته العالي الرفيع الحاد وتداخلت كلماتهما بحيث لم تعد مفهومة لكنهما ، في المجمل ، كانا يستدران عطف البك بالحديث عن فقرهما وأنهما والمسيح الحي قد استدانا المبلغ ولا يستطيعان بالأمانة أن يدفعا أكثر من ذلك على أن فكري بك لم يلن لحظة بل ازداد غضبه وقال : " دا لعب عيال ..ماينفعنيش الكلام دا" واستدار ليعود إلى المطعم لكن أبسخرون الذي كان يتوقع هذه الحركة ألقى بنفسه ناحية البك بقوة لدرجة أنه ترنح وكاد يقع ثم بحركة خاطفة أخرج من جيب الجلباب رزمة إضافية بألف جنيه ودسها مع الرزم الأخرى في جيب البك الذي برغم غضبه لم يبد مقاومة جدية وترك المال يندس في جيبه ، وكان لابد لأبسخرون عندئذ من أن يبدأ فاصلا آخر من الاستعطاف حاول أثنائه تقبيل يد البك أكثر من مرة ثم أنهى توسله الحار بحركة خاصة كان يدخرها

للضرورة إذ مال بجذعه للوراء فجأة ثم جذب بيديه الاثنتين جلبابه القذر المهترئ فبانت ساقه المقطوعة المتصلة بالجهاز التعويضي ذي اللون الداكن الكئيب وصرخ بصوت مبحوح متقطع يبعث على الشفقة : " يا سعادة البك ربنا يخلى لك أولادك .. أنا عاجز يابك ورجلي مقطوعة.. عاجز وفى رقبتي كوم لحم وملاك بيصرف على أربعة عيال وأمهم .. لو بتحب السيد المسيح يابك ماترجعني مكسور الخاطر .. " كانت هذه فوق ما يحتمل فكرى بك وبعد قليل كان الثلاثة جالسين يوقعون العقد : فكرى عبد الشهيد المغتاظ من تعرضه لابتزاز عاطفي كما أسماه بعد ذلك وهو يحكى ما حدث لصديقته وملاك الذي كان يفكر في الخطوات الأولى التي سينفذها في حجرته الجديدة فوق السطح أما أبسخرون ، فقد احتفظ على وجهه بآخر تعبير مؤثر : نظرة منكسرة حزينة وكأنه قد غلب على أمره وتكلف فوق طاقته بكثير ، لكنه في داخله كان سعيدا من أجل توقيع عقد الحجرة وأيضا لأنه استطاع بمهارته أن ينقذ رزمة بألف جنيه كان يستشعر دفأها اللذيذ في جيب جلبابه الأيسر ..

• • •

ظلت وسط البلد - لمائة عام على الأقل - المركز التجاري والاجتماعي للقاهرة حيث تقع اكبر البنوك

والشركات الأجنبية والمحال التجارية وعيادات ومكاتب مشاهير الأطباء والمحامين ودور السينما والمطاعم الفاخرة ولقد شيدت النخبة القديمة في مصر وسط البلد لتكون الحي الأوروبي للقاهرة حتى أنك فيكل العواصم الأوروبية ستجد شوارع تشبهها .. نفس الطراز المعماري والمسحة التاريخية العريقة ، وظلت وسط البلد حتى مطلع الستينيات محتفظة بطابعها الأوروبي الخالص والمخضرمون لاشك يذكرون تلك الأناقة.. فلم يكن من اللائق أبدا أن يتجول أبناء البلد بجلابيبهم في وسط البلد ويستحيل قبولهم بهيئتهم الشعبية تلك في مطاعم مثل جروبي والأمريكيين والأونيون أو حتى سينما مترو وسان جيمس وراديو وغيرها من الأماكن التي كان ارتيادها يقتضي ارتداء البدل الكاملة للرجال وفساتين السهرة للنساء وكانت المحلات جميعا تغلق أبوابها يوم الأحد وفي الأعياد المسيحية الكاثوليكية مثل الكريسماس ورأس السنة كانت وسط البلد تزدان عن آخرها وكأنها في عاصمة غربية فتتألق الواجهات الزجاجية بتهاني العيد المكتوبة بالفرنسية والإنجليزية وأشجار السابان SAPINS والدمى التي تمثل بابا نويل وتزدحم المطاعم والبارات بالأجانب والأرستقراطيين الذين يحتفلون بالشراب والغناء والرقص وحفلت وسط البلد دائما بالبارات الصغيرة حيث يستطيع الناس في أوقات الراحة والعطلات أن يتناولوا بضع كئوس

وأطباق شهية من المزة بسعر معقول ،وكانت بعض البارات في الثلاثينيات والأربعينيات تقدم مع الشراب عروضا صغيرة مسلية لعازف يوناني أو إيطالي أو فرقة من راقصات أجنبيات يهوديات ، وحتى نهاية الستينيات كان في شارع سليمان باشا وحده ما يقرب من عشرة بارات صغيرة ثم جاءت السبعينيات فبدأت وسط البلد تفقد أهميتها شيئا فشيئا وانتقل قلب القاهرة إلى حيث تعيش النخبة الجديدة في المهندسين ومدينة نصر ، واجتاحت المجتمع المصري موجة كاسحة من التدين فلم يعد من المقبول اجتماعيا أن تشرب الخمر واستجابت الحكومات المصرية المتعاقبة إلى الضغط الديني (ولعلها زايدت سياسيا على التيار الإسلامي المعارض لها) فقصرت بيع الخمور على الفنادق والمطاعم الكبرى وامتنعت عن إصدار تراخيص لبارات جديدة وفى حالة موت صاحب البار (الأجنبي غالبا) تقوم الحكومة بإلغاء ترخيص البار وتشترط على الورثة تغيير النشاط .. كل هذا بالإضافة للحملات البوليسية الدائمة على البارات حيث يقوم الضباط بتفتيش رواد البار والاطلاع على بطاقاتهم واصطحابهم أحيانا إلى القسم بغرض التحري عنهم .. وهكذا ، بحلول الثمانينيات ، لم يتبق في وسط البلد كلها سوى بضعة بارات صغيرة متناثرة استطاع أصحابها الصمود في وجه المد الديني والاضطهاد الحكومي وتم ذلك

بطريقتين : التخفي والرشوة .. فلم يعد أى بار في وسط البلد يعلن عن وجوده بل صارت كلمة بار في اللافتات تستبدل بكلمة مطعم أو كافي شوب وتعمد أصحاب البارات ومستودعات الخمور أن يطلوا زجاج محلاتهم بلون داكن لا يظهر ما يجرى بالداخل أو يضعوا في واجهاتها مناديل ورقية أو لية بضاعة أخرى لاتنم عن نشاطهم الحقيقي ولم يعد مسموحا لأي زبون بأن يشرب الخمر على الرصيف أمام البار أو حتى أمام نافذة مفتوحة تطل على الشارع واتخذت احتياطات مشددة بعدما تم إحراق عدة محلات للخمور على أيدي شبان منتمين للتيار الإسلامي ومن ناحية أخرى تعين على أصحاب البارات القليلة الباقية أن يدفعوا رشاوى كبيرة منتظمة لضباط المباحث التابعين لهم وللمسئولين في المحافظة حتى يسمح لهم هؤلاء بالاستمرار ، وبما أن بيع الخمور المحلية الرخيصة لا يحقق لهم من الدخل ما يكفي لدفع الرشوة فقد وجد أصحاب البارات أنفسهم مضطرين إلى إيجاد " طريقة أخرى" لزيادة الدخل فاتجه بعضهم إلى تسهيل الدعارة عن طريق استعمال الساقطات في تقديم الخمور (كما حدث في بار كايرو في التوفيقية وبار ميدو وبار بوسي كات في عماد الدين) واتجه البعض الآخر إلى تصنيع الخمور في معامل بدائية بدلا من شرائها من أجل مضاعفة الأرباح ، كما حدث في بار

هالجيان في شارع الانتكخانة وبار جامايكا في شارع شريف وقد أدت هذه الخمور المصنعة ، الرديئة ، إلى حوادث أليمة أشهرها ما حدث لفنان تشكيلي شاب فقد بصره اثر تناوله لبراندي فاسد في بار هالجيان وأمرت النيابة العامة حينئذ بإغلاق البار لكن صاحبه استطاع بعد ذلك أن يعيد فتحه بالطرق المعروفة.. وهكذا، لم تعد البارات الصغيرة المتبقية في وسط البلد أماكن رخيصة ونظيفة للترفيه كما كانت في السابق بل صارت أوكارا سيئة الإضاءة والتهوية يرتادها زبائن من الرعاع والمشبوهين في أغلب الأحوال ..مع وجود استثناءات نادرة لهذه القاعدة مثل بار مكسيم في الممر مابين شارعي قصر النيل وسليمان باشا وبار شينو الذي يقع تحت عمارة يعقوبيان

• • •

شينو chez nous كلمة فرنسية معناها " في بيتنا " ينخفض المكان عن مستوى الشارع ببضع درجات ، الإضاءة خافتة ظليلة حتى أثناء النهار بفضل الستائر السميكة والبار الكبير إلى اليسار والموائد المتراصة على شكل " بنشات " من الخشب الطبيعي المطلي بلون غامق ، الفوانيس العتيقة على طراز فيينا والأعمال الفنية المنحوتة

من الخشب والبرونز المعلقة إلى الحائط والكتابة اللاتينية على المفارش الورقية وأكواب البيرة الضخمة ، كل ذلك يعطى البار شكل البب pub الإنجليزي وفي الصيف ما أن تهلف إلى بار شينو تاركا وراءك شارع سليمان باشا بضوضائه وحره وزحامه وتجلس لتحتسى الجعة المثلّجة وسط السكون والتكييف القوى والإضاءة الخافتة المريحة .. حتى تشعر فورا وكأنك " اختبأت " من الحياة اليومية بمعنى ما ، هذا الإحساس بالخصوصية أكثر ما يميز بار شينو الذي اشتهر أساسا كمكان للقاء الشواذ جنسيا (وقد قدم بهذه الصفة على أكثر من دليل سياحي غربي) .. صاحب البار اسمه عزيز وشهرته الإنجليزي (ولقب بذلك لأنه يشبه الإنجليز ببشرته البيضاء و شعره الأصفر وعينيه الزرقاوين) وهو مصاب بالشذوذ ويقولون انه رافق الخواجه اليوناني العجوز الذي كان يملك البار فأحبه ووهبه المحل قبل وفاته ، ويشيعون أيضا انه ينظم حفلات ماجنة يقدم فيها الشواذ إلى السياح العرب وأن دعارة الشواذ تدر عليه أرباحا طائلة يدفع منها رشاوى جعلته في مأمن تام من المضايقات الأمنية ، وهو يتمتع بحضور قوى ولباقة وتحت إشرافه ورعايته يلتقي الشواذ في بار شينو فيعقدون الصداقات ويتحررون من الضغوط الاجتماعية التي تمنعهم من الإعلان عن ميولهم ... وأماكن الشواذ مثل غرز

الحشيش وأوكار القمار ينتمي روادها إلى مستويات اجتماعية وأعمار متفاوتة فتجد بينهم الحرفيين والمهنيين والشباب والمسنين وقد وحد الشذوذ بينهم جميعا .. كما أن الشواذ ، مثل الهجامين والنشالين وكل الطوائف الخارجة على القانون أو العرف ، يصطنعون لأنفسهم لغة خاصة تمكنهم من التفاهم وسط الناس بطريقة لا يفهمها سواهم ، فالشاذ السلبي يسمونه " كوديانا " ويطلقون عليه اسما مؤنثا يعرف به وسطهم مثل سعاد وانجى وفاطمة الخ .. والشاذ الإيجابي يسمونه " برغل " وإذا كان رجلا جاهلا وبسيطا يسمونه "برغل ناشف" والممارسة الشاذة يسمونها "وصلة" وهم يتعرفون إلى بعضهم البعض ويتبادلون حوارا سريا بواسطة حركات الأيدي فإذا ضغط أحدهم على يد الآخر وداعب بإصبعه معصمه أثناء المصافحة فمعنى ذلك أنه يشتهيه وإذا قرب الشاذ بين إصبعي اليدين وحركهما أثناء الحديث فمعنى ذلك دعوة محدثه إلى "وصلة " وإذا أشار إلى قلبه بإصبع واحد فهو يقصد أن رفيقه قد ملك عليه قلبه وهكذا.. وبقدر ما يحرص عزيز الإنجليزي على راحة زبائن شينو وانبساطهم إلا أنه في نفس الوقت لا يسمح بالحركات الخارجة بينهم ، ومع تقدم الليل وإسراف الرواد في الشراب تعلو أصواتهم وتحتد وتتداخل إذ تتملكهم دائما الرغبة في الحكى (كما يحدث في البارات جميعا) لكن

السكارى في شينو تستبد بهم الشهوة مع النشوة ويتبادلون كلمات الغزل والنكات القبيحة وقد يمد أحدهم أصابعه ليداعب بها جسد صديقه وهنا يتدخل الإنجليزي فورا ويستعمل كل الطرق لفرض النظام بدءا من الهمس المهذب وحتى التهديد بطرد الزبون المشاغب من البار وكثيرا ما ينفعل الإنجليزي حتى يتضرج وجهه ويعنف الشاذ الذي هاجت شهوته قائلا:

- اسمع .. مادمت قاعد عندي احترم نفسك وإذا كان صاحبك عاجبك قم روح معه إنما إياك تمد يدك عليه في البار ..

وصرامة الإنجليزي هنا لا ترجع بطبيعة الحال إلى حرصه على الفضيلة لكنها حسابات الربح والخسارة، فضباط المباحث كثيرا ما يزورون البار .. صحيح أنهم يكتفون بإلقاء نظرة سريعة من بعيد ولا يزعجون الرواد أبدا (والفضل في ذلك للرشاوى الكبيرة التي يقبضونها) لكنهم لو رأوا فعلا فاضحا في البار لأقاموا الدنيا ولقعدوها إذ تكون هذه فرصتهم لابتزاز الإنجليزي حتى يدفع أكثر ...

• • •

قبيل منتصف الليل انفتح باب البار وظهر حاتم

رشيد ومعه شاب أسمر في العشرينات يرتدي ملابس بسيطة وشعره حليق على طريقة الجنود ، كان الحاضرون قد سكروا وعلا صياحهم وغناؤهم لكنهم ما أن دخل حاتم حتى هدأ ضجيجهم وأخذوا يتأملونه بفضول وشيء من الرهبة ، كانوا يعرفون أنه "كوديانا" لكن حاجزا صارما طبيعيا كان يمنعهم من رفع الكلفة معه حتى أن أكثر الرواد وقاحة ومجونا لم يكن يملك إلا معاملته باحترام والأسباب كثيرة : فالأستاذ حاتم رشيد صحفي معروف ورئيس تحرير جريدة لوكير LECAIRE التي تصدر باللغة الفرنسية في القاهرة وهو أرستقراطي عريق والدته فرنسية ووالده الدكتور حسن رشيد القانوني الشهير وعميد كلية الحقوق في الخمسينيات أضف إلى ذلك أن حاتم من الشواذ المحافظين (إن صح التعبير) : لا يبتذل نفسه ولا يضع مساحيق على وجهه أو يتأود بطريقة مثيرة كما يفعل كوديانات كثيرون ..وهو في .ظهره وسلوكه يقف دائما ببراعة ما بين الأناقة الناعمة والتخنث .. فبدلته الليلة مثلا حمراء قانية بلون النبيذ وقد عقد حول رقبته النحيلة ايشاربا أصفر دس معظمه تحت قميص وردي من الحرير الطبيعي يتدلى طرفا ياقته العريضة على صدر السترة وبدا بأناقته وقده الرشيق وملامحه الفرنسية الدقيقة أشبه بنجم سينمائي متألق لولا التجاعيد التي تركتها على وجهه الحياة الصاخبة وذلك

الاربداد الغامض الكريه البائس الذي يغلف دائما وجوه الشواذ ، وقد تقدم منه عزيز الإنجليزي مرحبا فصافحه حاتم ببرود و مد يده برشاقة ناحية صديقه الشاب قائلا :

– عبد ربه صديقي .. مجند في الأمن المركزي

– يا أهلا وسهلا ..

هكذا قال عزيز مبتسما وهو يتفحص جسد الشاب القوى المفتول ثم قاد الضيفين إلى منضدة هادئة في آخر البار وتلقى الطلبات : كأس من الجين تونيك لحاتم وزجاجة بيرة مستوردة لعبد ربه مع بعض المزات الساخنة .. شيئا فشيئا انصرف الرواد عن الاهتمام بهما واستأنفوا الحديث والضحك الصاخب وبدا الصديقان وكأنهما يخوضان نقاشا طويلا ومضنيا ، يتكلم حاتم بصوت خفيض وهو ينظر إلى صديقه محاولا إقناعه لكن عبد ربه يستمع بغير تعاطف ثم يرد بحدة فيصمت حاتم لحظة مطرقا ويستأنف المحاولة .. جرى الحديث على هذا المنوال ما يقرب من نصف ساعة شرب خلالها الرفيقان زجاجتين وثلاث كئوس وفى النهاية عاد حاتم بظهره إلى مسند المقعد ووجه نظرة عميقة إلى عبده :

– دا رأيك النهائي ؟!

ورد عبده بصوت عال وكانت الخمر تؤثر فيه

سريعا

- أيوه..
- يا عبده تعال معي الليلة والصبح نتفاهم
- لا ..
- من فضلك يا عبده
- ..لا..
- طيب..ممكن نتفاهم بهدوء ؟!..بلاش طبعك الحامي ده ..

هكذا همس حاتم بدلال وهو يلمس بأصابعه يد صديقه الضخمة المبسوطة على المائدة وبدا هذا الإلحاح خانقا لعبده فجذب يده وزفر قائلا بضيق :

- قلت لك لايمكن أبيت معك .. أنا تأخرت ثلاث مرات الأسبوع الماضي من تحت رأسك .. الضابط هيحولني على التأديب
- ولايهمك .. أنا لقيت واسطة للضابط ...
- يووه ..

هكذا صرخ عبده في ضيق ودفع بيده كأس البيرة فانقلب محدثا دويا رنانا ثم نهض من مكانه وهو يوجه نظرة غاضبة إلى حاتم وأسرع إلى باب الخروج فأخرج حاتم من حافظته بضع أوراق مالية وألقى بها على المنضدة ثم هرع في اثر صديقه .. ولبضع لحظات ساد البار سكون ثم

انطلقت تعليقات السكارى

- برغل تايه ياولاد الحلال
- ياميت ندامة على اللي حب ولاطالشي
- آه منك يالزسي يا مخلصة فلوسي

ضج الحاضرون بالضحك واندفعوا يرددون أغنية فاحشة بجماس وصوت مدوي حتى اضطر عزيز الإنجليزي إلى التدخل لاعادة النظام .

• • •

مثل معظم المصريين القادمين من الريف كان محمد السيد (مساعد الطباخ في نادى السيارات) يعانى من بلهارسيا قديمة أدت به بعد ذلك إلى التهابات وفشل في الكبد تسبب في موته ولما يبلغ الخمسين ، وتذكر ابنته الكبرى بثينة ذلك اليوم من شهر رمضان بعدما تناولت الأسرة الإفطار في شقتهم الصغيرة المكونة من غرفتين ودورة مياه فوق سطح عمارة يعقوبيان ، قام أبوها ليؤدى صلاة المغرب وفجأة سمعوا صوت شيء ثقيل يسقط على الأرض و تذكر بثينة صرخة أمها بصوت ملتاع : " الحقوا أبوكم " ..هرعوا جميعا إليه .. بثينة وسوسن وفاتن ومصطفى الصغير ، كان الأب راقدا على السرير في جلبابه الأبيض

وقد سكن جسده تماما واكتسى وجهه بلون أزرق كابي وعندما أحضروا طبيب الإسعاف (وكان شابا مرتبكا) كشف عليه بسرعة ثم أعلن النبأ الحزين فتصاعدت صرخات البنات وراحت أمهن تلطم وجهها بقوة حتى سقطت على الأرض ، كانت بثينة في ذلك الوقت تلميذة في دبلوم التجارة وكانت لديها أحلامها للمستقبل التي لاتشك لحظة في إمكانية تحقيقها : ستتخرج وتتزوج من حبيبها طه الشاذلي بعد تخرجه في كلية الشرطة، سيسكنان شقة فسيحة لائقة بعيدا عن السطح ويكتفيان بولد وبنت حتى يتمكنا من تربيتهما .. كانا متفقين على كل شئ لكن الأب مات فجأة وانقضت فترة الحداد لتترك الأسرة في العراء ، كان المعاش ضئيلا لا يكفي نفقات الدراسة والطعام والملابس وإيجار المسكن وتغيرت الأم بسرعة ، لم تخلع السواد أبدا وهزل جسدها وجف واكتسى وجهها بذلك الطابع الصارم الشائك الرجولي الذي يميز الأرامل الفقيرات وشيئا فشيئا صارت ضيقة الصدر كثيرة التشاحن مع البنات حتى مصطفى الصغير لم يسلم من ضربها و شتائمها وعقب كل مشاجرة كانت الأم تستسلم لنوبة طويلة من البكاء ولم تعد تذكر المرحوم بذلك العطف البالغ كما في الأيام الأولى وانماصارت تتحدث عنه بنوع من المرارة وخيبة الأمل وكأنه قد خذلها بارادته وتركها في هذه المحنة ثم بدأت

تختفي يومين أو ثلاثة في الأسبوع ، تخرج من الصبح وتعود آخر النهار منهكة صامتة شاردة الذهن تحمل معها أكياسا من الطعام المطبوخ المختلط (أرز وخضار وقطع صغيرة من اللحم أو الفراخ) تسخنه وتقدمه لهم ليأكلوه ويوم أن نجحت بثينة وحصلت على الدبلوم انتظرت الأم حتى هبط الليل ونام الجميع وخرجت معها إلى السطح ، كانت ليلة صيفية حارة وثمة رجال يدخنون الجوزة ويتسامرون وبعض النساء جالسات في الهواء الطلق هربا من الحرارة في الغرف الحديدية الضيقة ، حيتهن الأم وجذبت بثينة من يدها إلى ركن بعيد حيث وقفتا بجوار السور وتتذكر بثينة منظر السيارات والأضواء في شارع سليمان باشا كما بدا تلك الليلة من فوق السطح ووجه أمها العابس ونظراتها الصارمة المتفحصة وصوتها الأجش الغريب وهى تحدثها عن الهم الذي تركها المرحوم تكابده وحدها وتخبرها بأنها تعمل في بيت ناس طيبين في الزمالك وأنها تكتمت الأمر حتى لا يؤثر الأمر على زواج بثينة وأخواتها في المستقبل (عندما يعلم الناس أن أمهم تعمل خادمة) ثم طلبت الأم من بثينة أن تبحث لنفسها عن عمل من الغد .. لم ترد بثينة وتأملت أمها قليلاً وهى تشعر نحوها بحنان جارف ثم مالت ناحيتها واحتضنتها وخطر لها وهى تقبلها أن وجهها صار جافا خشنا وأن رائحة جديدة وغريبة

تنبعث من جسدها ، رائحة العرق الممتزج بالتراب التي تفوح من أجساد الخدم ..

منذ اليوم التالي بذلت بثينة ما في وسعها لتعثر على عمل وتنقلت خلال عام واحد بين أعمال عديدة : سكرتيرة في مكتب محام ومساعدة كوافير حريمي وممرضة مبتدئة في عيادة أسنان وتركت كل هذه الأعمال لنفس السبب بعد أن تكررت نفس الحكاية :.. الترحاب الحار من صاحب العمل ، ذلك الاهتمام البالغ المضطرم ثم الملاطفات والهدايا والمنح المالية الصغيرة والتلميحات بالمزيد يقابل ذلك من ناحيتها الرفض المغلف باللطف (حتى لا تخسر الوظيفة) لكن صاحب العمل يستمر حتى يصل الأمر إلى مداه ، ذلك المشهد الأخير الذي تكرهه وتخشاه والذي يحدث دائما : عندما يصر الرجل الكبير على أن يقبلها عنوة في المكتب الخالي أو يلتصق بها أو يشرع في فتح سرواله ليضعها أمام الأمر الواقع فتدفعه بعيدا وتهدده بالصراخ والفضيحة ، عندئذ ينقلب ويكشف عن وجهه المنتقم فيطردها بعدما يسخر منها باعتبارها "خضرة الشريفة" أو ربما يتظاهر بأنه كان يختبر أخلاقها ويؤكد أنه يحبها مثل ابنته ثم يتحين الفرصة (بعد زوال خطر الفضيحة) ويطردها بعد ذلك بأي سبب آخر .. خلال هذا العام تعلمت بثينة أشياء كثيرة : عرفت مثلا أنها تملك جسدا جميلا ومثيرا وأن عينيها العسليتين

الواســـعتين وشـــفتيها المكتنزتين وصدرها العامر ومؤخرتها المستديرة الرجراجة وردفيها الطريين ، كل هذه مقومات مهمة في التعامل مع الناس وتأكد لها أن الرجال جميعا مهما كان مظهرهم وقورا ومقامهم كبيرا ضعفاء للغاية أمام امرأة جميلة ودفعها ذلك إلى عمل اختبارات شريرة ومسلية فكانت إذا قابلت شيخا مسنا محترما يحلو لها أن تختبره فترقق صوتها وتتأود وتبرز صدرها المكتنز ثم تستمتع فورا بمشهد الرجل الوقور وقد لان وتهدج وغامت عيناه من الرغبة .. وكان تلهف الرجال عليها يملؤها بلذة أقرب إلى التشفي والشماتة ، كما تأكد لها خلال هذا العام أن أمها تغيرت تماما فعندما تركت بثينة العمل بسبب تحرشات الرجال استقبلت الأم الخبر بصمت أقرب إلى الامتعاض وعندما تكرر الأمر قالت لبثينة مرة وهى تنهض لتغادر الحجرة : " اخوتك في حاجة إلى كل قرش من عملك والبنت الشاطرة تحافظ على نفسها وشغلها .." وأصابت هذه الجملة بثينة بالحزن والحيرة وتساءلت في نفسها "كيف أحافظ على نفسي أمام صاحب شغل يفتح سرواله؟!" وظلت على حيرتها أسابيع طويلة حتى ظهرت فيفي ابنة صابر الكواء جارتهم في السطح التي عرفت بأن بثينة تبحث عن عمل فجاءت تعرض عليها وظيفة بائعة في محل شنن للملابس وعندما أخبرتها بثينة بمشكلتها مع أصحاب الشغل السابقين

شهقت فيفي وضربت صدرها وصاحت في وجهها مستنكرة : "أنت عبيطة يا بت؟!" ..أكدت لها فيفي أن أكثر من ٩٠٪ من أصحاب العمل يفعلون ذلك مع البنات العاملات لديهم وأن البنت التي ترفض تطرد وتأتي بدلا منها مائة بنت تقبل ولما همت بثينة بالاعتراض سألتها فيفي ساخرة : " حضرتك خريجة جامعة أمريكية إدارة أعمال؟!.. الشحاذون في الشارع معهم دبلوم تجارة مثلك !."

.. أكدت لها فيفي أن مسايرة صاحب العمل "في حدود" تعتبر شطارة وأن الدنيا شئ وما تراه في الأفلام المصرية شئ آخر وأكدت أنها تعرف بنات كثيرات عملن سنوات في محل شنن وكن يستجبن لما يطلبه الأستاذ طلال صاحب المحل " في حدود " وقد صرن الآن زوجات سعيدات عندهن أولاد وبيوت وأزواج محترمون يحبوهن جدا...... " ولماذا نذهب بعيدا ؟ "هكذا سألت فيفي وضربت مثلا بنفسها فهي تعمل في المحل من عامين ومرتبها مائة جنيه لكنها تكسب ثلاثة أضعاف هذا المبلغ من " شطارتها " بخلاف الهدايا ومع ذلك لا زالت محافظة على نفسها وبنت بنوت والذي يتكلم عن سمعتها تضع أصابعها في عينيه وألف رجل يتمنى الزواج منها خصوصا وهى الآن تكسب وتعمل جمعيات وتدخر حتى تستطيع تجهيز نفسها .

في اليوم التالي ، ذهبت بثينة مع فيفي إلى الأستاذ

طلال في المحل فوجدته رجلا جاوز الأربعين أبيض الوجه أزرق العينين أصلع وبدين وله أنف أفطس وشارب أسود ضخم يتدلى على جانبي فمه . لم يكن طلال وسيما بالمرة وعرفت بثينة أنه الابن الوحيد على بنات للحاج شتن السوري الذي جاء من سوريا أيام الوحدة واستقر في مصر وافتتح هذا المحل ثم تقدم به العمر فعهد بتجارته إلى ابنه الوحيد ، وعرفت أيضا أنه متزوج وأن زوجته مصرية وجميلة أنجبت له ولدين وبرغم ذلك فان نهمه للنساء لاينتهي، صافح طلال بثينة (واعتصر يدها) ولم يرفع عينه عن صدرها وجسدها وهو يحدثها وبعد دقائق تسلمت عملها الجديد ولم تمض بضعة أسابيع حتى علمتها فيفي ما يجب عليها عمله: كيف تعتني بمظهرها وتطلى أظافر يديها وقدميها وتفتح صدرها قليلا وتضيق خصر الفساتين لتحدد مؤخرتها وردفيها .. كان عليها في الصباح أن تفتح المحل وتمسحه مع زميلاتها ثم تصلح هندامها وتقف على باب المحل (وهذه طريقة معروفة لاجتذاب الزبائن في محلات الملابس جميعا) وعندما يجئ زبون يكون عليها أن تلاطفه وتلبى طلباته وتقنعه بشراء أكبر قدر من البضائع (ولها نصف في المائة من قيمة المبيعات) ويجب عليها طبعا أن تتغاضى عن معاكسات الزبائن مهما كانت رذيلة ..كان هذا بخصوص العمل أما "الموضوع الآخر" فقد بدأه الأستاذ

طلال في اليوم الثالث لمجيئها . كانت ساعة العصر والمحل خال من الزبائن وطلب منها طلال أن تصحبه إلى المخزن لكي يشرح لها أنواع البضاعة ، تبعته بثينة صامتة ولمحت ظل ضحكة ساخرة على وجه فيفي وبقية البنات ، كان المخزن عبارة عن شقة كبيرة في الدور الأرضي بالعمارة المجاورة لمحل الأمريكين في شارع سليمان باشا ، ادخلها طلال وأغلق الباب من الداخل وتلفتت حولها : كان المكان رطبا سيئ الإضاءة والتهوية ومتكدسا بصناديق البضاعة المتراصة حتى السقف وكانت تدرك ماهى مقدمة عليه وقد استعدت في طريقها إلى المخزن فراحت تستعيد في ذهنها كلمات أمها " اخوتك في حاجة لكل قرش والبنت الشاطرة تحافظ على نفسها وعملها معا " .. وحين اقترب منها الأستاذ طلال انتابتها مشاعر قوية ومتضاربة : العزم على أن تحسن استخدام الفرصة المتاحة والخوف الذي كان برغم كل شئ يعتصرها ويجعلها تلهث وتشعر بما يشبه الغثيان وكان هناك أيضا فضول خفي يلح على ذهنها لكي تعرف كيف يتصرف الأستاذ طلال معها : هل يغازلها ويقول لها أحبك مثلا أم يحاول تقبيلها مباشرة ؟! وجاءتها الإجابة سريعا فقد انقض عليها طلال من الخلف ، احتضنها بقوة آلمتها وأخذ يلتصق بها ويعبث في جسدها بغير أن ينطق بكلمة واحدة ، كان عنيفا ومتعجلا للذة وانقضى الأمر

في نحو دقيقتين وتلوث ثوبها فهمس لها وهو يلهث : "الحمام في آخر الطرقة يمين " .. وفكرت وهى تغسل ثوبها بالماء أن الموضوع أبسط مما كانت تظن ، شئ أشبه بالتصاق أحدهم بجسدها في الأتوبيس (الذي يحدث لها كثيرا) واسترجعت نصيحة فيفي لها عما يجب فعله بعد اللقاء فعادت إلى طلال وقالت بصوت حاولت قدر الإمكان أن يكون ناعما ومغريا : " أنا محتاجة عشرين جنيها من حضرتك " تأملها طلال للحظة ثم دس يده في جيبه بسرعة وكأنه كان يتوقع طلبها وقال بلهجة عادية وهو يناولها ورقة مالية مطوية

- " لا .. كفاية عشرة جنيه .. تعالى وراني على المحل أول ما ينشف فستانك".. ثم خرج وأغلق الباب وراءه.

• • •

المرة الواحدة بعشرة جنيهات والأستاذ طلال يطلبها مرتين في الأسبوع وأحيانا ثلاثا وفيفي علمتها كيف تبدى إعجابها بفستان في المحل بين الحين والحين وتلح على طلال حتى يهديه إليها .. صارت تكسب وترتدى ثيابا جميلة ورضيت أمها واطمأنت للنقود التي تأخذها منها وتدسها في

صدرها ثم تدعو لها بحرارة ، وأمام الدعاء تستبد ببثينة رغبة خبيثة غامضة تجعلها تلمح للأم بوضوح عن علاقتها بطلال وتتجاهل الأم الرسالة فتمعن بثينة في التلميح حتى يصير تجاهل الأم مكشوفا وهشا للغاية عندئذ تحس بثينة براحة وكأنها تنزع عن أمها قناع البراءة المزيف وتؤكد اشتراكها معها في الجريمة .. ومع الأيام بدأت لقاءاتها مع طلال في المخزن تترك في نفسها آثارا لم تكن تتخيلها ، لم تعد قادرة على أداء صلاة الصبح (الفريضة الوحيدة التي تؤديها) لأنها في داخلها تخجل من مواجهة "ربنا" وتشعر بأنها نجسة مهما توضأت وأخذت تنتابها كوابيس فتهب من النوم مفزوعة وتظل أياما منقبضة وحزينة ويوم ذهبت مع أمها لزيارة الحسين ، ما أن دخلت إلى المقام واحتواها البخور والأنوار وأحست بذلك الحضور الخفي الراسخ الذي يملأ القلب حتى انفجرت في نوبة مفاجئة طويلة من البكاء..

لكنها ، من ناحية أخرى ، لم يعد بإمكانها التراجع ولم تعد تحتمل شعورها بالإثم فبدأت تقاومه بضراوة . أخذت تتذكر وجه أمها وهى تخبرها بأنها تخدم في البيوت وتستعيد كلمات فيفي عن الدنيا وكيف تسير وكثيرا ما كانت تتأمل زبونات المحل من السيدات الثريات الأنيقات وتتساءل بشغف خبيث : ترى كم مرة أسلمت هذه المرأة جسدها حتى

تحصل على هذا المال ؟!" .. هذه المقاومة العنيفة للشعور بالذنب أورثتها مرارة وقسوة فلم تعد تثق بالناس أو تلتمس لهم الأعذار وكثيرا ما تفكر (وتستغفر بعد ذلك) أن الله أراد لها السقوط ولوأنه أراد غير ذلك لخلقها ثرية أو أجل وفاة أبيها بضعة أعوام (وما أسهل عليه أن يفعل) ثم شيئا فشيئا تمتد نقمتها إلى حبيبها طه نفسه ، يتسلل إليها شعور غريب بأنها أقوى منه بكثير ، إنها ناضجة فهمت الدنيا وهو مجرد شاب حالم وساذج ، صارت تضيق بتفاؤله بالمستقبل وتحتد عليه وتسخر منه قائلة : "أنت فاكر نفسك عبد الحليم حافظ .. الشاب الفقير المجتهد الذي سيحقق كل آماله بالكفاح" .. لم يكن طه يدرك سبب هذه المرارة ثم بدأ تهكمها عليه يستفزه فيتشاجران وعندما طلب منها مرة أن تترك العمل عند طلال لأنه سيئ السمعة نظرت إليه بتحد وقالت : " أمرك يا سيدي .. اعطني المائتين وخمسين جنيه الذين أكسبهم من طلال ولك على ألا أكشف وجهي على أحد غيرك " .. وحدق فيها لحظة وكأنه لايفهم ثم اندلع غضبه ودفعها في كتفها فصرخت وشتمته ثم ألقت إليه بدبلة فضية كان قد اشتراها لها ، كانت في قرارة نفسها تتوق لتمزيق علاقتها به لكي تتحرر من ذلك الشعور الأليم بالإثم الذي يعذبها عندما تراه وفى نفس الوقت لم يكن بمقدورها أن تهجره تماما ، كانت تحبه وكان بينهما تاريخ طويل حافل

باللحظات الجميلة ، وما أن تراه حزينا أو قلقا حتى تنسى كل شئ وتغمره بحنان صادق جارف وكأنها أمه ومهما اشتدت المشاجرات بينهما تصفح عنه وتعود إليه ولا يخلو أمرهما من لحظات صفاء نادرة ورائعة ولكن ما أسرع ما يعود الكدر ، ولقد قضت النهار بأكمله تلوم نفسها على قسوتها معه هذا الصباح ، كان يحتاج إلى كلمة تشجيع منها وهو مقدم على امتحان تعرف أنه انتظره أعواما طويلة، ما أقساها حقا ، ما ضرها لو أنها شجعته بكلمة وابتسامة ، لو أنها قضيت معه بعض الوقت .. ووجدت نفسها بعد انتهاء العمل تسعى إلى لقائه فذهبت إلى في ميدان التوفيقية وجلست تنتظره على سور الحديقة حيث تعودا أن يلتقيا كل مساء ، كان الليل قد هبط والميدان مزدحم بالمارة والباعة وتعرضت وهى جالسة وحدها لمعاكسات كثيرة لكنها ظلت تنتظره ما يقرب من نصف ساعة فلم يأت وفكرت أنه لاشك غاضب منها لأنها صدته في الصباح فقامت وصعدت إلى حجرته فوق السطح ، كان باب الحجرة مفتوحا ولم طه تجلس وحيدة وقد بدا القلق على وجهها العجوز ، احتضنتها وقبلتها ثم أجلستها بجوارها على الأريكة وقالت :

– أنا خائفة جدا يا بثينة .. طه خرج إلى الامتحان من الصبح ولسه ما عاد .. ربنا يستر يابنتي

• • •

لـولا سنه المتقدمـة وأيام الشقاء التي تركت أثرها على سحنته لبدا الحاج محمد عزام كنجم سينمائي أو ملك متوج بشموخه وهدوئه الراسخ ، بأناقته وثرائه ، بوجهه المتورد من وفرة الصحة وبشرته المصقولة اللامعة بفضل مهارة الخبراء في مركز لاجيتيه للتجميل بالمهندسين حيث يذهب مرة كل أسبوع، له أكثر من مائة بدلة من أفخر الأنواع يرتدى كل يوم واحدة مع رابطة عنق زاهيـة وحذاء مستورد أنيق .. وكل يوم ساعة الضحى ، تتهادى في شارع سليمان باشا سيارته المرسيدس الحمراء قادمة من ناحية الأمريكين.. يجلس في مقعدها الخلفي مستغرقا في التسبيح على السبحة الكهرمان الصغيرة التي لا تفارق يده ، يبدأ يومه بتفقد أملاكه : محلين كبيرين للملابس أحدهما أمام الأمريكين والآخر أسفل عمارة يعقوبيان حيث يقع مكتبه ومعرضين لبيع السيارات وعدة محلات لقطع الغيار في شارع معروف بخلاف عقارات كثيرة مملوكة له في وسط البلد وعمارات أخرى عديدة تحت الإنشاء سوف ترتفع قريبا شاهقة عملاقة تحمل اسم عزام للمقاولات ، تتهادى السيارة وتقف أمام كل محل فيجتمع حولها العاملون يحيون الحاج بحرارة ويرد هو التحية بإشارة من يده (خافتة وهينة لدرجة انك قد لا تلحظها) وفى الحال يدنو من نافذة السيارة رئيس العمال أو أقدم العاملين وينحني ناحية الحاج ويعرض

عليه أحوال العمل أو يستشيره في أمر ما، عندئذ، ينصت الحاج عزام بعناية وهو مطرق ويقطب ما بين حاجبيه الكثيفين ويزم شفتيه ويتطلع بعيدا بعينيه الثعلبيتين الرماديتين الضيقتين المحتقنتين دائما قليلا من أثر الحشيش وكأنه يرقب شيئا في الأفق ثم يتكلم أخيرا، صوته أجش ونبرته حاسمة وكلماته قليلة نادرة، لا يطيق الثرثرة أو اللجاجة ويفسر بعض الناس حبه للصمت بانه ينفذ (وهو المتدين الملتزم) الحديث الشريف ".. إذا تكلم أحدكم فليقل خيرا أو ليصمت .. " كما أنه بثروته الطائلة ونفوذه الهائل، لا يحتاج في الواقع إلى كلام كثير لأن كلمته غالبا فاصلة وواجبة التنفيذ، أضف إلى هذا تجربته العريضة في الحياة التي تجعله يدرك الأشياء بنظرة واحدة فالشيخ المليونير الذي جاوز الستين بدأ من ثلاثين عاما مجرد " نفر " سريح نزح من محافظة سوهاج إلى القاهرة بحثا عن الرزق، والمسنون في شارع سليمان باشا يذكرونه وهو جالس على الأرض في ممر الأمريكين بالجلباب والصديرى والعمامة وأمامه صندوق خشبي صغير حيث بدأ بتلميع الأحذية وعمل فترة كفراش في مكتبة بابيك ثم اختفى بعد ذلك أكثر من عشرين عاما وظهر فجأة وقد حقق الثروة .. يقول الحاج عزام انه كان يعمل في الخليج لكن الناس في الشارع لا يصدقون ذلك ويشيعون أنه حوكم وسجن لاتجاره في

المخدرات ويؤكد بعضهم أنه لا زال يعمل في المخدرات حتى الآن ويدللون على ذلك بثرائه الفاحش المتزايد الذي لا يتناسب بحال مع حجم مبيعات محلاته وأرباح شركاته مما يدل على أن نشاطه التجاري مجرد واجهة لغسيل الأموال .. وبغض النظر عن صحة الشائعات فقد صار الحاج عزام كبير سليمان باشا بلا منازع والناس يلجئون إليه لقضاء حاجاتهم وتسوية خلافاتهم وقد ترسخ نفوذه مؤخرا بانضمامه إلى الحزب القومي ثم التحاق ابنه الأصغر حمدي بسلك القضاء وكيلا للنائب العام وللحاج عزام نزوع جارف إلى شراء العقارات والمحلات في وسط البلد بالذات ، وكأنه يؤكد وضعه الجديد في المنطقة التي شهدته يوما فقيرا معدما ..

.. منذ ما يقرب من عامين ..

استيقظ الحاج عزام ليؤدى صلاة الفجر كعادته فوجد ملابسه الداخلية مبتلة ، انزعج وتبادر إلى ذهنه أن مرضا ألم به لكنه لما دخل إلى الحمام ليغتسل تأكد أنه ابتل من الشهوة وتذكر صورة مشوشة بعيدة لامرأة عارية رآها في الحلم ، أدهشته هذه الظاهرة الغريبة على شيخ مثله جاوز الستين ثم نسيها خلال اليوم المزدحم بالعمل لكنها عاودته بعد ذلك مرارا حتى صار يستحم يوميا قبل صلاة الفجر ليتطهر من الجنابة ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد

ضبط نفسه مرارا وهو يختلس النظر الى أجساد العاملات لديه في المحل وأحست بعضهن غريزيا بشهوته فصرن يتعمدن التثني والتحدث بميوعة أمامه لاغرائه حتى اضطر إلى نهرهن أكثر من مرة ..

هذه الشهوة المفاجئة العارمة أزعجت الحاج عزام كثيرا أولا لأنها لاتناسب سنه وثانيا لأنه عاش مستقيما طوال حياته وهو يؤمن بأن استقامته وبعده عما يغضب الله السبب الرئيسي في كل التوفيق الذي أحرزه : فهو لم يشرب الخمر قط (أما الحشيش الذي يدخنه فقد أكد فقهاء كثيرون انه مكروه فقط وليس نجسا أو محرما كما أنه لا يذهب بالعقل ولا يدفع الإنسان إلى ارتكاب فاحشة أو جريمة كما تفعل الخمور ، بل على العكس فان الحشيش يجعل المرء أهدأ أعصابا وأكثر اتزانا وأحد ذهنا) ..لم يزن الحاج في حياته قط و عصم نفسه كعادة الصعايدة بالزواج المبكر ولقد رأى في حياته الممتدة رجالا أثرياء يستسلمون لشهواتهم فيضيعون ثروات طائلة .. أسر الحاج بمشكلة شهوته إلى بعض أصدقائه المسنين فأكدوا له أن ما يحدث ظاهرة طارئة لاتلبث بعد ذلك أن تختفي إلى الأبد

- " دي حلاوة روح " ..

هكذا قال له ضاحكا صديقه الحاج كامل تاجر الأسمنت .. لكن الشهوة استمرت مع الأيام واشتدت حتى

صـارت عبئـا ثقيـلا علـى أعصابه بل وتسببت في أكثر من مشادة مع الحاجة صالحة زوجتـه التي تصغره ببضعة أعوام والتي فاجأهـا عنفوانـه الطـارئ ثم أزعجها لأنها لم تقدر على إشباعه وقـالت لـه موبخـة أكثـر مـن مـرة إن أولادهمـا رجـال وأن عليهمـا كزوجيـن كبيـرين أن يتحليـا بالوقار اللائق ، ولم يبق أمـام الحـاج إلا أن يعرض الأمر على الشيخ السمان ، الفقيه الشهير ورئيس الجمعيـة الخيريـة الإسلامية ، الذي يعتبره عزام إمامه ومرشده في كافة أمـور الدنيا والدين حتى أنه لايبت في أي موضوع يهمه في عملـه وحياته بغير الرجوع إليه وهو يضع تحت تصرفـه عشرات الألـوف من الجنيهات لينفقها بمعرفتـه فـي وجـوه الخيـر بخلاف الهدايا القيمة التي يمنحها له كل ما تمت صفقة طيبة بفضل دعواته وبركاته .. بعد صلاة الجمعة والدرس الدينـي الأسبوعي الذي يلقيه الشيخ السمان في مسجد السـلام بمدينـة نصر ، طلب الحاج عزام الانفراد به وحكى له عن مشكلته فأنصت الشيخ ثم صمت قليلا وقال بحماس أقرب للغضب :

- سبحان اللـه ياحـاج ، ولماذا تضيق الأمـر على نفسك وقد وسـع اللـه عليك يـا أخي ؟!.. لمـاذا تفتح البـاب للشيطان حتى تقع في الخطيئة ؟! .. يجـب أن تعصم نفسك كما أمرك الله ، لقد أحل اللـه لـك الـزواج بـأكثر مـن امـرأة على أن تعدل .. فتوكل على الله وسارع إلى الحلال قبل أن

تسقط في الحرام

- أنا رجل كبير ، أخاف لو تزوجت من كلام الناس

.. لولا معرفتي بصلاحك وتقواك لأسأت بك الظن .. أيهما أجدر بالمخافة يا رجل .. كلام الناس أم غضب الرحمن عز وجل ..؟! هل تحرم ما أحل الله ؟! .. أنت رجل مقتدر وصحتك جيدة وتجد في نفسك شهوة للنساء .. تزوج واعدل بين زوجاتك ..إن الله يحب أن تستحل رخصه تردد الحاج عزام طويلا (أو تظاهر بذلك) وما زال الشيخ السمان به حتى أقنعه بل وتولى - مشكورا - إقناع أولاده الثلاثة فوزي وقدري وحمدي (وكيل النيابة) وقد استقبل الأخيران رغبة أبيهما في الزواج بدهشة لكنهما تقبلا الأمر على أية حال أما فوزي الابن الأكبر وساعد أبيه الأيمن في العمل فقد بان عليه الاستنكار وان لم يعلن اعتراضه ثم قال في النهاية على مضض : "..إن كان لابد للحاج أن يتزوج فعلينا أن نحسن الاختيار حتى لا يقع في امرأة بنت حرام تنغص عليه حياته .."

استقر المبدأ ، إذن ، وبدأ البحث عن زوجة مناسبة وأوصى الحاج عزام معارفه الثقاة ليبحثوا له عن بنت الحلال وخلال بضعة أشهر ، رأى مرشحات كثيرات لكنه كان بخبرته العريضة يرفض من يجد في سلوكها ما يعيب ،

فهذه بارعة الجمال لكنها مكشوفة الوجه وقحة لايأمنها على عرضه وهذه صغيرة مدللة سوف ترهقه بطلباتها وهذه طماعة تحب المال .. وهكذا رفض الحاج المرشحات جميعا حتى التقى بسعاد جابر ، البائعة في محلات هانو بالإسكندرية ، كانت مطلقة ولها ولد واحد وما أن رآها الحاج حتى خلبت لبه : امرأة بيضاء وممتلئة وجميلة ومحجبة : الشعر أسود ناعم مسترسل تطل خصلاته من تحت الحجاب والعينان سوداوان واسعتان ساحرتان والشفتان مكتنزتان شهيتان ، نظيفة وعنايتها بتفاصيل جسدها فائقة كعادة السكندريات ، أظافر اليدين والقدمين مقلمة ومنظفة أطرافها بعناية وان كانت غير مطلية (حتى لا يمنع الطلاء ماء الوضوء) ويداها طريتان بضتان مدهونتان بالكريم ، حتى كعباها في منتهى النظافة ناعمان متماسكان خاليان من أي تشقق يشوبهما احمرار لطيف من أثر الدعك بالحجر .. تركت سعاد أثرا رقيقا مشوقا في قلب الحاج وأعجبه خصوصا ذلك الانكسار الذي تركه عليها الفقر والحياة الصعبة وفكر في أن تاريخها غير معيب بالمرة: تزوجت من نقاش أنجبها الولد ثم تركها وسافر إلى العراق وانقطعت أخباره وحكمت لها المحكمة بالطلاق خوفا عليها من الفتنة ، وقد بعث الحاج سرا من يسأل عنها في عملها وسكنها فأشاد الناس جميعا بأخلاقها ثم أدى صلاة الاستخارة فظهرت له

سعاد جابر في المنام بهيئة رائعة (لكنها بدت في الحلم محتشمة وليست عارية مبتذلة كالنسوة اللاتى يحتلم عليهن عادة) .. من هنا ، توكل الحاج عزام على الله وزار أسرة سعاد في سيدي بشر وجلس مع الريس حميدو أخيها الأكبر (الذي يعمل قهوجيا في المنشية) واتفقا على كل شيء وكان الحاج عزام كعادته في عقد الصفقات واضحا صريحا وكلمته واحدة وقد تزوج من سعاد جابر على الشروط الآتية:

١- أن تأتي سعاد لتعيش معه في القاهرة وتترك ابنها الصغير تامر عند أمها في الإسكندرية على أن تذهب لزيارته " كلما تيسر ذلك ".

٢- أن يشترى شبكة بعشرة آلاف جنيه ويدفع مهرا مبلغ عشرين ألف جنيه على ألا يزيد مؤخر الصداق على خمسة آلاف جنيه.

٣- أن يظل الزواج سرا وأن يكون معلوما تماما أنه في حالة معرفة الحاجة صالحة زوجته الأولى بأمر زواجه الجديد سيكون مضطرا إلى تطليق سعاد فورا.

٤- أنه يتزوج على سنة الله ورسوله لكنه لا يرغب في الإنجاب إطلاقا ..

.. وهذا الشرط الأخير أصر الحاج عزام عليه وأفهم حميدو بمنتهى الوضوح أنه لاسنه ولاظروفه تسمح له

بأن يكون أبا لطفل الآن وأنه إذا حملت سعاد سوف يعتبر هذا الأمر فسخا فوريا للاتفاق بينهما ..

• • •

- مالك .. ؟!!

كانا في الفراش ، سعاد بقميص نومها الأزرق الذي يكشف عن صدرها العامر الرجراج وفخذيها وذراعيها ببياضهم الشاهق والحاج عزام ممدد بجوارها على ظهره بجلبابه الأبيض ، كانت هذه ساعتهما ، كل يوم بعد أن يؤدي الحاج صلاة العصر في مكتبه ، يصعد إليها في الشقة الفخمة التي اشتراها من أجلها في الدور السابع من العمارة، يتناول الغداء ثم ينام معها إلى ما قبل العشاء ويتركها إلى اليوم التالي .. كان هذا النظام الوحيد الذي يسمح له برؤيتها بغير أن تضطرب حياته مع أسرته ، لكنه اليوم على غير عادته ، مرهق وقلق .. كان يفكر في أمر ما شغله طوال النهار وقد تعب من التفكير وشعر بصداع وغثيان من أثر بضعة سجائر ملفوفة دخنها بعد الأكل وتمنى في نفسه لو تتركه سعاد لينام قليلا لكنها مدت يديها وأمسكت برأسه بين كفيها الطريين اللذين تنبعث منهما رائحة معطرة حلوة ونظرت إليه مليا بعينيها الواسعتين وهمست

– مالك يا حبيبي ؟!

ابتسم الحاج وتمتم :

– مشاكل الشغل كثيرة ..

– الحمد لله على الصحة أهم حاجة

– الحمد لله

– والله العظيم الدنيا كلها ما تستأهل ثانية واحدة من الهم

– عندك حق ..

– .. احك لى عما يضايقك يا حاج ..

– وأنت ناقصة مشاكل ؟!!..

– اخص عليك .. هو انا عندي أهم منك ؟!!..

ابتسم الحاج ونظر إليها بامتنان ثم اقترب وطبع قبلة على خدها ورجع برأسه قليلا وقال بصوت جاد :

– بإذن الله ..أنا ناوي أرشح نفسي لمجلس الشعب ..

– مجلس الشعب ..؟!

– أيوه

ارتبكت قليلا لأنها لم تكن تتوقع ولم تلبث أن استجمعت نفسها وتهلل وجهها بابتسامة سعيدة وقالت بمرح:

– يا ألف نهار أبيض ياحاج .. أزغرد والا اعمل ايه ..؟!

- ربنا يسهل بس وانجح
- بإذن الله ..
- عارفة يا سعاد لو دخلت المجلس .. أعمل شغل بملايين
- طبعا تدخل .. هم يلاقوا أحسن منك ؟!
ثم مدت شفتيها وكأنها تناغى طفلا صغيرا وتكلمه بضمير المؤنث :
- بس أنا أخاف عليكى يا حلوة انتي لما تطلعي في التليفزيون ويشوفوكى كده زي القمر يقوموا يخطفوكى مني..
انفجر الحاج ضاحكا واقتربت منه حتى شعر بحرارة جسدها الفائر ومدت يدها إليه في مداعبة طويلة خبيرة متأنية آتت ثمرتها أخيرا وأطلقت ضحكة خليعة وهى تراه وقد سرت إليه الحماسة ومن فرط تعجله وهو يخلع الجلباب انحشر رأسه في فتحته ..

• • •

كأنك تشاهد فيلما سينمائيا ، تستغرق فيه وتنفعل وفي النهاية تضاء الأنوار وتعود إلى الواقع ، تغادر السينما ويلفحك الهواء البارد في الشارع المزدحم بالسيارات والمارة

و يأخذ كل شيء حجمه الطبيعي وتتذكر كل ما حدث على أنه مجرد فيلم .. تمثيل في تمثيل ..

هكذا يسترجع طه الشاذلي أحداث ذلك اليوم : كشف الهيئة ، الممر الطويل المفروش بالبساط الأحمر الوثير ، الحجرة الكبيرة الممتدة ذات السقف الشاهق ، المكتب الكبير المرتفع عن أرض الحجرة لدرجة بدا فيها أشبه بمنصة المحاكمة والمقعد الجلدي الواطئ الذي جلس عليه واللواءات الثلاثة ، بأجسادهم الضخمة المترهلة وبدلهم البيضاء وأزرارهم النحاسية اللامعة والرتب والنياشين المتلألئة على صدورهم وأكتافهم واللواء الرئيس يرحب به بابتسامة منضبطة مرسومة بدقة ثم يومئ إلى عضو اليمين الذي يسند ذراعيه أمامه على المكتب ويتقدم برأسه الأصلع إلى الأمام ويبدأ في إلقاء الأسئلة عليه بينما يتفحصه الآخران وكأنهما يزنان كل كلمة ينطقها ويرقبان كل تعبير يرتسم على وجهه .. جاءت الأسئلة كما توقعها وكان أصدقاؤه الضباط قد أكدوا له أن أسئلة كشف الهيئة دائما مكررة ومعروفة وأن الاختبار كله مجرد إجراء شكلي إما لاستبعاد العناصر المتطرفة بناء على تقارير الأمن أو لتأكيد قبول المحظوظين من أصحاب الوسائط ، كان طه قد استذكر عن ظهر قلب الأسئلة المتوقعة وإجاباتها " النموذجية " وأخذ يجيب أمام اللجنة بثبات وهدوء .. قال انه حاصل على مجموع كبير

يؤهله للالتحاق بكليات جيدة لكنه يفضل كلية الشرطة لكي يخدم وطنه من موقعه كضابط شرطة كما أكد أن وظيفة الشرطة ليست فقط أمنية كما يظن الكثيرون ، لكنها أيضا اجتماعية وإنسانية وأعطى أمثلة على هذا المعنى ثم تكلم عن الأمن الوقائي من حيث التعريف والوسائل وبدا الرضا واضحا على وجوه الممتحنين حتى أن اللواء الرئيس هز رأسه مرتين مؤمنا على إجابة طه ثم تكلم لأول مرة فسأل طه ماذا يفعل إذا ذهب إلى القبض على أحد المجرمين فوجده أحد أصدقائه من أيام الطفولة ..؟!..كان السؤال متوقعا لطه وقد أعد إجابته لكنه تظاهر بالتفكير قليلا ليضاعف من التأثير على الممتحنين ثم قال :

– يافندم سيادتك الواجب لا يعرف أصحاب أو أقارب ، رجل الشرطة مثل الجندي في المعركة عليه أن يؤدى واجبه بغض النظر عن أى اعتبار آخر .. في سبيل الله والوطن ..

ابتسم اللواء الرئيس وهز رأسه في إعجاب صريح وساد صمت ما قبل النهاية وتوقع طه أن يصدر الأمر بالانصراف لكن اللواء الرئيس حدق فجأة في الأوراق وكأنه اكتشف شيئا حتى أنه رفع الورقة قليلا ليتأكد مما قرأه ثم سأل طه وهو يتحاشى النظر إلى عينيه :

– .. انت والدك مهنته ايه ياطه ؟!

- موظف يا افندم ..(هكذا كتب في استمارة الالتحاق ودفع مائة جنيه رشوة لشيخ الحارة ليوقع عليها)

تفحص اللواء الأوراق من جديد و سأله :

- موظف .. أم حارس عقار ؟!

- ....

سكت طه لحظة ثم قال بصوت خافت :

- والدي حارس عقار يافندم

ابتسم اللواء الرئيس وبان عليه الحرج ثم انحنى على الأوراق وسجل شيئا بعناية ورفع رأسه بنفس الابتسامة وقال :

- شكرا يابني .. انصراف

• • •

تنهدت الأم وقالت : "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" ..

وصاحت بثينة بحدة : "وايه يعني ضابط بوليس؟.. الضباط أكثر من الهم على القلب .. يا فرحتي بالبدلة الميرى وأنت بتقبض ملاليم .." ..

كان طه قد قضى النهار متجولا في الشوارع حتى هده التعب فعاد إلى السطح وجلس مطرقا على الأريكة

بنفس بدلة الصباح التي فقدت الآن رونقها وتهدلت وبدت رخيصة وبائسة وحاولت الأم أن تخفف عنه

– يا ابني أنت معقد الدنيا زيادة عن اللزوم .. قدامك كليات حلوة كثيرة غير الشرطة ..

ظل طه مطرقا وصامتا وبدا الأمر أكبر من كلمات الأم فلم تلبث أن انصرفت إلى المطبخ وتركته مع بثينة التي انتقلت إلى جواره على الأريكة واقتربت منه وهمست بحنان :

– " والنبي ما تزعل نفسك يا طه .."

وحرك صوتها مشاعره فصاح بمرارة :

– " أنا زعلان على تعبي .. لو كانوا من الأول اشترطوا مهنة معينة للأب كنت عرفت .. كانوا قالوا ممنوع أولاد البوابين .. وبعدين الكلام ده ضد القانون .. أنا سألت محامي وقال لي لو رفعت عليهم قضية أكسبها ..

– ولا قضية ولا يحزنون.. عاوز رأيي؟!.. انت تدخل بمجموعك ده أحسن كلية في الجامعة ، وتتخرج بتفوق وتطلع على بلد عربي تجيب قرشين وترجع هنا تعيش ملك..

ونظر إليها طه مليا ثم أطرق من جديد فاستطردت قائلة :

– بص ياطه .. أنا صحيح أصغر منك بسنة لكني

اشتغلت والشغل علمني . البلد دى مش بلدنا ياطه . دى بلد اللي معه فلوس . لو كان معك عشرين ألف جنيه ودفعتهم رشوة حد كان سألك عن شغلة أبوك ..؟!.اعمل فلوس ياطه تكسب كل حاجة أما لو فضلت فقير حتتدهس دهس ..

– لايمكن أسكت لهم .. لازم أقدم شكوى

وضحكت بثينة بمرارة

– تشتكي مين ولمين ..؟! ..اسمع كلامي بلا أفكار خايبة .. انت تجتهد وتأخذ شهادتك وماترجعش هنا إلا وأنت غني .. ولو ما رجعتش أبدا يكون أحسن

– يعنى رأيك أسافر بلد عربي ؟

– طبعا ..

– وأنت تسافري معايا ؟

وفاجأها السؤال فتمتمت وهى تتحاشى النظر إلى عينيه : " بإذن الله " لكنه قال بحزن :

– انت تغيرت ناحيتي يا بثينة .. أنا عارف .

ولمحت بثينة في الأفق مشاجرة جديدة فقالت وهى تنهض :

– انت مرهق دلوقت .. قم نام والصبح نتكلم .

وانصرفت لكنه لم ينم ..ظل ساهرا يفكر واستعاد مائة مرة وجه اللواء رئيس اللجنة وهو يسأله بتأن وكأنه

يتلذذ بإهانته : " والدك حارس عقار يابني ؟.. حارس عقار .. يالها من كلمة غريبة لم ترد في ذهنه ولاتوقعها أبدا .. كلمة هي حياته كلها .. عاشها سنوات طويلة وعاني من وطأتها وقاومها باستماتة وحاول أن يتخلص منها ، اجتهد لكي ينفذ من ثقب كلية الشرطة إلى الحياة اللائقة المحترمة لكن الكلمة .. "حارس العقار " .. كانت تنتظره في نهاية السباق الشاق لتفسد كل شيء في اللحظة الأخيرة .. لماذا لم يخبروه من البداية ؟ لماذا تركه اللواء للنهاية وأبدى إعجابه بإجابته على الأسئلة ثم سدد إليه طعنته الأخيرة .. "قم من أمامي يابن البواب ..عاوز تدخل الشرطة يابن البواب؟.. ابن البواب يبقى ضابط ؟! .. والله عال ".

أخذ طه يجوب الحجرة وقد عزم على أن يفعل شيئا .. قال لنفسه لايمكن أن يهينوه بهذه الطريقة ويسكت .. لايمكن أن يضيع تعبه في لحظة .. وشيئا فشيئا أخذ يتخيل مشاهد ثأرية خرافية : يرى نفسه مثلا وهو يلقي على اللواءات أعضاء اللجنة كلمة مؤثرة عن تكافؤ الفرص والحق والعدل الذي أمرنا به الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ويظل يوبخهم حتى يذوبوا حرجا من فعلتهم ويعتذروا إليه ويعلنوا قبوله في الكلية .. وفي مشهد آخر يرى نفسه ممسكا بياقة اللواء الرئيس وهو يصيح في وجهه:

أنت مالك أبويا يشتغل إيه ؟ .. يا يا ضلالي يامرتشي..!!
ثم يسدد إلى وجهه عدة لكمات عنيفة يسقط إثرها على الأرض غارقا في دمائه .. كان من عادته أن يتخيل مشاهد كهذه عندما يتعرض إلي مواقف صعبة لا يقدر عليها لكن المشاهد الثأرية على قوتها لم تشف غليله هذه المرة وظل الشعور بالإهانة يسحقه سحقا حتى طرأت له فكرة و ألحت عليه فجلس إلى مكتبه الصغير وأخرج ورقة وقلما وكتب بخط كبير في رأس الصفحة :" بسم الله الرحمن الرحيم .شكوى مقدمة إلى سيادة رئيس الجمهورية .." .. توقف لحظة وعاد برأسه إلى الخلف وأحس براحة من فخامة الألفاظ وخطورتها ثم انهمك في الكتابة .

تركت هذه المساحة فارغة لأنني لم أجد ما أكتبه فيها ..

فالكلمات تصلح لوصف الأحزان أو الأفراح العادية أما لحظات السعادة الكبرى مثل التي عاشها زكي الدسوقى مع حبيبته رباب فان القلم يعجز فعلا عن وصفها ..وبرغم الحدث الأليم ، سيظل زكى بك يتذكر رباب الجميلة بوجهها الخمري الساحر وعينيها الواسعتين السوداوين وشفتيها المكتنزتين القرمزيتين وقد فكت شعرها فانسدل على ظهرها وجلست أمامه ترتشف الويسكي وتداعبه بصوتها المثير ثم تستأذن إلى الحمام وتعود وقد ارتدت قميص نوم قصيرا ومفتوحا يكشف عن مفاتنها ، تلك الابتسامة اللعوب وهي تسأله " ..أين سننام ؟!.." واللذة العارمة التي منحها له جسدها الطري الدافئ .. كل تفاصيل الحب الرائعة يتذكرها زكى بك وفجأة ، تتشوش الصورة في رأسه وتضطرب بشدة ثم تنقطع وتترك وراءها فراغا معتما وشعورا مؤلما بالصداع والغثيان ، آخر ما يذكره أنه سمع صوتا خافتا كالفحيح أعقبته رائحة نفاذة أثارت أغشية أنفه وأخذت رباب في تلك اللحظة تتفحصه بنظرة غامضة وكأنها تترقب شيئا ما وبعد ذلك لا يذكر زكى بك أى شئ .. استيقظ بصعوبة ومطارق الصداع الجبارة تدق رأسه فوجد أبسخرون واقفا بجواره وقد بدت عليه علامات الجزع وأخذ يهمس بإلحاح:

- سيادتك تعبان .. أنادى الدكتور ..؟!

بصعوبة .. هز زكي رأسه الثقيلة وهو يبذل مجهودا خارقا ليستجمع ذهنه المشتت وفكر أنه نام طويلا وأراد أن يعرف الوقت فنظر إلى ساعة يده الذهبية لكنه لم يجدها ، كما أنه لم يجد محفظته على المنضدة بجواره حيث تركها وهنا تأكد أنه تعرض لحادث سطو وشيئا شيئا بدأ في حصر الخسائر :

بالإضافة للساعة الذهبية وخمسمائة جنيه كانوا في المحفظة فقد زكي بك طاقم أقلام ذهبية ماركة " كروس " (بعلبته لم يستعمل) ونظارة شمسية ماركة بيرسول .. أما الطامة الكبرى فكانت سرقة الخاتم الماسي الخاص بأخته الكبرى دولت الدسوقي

- أنا انسرقت يا أبسخرون .. رباب سرقتني ..!!

هكذا ردد زكي بك وقد جلس عاريا على حافة الأريكة التي كانت مهدا للحب منذ قليل وبدا في تلك اللحظة، بملابسه الداخلية وجسده الضئيل وفمه الخالي المنطبق (وكان قد خلع طقم أسنانه ليتمكن من تقبيل المحبوبة) ..أشبه بممثل هزلي بائس يستريح بين فقرتين .. وضع رأسه بين يديه وهو يشعر بتعاسة بالغة وأخذ أبسخرون المنفعل بالحدث الجلل والمتوتر ككلب محبوس يضرب الأرض بعكازه ويذرع الحجرة في كل اتجاه ثم انحنى على سيده

وقال بصوت لاهث :

- سيادتك .. نبلغ البوليس على بنت الحرام دى؟!!..

وفكر زكى قليلا ثم هز رأسه علامة النفي وظل صامتا فاقترب منه أبسخرون أكثر وهمس :

- سيادتك .. هي سفتك حاجة والا رشت على وش سيادتك حاجة ؟!

كان زكى الدسوقى يحتاج إلى هذا السؤال لينفث غضبه فثار وانهال بالشتائم على أبسخرون المسكين ، لكنه على أية حال ، في النهاية ، استعان به لينهض ويرتدى ثيابه وقد عزم على الانصراف..كان الليل قد انتصف والمحلات في شارع سليمان باشا أغلقت أبوابها وأخذ زكى يجرجر قدميه وهو يترنح من الصداع والإعياء وشيئا فشيئا تراكم في نفسه غيظ بالغ .. تذكر الجهد والمال الذي بذله من أجل رباب وتلك الأشياء الثمينة التي سرقتها منه .. كيف يحدث كل ذلك معه ؟!! ..الوجيه زكى الدسوقى ، فاتن النساء وعشيق الأميرات ، تخدعه امرأة مومس حقيرة وتسرقه ..لعلها الآن مع عشيقها تهدى إليه النظارة البيرسول والأقلام الذهبية ماركة كروس (التي لم تستعمل) ويضحكان معا على المغفل العجوز الذي شرب المقلب و زاد من حنقه أنه لا يستطيع إبلاغ البوليس خوفا من

الفضيحة التي سوف تصل أصداؤها حتما إلى أخته دولت ولا يستطيع أيضا أن يطارد رباب أو يشكوها في بار كايرو حيث تعمل لأنه يعلم يقينا أن صاحب البار وكل العاملين فيه من معتادى الإجرام وأرباب السوابق وربما تكون السرقة قد تمت لحسابهم وهم في كل الأحوال لا يمكن أن يقفوا معه ضد رباب ومن الوارد جدا أن يضربوه كما رآهم بنفسه يفعلون من قبل مع الزبائن المشاغبين .. لم يكن أمامه إذن إلا أن ينسى الحادثة برمتها وكم كان ذلك عسيرا ومؤلما بالإضافة إلى الهم الجاثم على قلبه من جراء سرقة خاتم أخته دولت وأخذ يلوم نفسه : " عندما تسلم الخاتم من بابازيان الصانع بعد إصلاحه لماذا استبقاه في المكتب ولم يسارع بإرجاعه إلى دولت ؟!! .. ماذا يفعل الآن ؟! انه لا يستطيع شراء خاتم جديد وحتى لو استطاع فان دولت تعرف مجوهراتها مثل أولادها .. ".. كان يخاف من مواجهة دولت أكثر من أى شئ آخر حتى أنه لما وصل إلى بيته في ممر بهلر وقف أمام المدخل مترددا وخطر له أن يذهب ليبيت عند أحد أصدقائه وكاد أن يفعل ..لكن تأخر الوقت وشعوره بالتعب دفعاه للصعود ، فصعد .

• • •

- كنـت فيـن يـا سعادة البك ..؟!

هكذا بادرته دولت بمجرد دخوله إلى الشقة ، كانت تنتظره في الصالة على المقعد المواجه للباب وقد لفت خصلات شعرها المصبوغ باللون الكستنائي على " البوكل " وغطت وجهها المجعد بمساحيق كثيفة ومن زاوية فمها تتدلى سيجارة مشتعلة في مبسم ذهبي صغير وقد ارتدت روبا منزليا أزرق غطى جسدها النحيل ودست قدميها في " بانتوفل " على شكل ارنب أبيض وجلست تغزل قطعة من الصوف بإبرتي تريكو ويداها تتحركان بطريقة آلية سريعة بلا توقف ولا هوادة وكأنهما منفصلتان عن بقية جسدها وكان بمقدورها دائما ، بحكم العادة ، أن تدخن وتغزل التريكو وتتكلم في نفس الوقت

- مساء الخير

هكذا قال زكي بسرعة وحاول أن يمضي إلى حجرته مباشرة لكن دولت بدأت الهجوم في الحال فصرخت في وجهه :

- انت ايه .. ؟!!.. ساكن في فندق ..؟!! يا أخي خللي عندك دم ..! ثلاث ساعات وأنا في انتظارك من الباب للشباك ..كنت حاتصل بالبوليس .. قلت جرى لك حاجة .. حرام عليك ، أنا مريضة .. انت عاوز تموتني ؟! يارب ارحمني .. يارب تأخذني وتريحني ..

كانت هـذه بمثابـة افتتاحية سريعة لمشاجرة مـن أربع حركات قد تمتد حتى الصباح وقـال زكـى وهو يجتاز الردهة بسرعة:

- أنا آسف يا دولت .. أنا مرهـق جـدا .. أنـام والصبح أحكي لك ما جرى بإذن الله ..

لكن دولت فطنت إلى محاولته للهروب فألقت من يدها بـإبر التريكو واندفعت نحوه صارخة بأعلى صوتها :

- مرهق من ايه بسلامتك ..؟!!.. من النسوان اللـي داير تشمشم عليها زي الكلـب ؟!.. يا شيخ اتعظ .. ممكن تموت في أي وقت .. لما تقابل ربنا تقول لـه ايه ..؟! .. ياالشييخ ..

مع هذه الصيحة الأخيـرة ، دفعت دولت زكـى في ظهره بقوة فترنح قليلا لكنه استجمع قوته ومرق إلى داخل حجرته وبرغم مقاومة دولت العنيفة نجح في إغلاق الباب عليه ودس المفتـاح في جيبه .. ظلت دولت تصيح وتهز مقبض الباب لتفتحه لكن زكـى أحس بأنـه نجا وقـال لنفسه إنها لـن تلبث أن ترهق وتنصرف ثم تمدد بملابسه على السرير ، كان متعبا وحزينا وأخذ يتأمل أحداث النهار وتمتم بالفرنسية : " ياله من يوم تعس " .. ثم فكر في دولت وسأل نفسه : " كيف تحولت أخته الحبيبة إلى هذه العجوز الكريهة الشرسة ؟!..

إنها تكبره بثلاثة أعوام فقط ، لازال يذكرها وهى بنت رقيقة جميلة ترتدى زي مدرسة " المير دو ديو " بلونيه الأصفر والكحلي وتحفظ مقاطع من أشعار لافونتين عن الحيوانات وفى أمسيات الصيف تعزف على البيانو في صالة بيتهم القديم في الزمالك (الذي باعه الباشا بعد الثورة).. كان عزفها رائعا لدرجة أن مدام شديد مدرسة الموسيقى فاتحت الباشا في إمكانية تقدمها للمسابقة الدولية للهواة في باريس لكن الباشا رفض ولم تلبث دولت أن تزوجت من اليوزباشي طيار حسن شوكت وأنجبت ولداً وبنتاً (هانى ودينا) ثم قامت الثورة فأحيل شوكت إلى التقاعد لعلاقته الوطيدة بالأسرة المالكة ولم يلبث أن مات فجأة ولما يتجاوز الخامسة والأربعين ، وتزوجت دولت بعده مرتين ولم تنجب ، زيجتان فاشلتان أورثتاها المرارة والعصبية وإدمان التدخين ، ثم كبرت ابنتها وتزوجت وهاجرت إلى كندا وعندما تخرج ابنها في كلية الطب خاضت دولت معركة ضارية لكي تمنعه من الهجرة ، بكت وصرخت وتوسلت إلى كل أقاربها ليقنعوه بالبقاء معها لكن الطبيب الشاب (كمعظم أبناء جيله) كان كارها للأوضاع في مصر لدرجة اليأس فصمم على الهجرة وعرض على أمه أن يصطحبها فرفضت وبقيت وحدها ثم قامت بتأجير شقتها في جاردن سيتي مفروشة وانتقلت للإقامة مع زكى

في وسط البلد .. ومنذ اليوم الأول لم يتوقف العجوزان عن التشاجن والعراك وكأنهما عدوان لدودان . كان زكى قد ألف الاستقلال والحرية وبات من الصعب أن يتقبل مشاركة أحد في حياته : أن يضطر للالتزام بمواعيد للنوم والطعام ، أن يخبر دولت مسبقا إذا أراد أن يسهر .. كان وجودها يمنعه من استضافة عشيقاته في البيت وزاد من معاناته تدخلها السافر في أدق شئونه ومحاولتها الدائمة للتسلط عليه، ومن ناحيتها ، كانت دولت تعاني من الوحدة والتعاسة ويحزنها أنها تنهى حياتها بلا مكاسب أو إنجازات بعدما فشلت في زواجها وتركها أولادها في الشيخوخة وكان يستفزها للغاية أن زكى لا يبدو أبدا كشيخ فان ينتظر الموت.. انه لازال يتعطر ويتغندر ويطارد النساء وما أن تراه وهو يصلح من هندامه ضاحكا مدندنا أمام المرآة أو تلاحظ أنه سعيد ومزاجه رائق حتى تشعر بالحنق ولا تهدأ حتى تتحرش به وتسلقه بلسانها ، كانت تهاجم تصابيه ونزواته ليس بوازع من فضيلة وانما لأن تكالبه على الحياة بهذه الطريقة لا يلائم ما تشعر به من يأس ، كانت ثورتها عليه أشبه بغضب المعزين الحزانى على رجل يقهقه في المأتم وكان بين العجوزين ، أيضا ، كل ما يصاحب الشيخوخة من ضجر وقلة صبر وتعنت بالإضافة إلى ذلك التوتر الذي ينشأ دائما من اقتراب شخصين من بعضهما

أكثر من اللازم : .. أن يشغل أحدهما الحمام طويلا بينما يريد الآخر استعماله ، أن يرى أحدهما وجه الآخر المكفهر ساعة الاستيقاظ من النوم ، أن يحتاج أحدهما إلى الصمت ويصر الآخر على الحديث ، مجرد وجود شخص آخر لا يفارقك ليل نهار ويحملق فيك ويقتحمك ويراجعك فيما تقول ويجلس ليأكل معك فيستفزك الصرير الذي يصدر من ضروسه أثناء المضغ ويزعجك حتّى الرنين الذي يحدثه ارتطام ملعقته بالصحون ..

ظل زكى بك الدسوقى ممددا على السرير يسترجع الأحداث وشيئا فشيئا بدأ النعاس يغشاه لكن يومه السيئ لم ينته فلم يلبث وهو بين النوم واليقظة أن سمع صرير المفتاح الاحتياطي الذي عرفت دولت أين تجده ، فتحت الباب واقتربت منه وقد اتسعت عيناها من الحنق وقالت بصوت لاهث من الانفعال:

- " فين الخاتم يا زكى .. ؟!! "

* * *

.. وهكذا ترون سيادتكم يا سيادة الرئيس أنني ابنكم، طه محمد الشاذلي ، قد تعرضت إلى ظلم وإجحاف بحقي على يد سيادة اللواء رئيس لجنة الاختبار بكلية

الشرطة .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح :

"إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد .. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .."

..صدق رسول الله

سيادة الرئيس ..

لقد تعبت واجتهدت حتى حصلت على مجموع ٨٩ أدبي واستطعت بفضل من الله أن أنجح في كل اختبارات الالتحاق بكلية الشرطة ..فهل من العدل يا سيادة الرئيس أن أحرم من الالتحاق بالشرطة لمجرد أن أبي رجل شريف وفقير ويعمل حارس عقار .. أليست حراسة العقارات عملا شريفا وكل عمل شريف محترم يا سيادة الرئيس ..؟! .. أرجوكم يا سيادة الرئيس أن تنظروا إلى هذه الشكوى بعين الأب الحنون الذي لا يرضيه أبدا أن يلحق الظلم بأحد أبنائه.. إن مستقبلي يا سيادة الرئيس ينتظر قرارا من سيادتكم وأنا بإذن الله تعالى واثق من إنصافي على أيديكم الكريمة..

أدامكم الله ذخرا للإسلام والمسلمين

ابنكم المخلص

طه محمد الشاذلي بطاقة شخصية رقم ١٩٥٧٨ قصر النيل

العنوان عمارة يعقوبيان ٣٤ شارع طلعت حرب القاهرة ..

• • •

وكأنه قائد حربي مظفر يدخل في موكب النصر إلى مدينة فتحها بعد قتال مرير .. ظهر ملاك خله سعيدا مزهوا فوق سطح العمارة ليتسلم حجرته الجديدة ، كان يرتدى بدلته الشعبية الزرقاء التي يدخرها للمناسبات وقد علق حول رقبته مازورة طويلة كانت بالنسبة إليه (مثل الرتبة العسكرية للضابط والسماعة الطبية للطبيب) علامة تميزه المهني كأسطى قمصانجي وحضر معه ذلك الصباح مجموعة عمال من أجل إعداد الحجرة : حداد وكهربائي وسباك وبعض الصبيان الصغار المساعدين له ..

تمتم الأسطى ملاك بصلاة الشكر للعذراء ويسوع المخلص ثم مد يده ليفتح الحجرة لأول مرة ، كان الهواء بالداخل عطنا لأنها ظلت مغلقة عاما كاملا منذ وفاة عطيه بائع الجرائد (الذي وجد ملاك بعض متعلقاته فأمر الصبيان بجمعها في صندوق كبير من الورق المقوى).. الآن .. يقف ملاك في منتصف الحجرة وقد فتح النافذة

فغمرت الشمس المكان ، يصدر إلى العمال تعليمات مفصلة ودقيقة عما يجب عمله ومن حين لآخر يتوقف أحد سكان السطح ويستطلع ما يحدث من باب الفضول ، بعضهم يتفرج قليلا ثم يمضى والبعض الآخر يهنيء ملاك على الحجرة الجديدة ويصافحه متمنيا التوفيق ، على أن سكان السطح ليسوا جميعا بهذه الرقة فبعد أقل من نصف ساعة انتشر الخبر في السطح وسرعان ما ظهر على باب الحجرة شخصان لا يبدو عليهما أدنى ترحيب بالوافد الجديد : الأستاذ حامد حواس وعلى السواق .. الأول موظف في الهيئة القومية للصرف الصحي ، غضب عليه رئيسه فنقله من المنصورة حيث يقيم إلى القاهرة فاستأجر حجرة على السطح يعيش فيها وحده ويسعى جاهدا منذ أكثر من عام لإلغاء نقله التعسفي والعودة إلى بلده والأستاذ حامد حواس واحد من كبار كتاب الشكاوي الرسمية ، يجد متعة حقيقية غامرة في انتقاء موضوع الشكوى وصياغتها ببلاغة ثم تحريرها بخط منسق سهل القراءة ومتابعتها بعد ذلك إلى النهاية مهما كلفه ذلك من مشقة لأنه يعتبر نفسه ، على نحو ما ، مسئولا عن سلامة الأداء في كافة المرافق العامة في أية منطقة يسكنها أو حتى يمر بها وهو يجد دائما الوقت ليطوف يوميا بإدارة الحي والمحافظة وشرطة المرافق حيث يقدم شكاواه ويتابعها بإلحاح وتركيز ضد باعة متجولين

يقفون في الشارع بعيدا جدا عن مكان سكنه ، لكنه يجد من واجبه أن يطارد هؤلاء المخالفين بالشكوى تلو الأخرى، بلا كلل ولا ملل ، حتى تتحرك شرطة المرافق في النهاية فتقبض عليهم وتصادر بضائعهم .. عندئذ يرقب الأستاذ حامد المشهد عن بعد وهو يشعر براحة من أدى واجبه كاملا غير منقوص ، أما علي السواق فهو مدمن للخمور تعدى الخمسين ولم يتزوج يعمل سائقا في الشركة القابضة للأدوية ويخرج من عمله كل يوم إلى بار عرابي في التوفيقية حيث يتناول غداءه ويظل يعب الخمر حتى منتصف الليل وقد أثرت فيه وحدته والخمور الرديئة التي أدمنها فجعلته فظا شرسا يبحث عادة عن أية مشاجرة ليفرغ فيها طاقته العدوانية ..اقترب الأستاذ حامد حواس من ملاك وحياه ثم بدأ الكلام بطريقة مهذبة للغاية فقال :

- بالنسبة للحجرة دي يا أخ .. هل معك عقد من صاحب البيت يعطيك الحق في استغلالها كمكان تجاري..؟!

- طبعا معي عقد .. أجاب ملاك بحماس ثم أخرج من حقيبته الجلدية الصغيرة صورة للعقد الذي وقعه مع فكري عبد الشهيد فالتقط حامد الورقة ووضع النظارة الطبية على عينيه وتفحصها بعناية ثم مد يده بها إلى ملاك قائلا بهدوء :

- العقد بهذا الشكل باطل ..

- باطل ؟! هكذا ردد ملاك بجزع

- طبعا باطل .. السطح بحكم القانون منفعة عامة للسكان ولا يجوز تأجير المنفعة العامة لغرض تجارى..

لم يفهم ملاك الكلام وأخذ يحملق بغيظ في الأستاذ حامد الذي استطرد قائلا بثقة :

الموضوع فيه أكثر من حكم لمحكمة النقض والمسألة منتهية .. العقد باطل وأنت ليس من حقك استعمال الحجرة

- طيب ما أنتم ساكنين كلكم فوق السطح ..اشمعنى أنا ؟!..

- إحنا شاغلين حجراتنا بقصد السكن ودا قانوني إنما أنت تستغل الحجرة لغرض تجارى ودا غير قانوني ولايمكن أن نسمح به أبدا ..

-.. خلاص .. اشتك صاحب البيت لأنه أعطاني العقد

- لا طبعا .. القانون يمنعك أساسا من استعمال الحجرة .. واحنا باعتبارنا سكان متضررين لابد نمنعك

- يعني ايه ؟!

- يعني تأخذ بعضك وتمشى بالتي هي أحسن ..

هكذا قال على السواق بصوته الأجش وهو ينظر إلى ملاك متحديا وأكمل وهو يضع يده على كتفه في تهديد

واضح :

- اسمع يا كابتن .. السطح هنا مكان عائلات محترمة .. لايمكن على آخر الزمن تيجي تفتح فيه محل يقوم العمال والزبائن يبصوا للحريم الداخلة والخارجة .. فاهم والا لأ ..؟!..

ورد ملاك بسرعة وهو يستشعر خطورة الموقف :

- يا سعادة الباشا جميع العمال عندي مؤهلات عليا والحمد لله ، كلهم ذوق ومفهومية وبعدين سكان السطح والحريم على دماغي من فوق

- اسمع .. من غير كلام كثير .. لم حاجاتك وتوكل على الله

- الله ..؟! جرى ايه ؟! هي بلطجة ولا ايه ؟!

- أيوه بلطجة يا روح أمك ..

هكذا قال على السواق وقد جذب ملاك من ياقته وصفعه إيذانا ببدء القتال .. كان يتشاجر بسهولة واقتدار وكأنه يتخذ إجراءا روتينيا بسيطا أو يمارس لعبة يهواها : بدأ بضربة رأس محكمة لملاك ثم لكمتين في بطنه وثالثة قوية ذات طنين أصابت أنفه فسال خيط من الدم على وجهه وحاول ملاك أن يقاوم فسدد لكمة رمزية خائبة إلى وجه غريمه طاشت ولم تصبه ثم أخذ يصرخ محتجا وهو يتلقى ضربات عنيفة وساد هرج ومرج وتسلل العمال هاربين

تجنبا للمشاكل وتجمع الناس من كل صوب ليتفرجوا وظهر أبسخرون فجأة في السطح وراح يصرخ ويولول مستنجدا واستمرت المشاجرة حتى نجح على السواق في طرد ملاك خارج الحجرة وكان الأستاذ حامد حواس قد تسلل من البداية واستدعى شرطة النجدة من تليفون كشك السجائر المواجه للعمارة فلم يلبث أن جاء ضابط شرطة شاب وعدة جنود ومخبرين قاموا بالقبض على المتشاجرين جميعا : ملاك وصبيانه وأبسخرون وعلى السواق أما حامد حواس فقد اقترب من الضابط وحياه بلطف ثم قال :

– سيادتك يا باشا دارس قانون والأخ (مشيرا إلى ملاك) عاوز يفتح محل تجارى في السطح والسطح منفعة عامة لا يجوز استغلالها تجاريا ، وكما تعلم سيادتك طبعا دي جريمة وتكييفها القانوني اغتصاب حيازة وعقوبتها الحبس لمدة قد تصل إلى ثلاث سنوات

– انت محام ؟!!

هكذا سأل الضابط الأستاذ حامد الذي رد بثقة :

– لا يا باشا أنا سيادتك حامد حواس ، نائب مدير إدارة المتابعة في الهيئة القومية للصرف الصحي فرع المنصورة.. .. كما إنني واحد من السكان المتضررين من اغتصاب حقهم في المنفعة العامة للسطح .. كيف يقوم المالك يا سعادة الباشا بتأجير السطح لغرض تجارى..؟!!

هذا اعتداء صارخ على المنفعة العامة للسكان .. ممكن بعد كدا يقوم بتأجير الأسانسير أو مدخل العمارة !!.. هي البلد سايبة ولا ايه؟!

هكذا تساءل الأستاذ حامد بطريقة مسرحية وهو ينظر محرضاً إلى السكان المتجمعين الذين أثارتهم كلماته فتململوا وهمهموا معترضين وبانت الحيرة على الضابط الشاب ففكر قليلاً ثم قال بقرف :

– طيب يالله كلكم على القسم .. "

• • •

كان الدكتور حسن رشيد من أعلام القانون في مصر والعالم العربي ، وهو مثل طه حسين وعلي بدوي وزكي نجيب محمود وغيرهم ، واحد من مثقفي الأربعينيات الكبار الذين أتموا دراساتهم العليا في الغرب وعادوا إلى بلادهم ليطبقوا ما تعلموه هناك بحذافيره في الجامعة المصرية ، وبالنسبة لهؤلاء كان "التقدم" و " الغرب" كلمتين بمعنى واحد تقريبا ، بكل ما يعنى ذلك من سلوك إيجابي وسلبي ، كان لديهم جميعا ذلك التقديس للقيم الغربية العظيمة: الديمقراطية والحرية والعدل والعمل الجاد والمساواة ، وكان لديهم ، أيضا ، ذلك التجاهل لتراث الأمة

والاحتقار لعاداتها وتقاليدها باعتبارها قيودا تشدنا إلى التخلف وواجبنا أن نتخلص منها حتى تتحقق النهضة ..

.. تعرف الدكتور رشيد أثناء دراسته في باريس إلى " جانيت " الفرنسية وأحبها ثم اصطحبها معه إلى مصر وتزوجها وانجبا ابنهما الوحيد " حاتم " وعاشت الأسرة حياة غربية قلبا وقالبا فلا يذكر حاتم أبدا أنه رأى أباه الدكتور رشيد يصلي أو يصوم ، كان الغليون لا يفارق فمه والنبيذ الفرنسي دائما على مائدته وأحدث الاسطوانات الصادرة في باريس تتردد في أنحاء البيت والفرنسية لغة التخاطب الغالبة في البيت ، وعلى طريقة الغربيين كان كل شئ في حياة الأسرة يتم بناء على موعد وتخطيط ، حتى لقاء الأصدقاء والأقارب وكتابة الخطابات الشخصية كان الدكتور رشيد يخصص لها ساعات محددة كل أسبوع والحق أنه بالإضافة إلى قدراته العقلية الفذة كان يملك طاقة مذهلة على العمل المتواصل واستطاع في عقدين اثنين أن يحقق طفرة حقيقية في دراسة القانون المدني المصري ولمع نجمه مع الأيام حتى تولى عمادة كلية الحقوق في جامعة القاهرة ثم اختارته الجمعية القانونية الدولية في باريس كواحد من أبرز مائة قانوني في العالم ، ولأنه كان غارقا دائما في أبحاثه ومحاضراته ولأن عمل زوجته جانيت كمترجمة في السفارة الفرنسية كان يشغل كل وقتها فقد قضى ابنهما حاتم طفولة

حزينة ووحيدة حتى أنه ، على عكس الأطفال جميعا ، كان يحب أيام المدرسة ويكره الأجازة الصيفية الطويلة التي يقضيها وحيدا بلا أصدقاء يلعب معهم ، و مع الوحدة المؤلمة كان هناك الشعور بالاغتراب والتشوش الذهني الذي يعاني منه أبناء الزواج المختلط ..وكان حاتم الصغير يقضى وقتا طويلا مع الخدم وكثيرا ما يبعث به أبواه (المشغولين دائما) بصحبة أحد الخدم إلى نادى الجزيرة أو السينما ، ومن بين خدم البيت الكثيرين أحب حاتم الصغير إدريس السفرجى ، بقفطانه الأبيض الفضفاض وحزامه العريض الأحمر وطربوشه الطويل ، قامته الطويلة وجسده الممشوق القوى ، وجهه الأسمر الوسيم وعينيه اللامعتين الذكيتين وابتسامته المشرقة التي تسطع فيها أسنانه الناصعة المنتظمة، تعود إدريس أن يجلس مع حاتم في حجرته الكبيرة المطلة على شارع سليمان باشا ، يلعب معه بلعبه ويحكي له حكايات الحيوانات ويغنى له الأهازيج النوبية الجميلة ويترجم له معانيها وكان صوت إدريس يتهدج والدموع تلمع في عينيه عندما يحدثه عن أمه واخوته وقريته التي أخذوه منها وهو صغير ليعمل في البيوت ، وقد أحب حاتم إدريس وتوطدت علاقتهما حتى صارا يقضيان معا ساعات طويلة كل يوم وعندما بدأ إدريس يقبل حاتم في وجهه ورقبته ويهمس له "انت جميل .. أنا أحبك .." لم

يشعر حاتم بنفور أو خوف منه بل أثارته على نحو غامض تلك اللفحة الحارة التي تتركها أنفاس صديقه على جسده ، واستمرت بينهما القبلات حتى طلب منه إدريس يوما أن يخلع ثيابه ، كان حاتم حينئذ في التاسعة من عمره وشعر بالخجل والارتباك لكنه في النهاية أذعن لإلحاح صديقه الذي أثاره جسده الأبيض الناعم لدرجة أنه أثناء اللقاء كان يشهق من اللذة ويهمس بعبارات نوبية غير مفهومة ، وبرغم شهوة إدريس وعنفوانه فقد دخل إلى جسد حاتم برفق وحذر وطلب إليه أن يخبره إذا أحس بأدنى ألم ، ونجحت هذه الطريقة حتى أن حاتم وهو يسترجع الآن لقاءه الأول بإدريس يعاوده ذلك الإحساس الغريب الشائك الذي عرفه يومئذ لأول مرة لكنه لا يذكر أبدا أنه تألم ، وبعد ما فرغ إدريس أدار حاتم ناحيته وقبله بحرارة في شفتيه ثم نظر في عينيه وهمس:

– " لقد فعلت ذلك لأني أحبك .. لوكنت تحبني إياك أن تخبر أحدا بما حدث .. لوقلت لهم سيضربونك ويطردونني وقد يحبسني أبوك في السجن أو يقتلني فلا تراني بعد ذلك أبدا " ..

وامتدت علاقة حاتم بإدريس سنوات حتى مات الدكتور رشيد فجأة بانفجار في المخ من فرط إجهاده في العمل ، واضطرت أرملته إلى الاستغناء عن خدم كثيرين

ضغطا للنفقات ، وغادر إدريس البيت وانقطعت أخباره ، وأثرت غيبته في نفسية حاتم لدرجة أنه حصل ذلك العام على مجموع ضئيل في الثانوية العامة وانغمس بعد ذلك في حياته الشاذة الصاخبة ومنذ عامين توفيت أمه فتحرر بذلك من آخر قيد على لذاته وقد ورث دخلا ثابتا يكفل له حياة رغدة (بالإضافة إلى مرتبه المعقول من الجريدة) وقام بتجديد شقته الكبيرة في عمارة يعقوبيان ليخلصها من شكلها التقليدي فباتت أقرب لصومعة فنان بوهيمي منها إلى منزل أسرة مستقرة ، صار بمقدوره الآن أن يستضيف العشاق في فراشه لأيام وأحيانا لشهور ، وقد عرف حاتم رجالا كثيرين وفارقهم لأسباب مختلفة لكن شهوته الآثمة الدفينة ظلت دائما مرتبطة بإدريس السفرجي ، وكما يبحث الرجل في النساء عن صورة عشيقته الأولى التي عرف معها اللذة لأول مرة ، يفتش حاتم في كل الرجال عن إدريس، الذكر البداني الفظ الذي لم تهذبه الحضارة بكل ما يمثله من صلابة وخشونة وعنفوان ، وهو لا ينقطع أبدا عن التفكير في إدريس وكثيرا ما يستعيد ، بحنين لاذع لذيذ، إحساسه وهو مستلق على بطنه فوق أرض الحجرة (وكأنه أرنب صغير مستسلم لمصيره) يتابع بعينيه الزخارف الفارسية المنقوشة على السجادة بينما يلتحم به جسد إدريس الساخن المفعم فيعتصره ويذيبه ، والغريب أن لقاءاتهما

الجنسية ، على كثرتها ، تمت دائما على أرض الحجرة و لم يصعدا أبدا إلى السرير ، ويرجع ذلك غالبا إلى شعور إدريس بضآلته كخادم لا يقوى نفسيا على استعمال فراش سيده حتى وهو يضاجعه ..

.. وقد حدث ذات ليلة ، من شهور ، أن استبد السكر بحاتم واجتاحته شهوة عارمة فنزل يتجول في وسط البلد في الساعة العاشرة (وهذه ساعة تغيير وردية الحراسة لجنود الشرطة التي يعرفها كل الشواذ في وسط البلد ويسعون خلالها إلى التقاط عشاقهم من بين الجنود) أخذ حاتم يتفقد العساكر البسطاء وهم يتأهبون للانصراف من الوردية حتى رأى عبد ربه (الذي يشبه إدريس كثيرا) فاصطحبه معه في السيارة ومنحه مالا وظل يداعبه حتى تمكن من إغوائه ، وقد بذل عبد ربه بعد ذلك محاولات عديدة وعنيفة للتخلص من علاقته بحاتم الذي كان يدرك ، بخبرته الطويلة في الغرام الشاذ ، أن الشاذ (البرغل) المبتدئ مثل عبد ربه يتملكه عادة شعور هائل بالإثم سرعان ما يتحول إلى مرارة وكراهية سوداء تجاه الشاذ (الكوديانا) الذي يغويه ، ويعرف أيضا أن التجربة الشاذة مع تكرارها وتذوق لذتها تتحول شيئا فشيئا إلى شهوة أصيلة عند الشاذ البرغل مهما كرهها ونفر منها في البداية ، وهكذا ظلت علاقة حاتم وعبده تتراوح بين الوصل ومحاولات القطيعة

وبالأمس غادر عبده بار شينو هربا من حاتم لكنه لحق به وألح حتى اصطحبه إلى الشقة وشربا معا قبل الحب زجاجة كاملة من النبيذ الفرنسي القوى ، وها هو حاتم في الصباح يستلقي مسترخيا في الحمام مستسلما لزخات الماء الساخن المندفعة من الدوش التي يحس بها على جسده وكأنها جيوش من النمل اللذيذ ، وهو يسترجع مبتسما ليلته الحارة مع عبده الذي ألهبت شهوته الخمر فاعتصر جسده في دفقات عديدة متلاحقة ، وقف حاتم يجفف نفسه أمام المرآة وينظف أجزاءه الحميمة بعناية ويرطبها بالكريم المعطر ، ثم تدثر بروب وردى من الكشمير وخرج من الحمام إلى حجرة النوم وأخذ يتأمل عبده وهو نائم : وجهه الأسمر الداكن وشفتاه الغليظتان وأنفه الزنجي الأفطس والحاجبان الثقيلان اللذان يمنحان وجهه طابعه الصارم ، انحنى عليه وقبله فاستيقظ وفتح عينيه ببطء .. صباح الخير ..Bon jour.

هكذا همس حاتم برقة وهو يبتسم لعبده الذي نهض قليلا واستند إلى ظهر السرير فانكشف صدره العريض الداكن تغطيه غابة من الشعر الكثيف و لاحقه حاتم بالقبلات لكنه أبعد وجهه بيده ثم أطرق وقال بمرارة وكأنه يولول:

– يا حاتم بك أنا رحت في داهية ..بكره الضابط يحولنى على التأديب ..

– يووه يا عبده .. نرجع نتكلم على الضابط تاني ..قلت لك ولايهمك .. أنا عرفت واسطة للضابط .. لواء مهم جدا في الوزارة

– على بال ما تكلم الواسطة أكون أنا مرمى في الليمان ..امرأتي وابني الصغير في البلد عايشين عوالة يا سعادة بك ..نفسي أخلص تجنيد النهارده قبل بكره ولو انحبست عيالي يضيعوا

رمقه حاتم بحنان وابتسم ثم نهض ببطء إلى حقيبة يده الصغيرة وأخرج ورقة

بمائة جنيه دفعها إليه وقال :

– خذ .. ابعثهم لزوجتك وابنك.. ولك على أي حاجة يطلبوها أعملها لك .. وبكره أقابل اللواء قريبي ونكلم الضابط عليك .. بس وحياتي عندك ما تضايق نفسك يا عبده أطرق عبده وهمس بكلمات شكر واقترب حاتم منه حتى التصق جسداهما تماما وقال لنفسه بالفرنسية وهو يدنو من شفتيه الغليظتين : " ياله من صباح جميل ".

• • •

المواطن طه محمد الشاذلي
عمارة يعقوبيان - ٣٤ شارع طلعت حرب - القاهرة

تحية طيبة ..

بالإشارة إلى شكواكم المقدمة إلى رئاسة الجمهورية بشأن استبعادكم من اختبار القبول بكلية الشرطة .. نحيطكم علما بأنه بعد مراجعة الموضوع مع السيد اللواء مدير كلية الشرطة ، تبين لنا عدم صحة موضوع الشكوى .. تمنياتنا بالتوفيق

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

اللواء حسن بازرعه

مدير إدارة شكاوى المواطنين برئاسة الجمهورية

• • •

اعتاد الجيران سماع أصوات الشجار بين زكى الدسوقى وأخته دولت ، كان ذلك يحدث كثيرا ولم يعد مثيرا للدهشة أو الفضول ، لكن المشاجرة هذه المرة كانت مختلفة، شيئا أقرب إلى انفجار مروع ، صرخات وشتائم قبيحة واشتباكات بالأيدي ترامت أصواتها العالية إلى السكان

ففتحوا الأبواب وخرجوا مستطلعين وتململ بعضهم استعدادا إلى التدخل .. صرخت دولت بصوت غاضب:

- ضيعت الخاتم الألماظ يا وسخ ..؟!

- احترمي نفسك يا دولت ..

- تلاقيك أعطيته لواحدة مومس من صاحباتك ..

- أقولك احترمي نفسك ..

- أنا محترمة غصبا عنك.. أنت اللي مهزأ ومسخرة.. اطلع بره بيتي يابن الكلب يا شمام ..

- دى شقتي أنا

هكذا صاح زكى بك بصوت منهك

- لاياروحي دا بيت أبويا الباشا المحترم اللي نجسته بوساختك ثم تتابعت أصوات لطمات وعراكٍ وانفتح باب الشقة وأخذت دولت تدفع زكى إلى الخارج وهى تصيح:

- اخرج بره .. مش عاوزه أشوف خلقتك تاني .. فاهم .. بره ..

وتقدم زكى بك إلى الخارج ولاحظ تجمع الجيران فالتفت وراءه وقال :

- حاضر يا دولت .. أنا خارج ..

وصفقت دولت الباب بقوة وسمع صوت المزلاج وهى تغلقه واقترب الجيران من زكى بك وقالوا إن هذا الذي

يحدث لا يليق أبدا ومهما كانت الخلافات عيب على ناس محترمين مثل زكي بك وأخته دولت أن يتشاجرا بهذه الطريقة .. وأخذ زكي بك يهز رأسه مبتسما في حزن وهو ينسحب من المكان ، وقبل أن يدخل إلى المصعد قال للجيران بلهجة معتذرة ودودة :

- أسف لإزعاجكم يا جماعة .. دا مجرد سوء تفاهم .. وان شاء الله ينتهي على خير ..

• • •

القصص الكثيرة المتواترة عن كمال الفولي تؤكد أنه نشأ في أسرة فقيرة للغاية من شبين الكوم محافظة المنوفية وكان برغم الفقر في غاية الذكاء والطموح حتى حصل على الثانوية العامة عام ١٩٥٥ بترتيب متقدم على مستوى القطر وانخرط في العمل السياسي بمجرد التحاقه بكلية الحقوق .. انضم كمال الفولي إلى كافة تنظيمات السلطة بالترتيب :هيئة التحرير والاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي وبعد ذلك منبر الوسط وحزب مصر وأخيرا الحزب القومي ، وخلال كل هذه التحولات كان دائما أشد المتحمسين لمبادئ حزب الحكومة وأعلاهم صوتا ، في العهد الناصري ألقى محاضرات وكتب مؤلفات في حتمية

التحول الاشتراكي وضرورته التاريخية ولما انقلبت الدولة إلى الرأسمالية صار من أشد أنصار الخصخصة والاقتصاد الحر وشن تحت قبة البرلمان حملة ضارية شهيرة ضد القطاع العام والأفكار الشمولية عموما ، ولعله أحد السياسيين المصريين القلائل الذين استطاعوا الاحتفاظ بمقعد في البرلمان لأكثر من ثلاثين عاما متصلة ، صحيح أن الانتخابات في مصر يجري دائما تزويرها لمصلحة الحزب الحاكم لكن الصحيح أيضا أن الفولي يتمتع بموهبة سياسية حقيقية كانت ستمكنه حتما في مجتمع ديمقراطي من تولي أرفع مناصب الدولة لكن هذه الموهبة الأصيلة نفسها ، كما يحدث لمواهب كثيرة في مصر ، انحرفت وتشوهت واختلطت بالكذب والنفاق والدسائس حتى صار اسم كمال الفولي يستدعي إلى ذهن المصريين معنى الفساد والنفاق وقد ترقى في المناصب الحزبية حتى تولى أمانة التنظيم في الحزب القومي وصار المتحكم الأول في الانتخابات في مصر كلها ، فهو يرشح ويستبعد من يشاء من مرشحي الحزب و يشرف بنفسه على تزوير الانتخابات من الإسكندرية إلى أسوان ويتقاضى رشاوى كبيرة من المرشحين ليضمن تزوير الانتخابات لصالحهم وفي نفس الوقت يغطي فساده بألاعيب كبيرة : تبادل منافع وتسهيلات تدر الملايين على كبار السياسيين وتقارير أمن ووثائق سرية

تثبت انحرافات المسئولين يحتفظ بها الفولي ليستعملها في ابتزازهم أو القضاء عليهم إن لزم الأمر ، وفي كافة الاجتماعات السياسية سواء في مجلس الشعب أو الحزب القومي ، يسكت الجميع إذا تكلم الفولي ، بل إن نظرة صارمة واحدة منه تكفي لاصابة أي مسئول بالهلع .. وله في هذا السياق حوادث شهيرة قام فيها بذبح مسئولين كبار على الملأ لأنهم تكلموا بغير ما يرضيه ،مثال ذلك الحملة الشعواء التي قادها من سنوات (لحساب مسئولين كبار) ضد الدكتور الغمراوى محافظ البنك المركزي والتي أدت إلى إقالته في النهاية ، ومثال أقرب: ما حدث في العام الماضي مع وزير الأوقاف ، الذي كان يتمتع بشعبية ما جعلته يتوهم أنه قوى ومؤثر فقام في إجتماع المكتب السياسي للحزب وهاجم الفساد السياسي بشدة وطالب بتطهير الحزب من المنحرفين والمتربحين من مناصبهم ، وقد أوما الفولي للوزير لكي ينهي كلمته لكنه استمر غير عابئ به ، عندئذ قاطعه الفولي مستهزئا وهو يلتفت حوله إلي الحاضرين بطريقة مسرحية :

– الله .. خبر إيه يا معالي الوزير ؟!.. لما سيادتك حريص على محاربة الفساد لهذه الدرجة.. ابدأ بنفسك يا أخي ..أنت اقترضت عشرة مليون جنيه من بنك التنمية وبقى لك خمس سنوات رافض التسديد .. على فكرة ،

المسئولين في البنك ناويين يرفعوا قضية ويعملوا لك فضيحة ..

عندئذ امتقع الوزير وجلس في صمت وسط تعليقات الحاضرين وضحكاتهم ..

• • •

كل هذا يعرفه الحاج عزام جيدا ومن هنا ما أن قرر ترشيح نفسه في انتخابات مجلس الشعب حتى طلب موعدا من كمال الفولي الذي تلكأ بضعة أسابيع ثم حدد له أخيرا موعدا في مكتب ابنه ياسر الفولي المحامي في شارع شهاب بالمهندسين ، وبعد صلاة الجمعة ذهب الحاج عزام وابنه فوزي إلى الموعد ،كان المكتب خاليا إلا من أفراد الحراسة وكمال الفولي وولده ياسر ، وتعانق عزام والفولي وتبادلا الدعوات والمجاملات والدعابات ، وبدا الاثنان أقرب إلى رفيقين قديمين بينهما ود وتفهم وتقدير ، وبعد حديث طويل متشعب جاء بمثابة تمهيد ، دخل عزام إلى الموضوع فتحدث عن حبه للناس ورغبته في خدمتهم وقال أكثر من حديث شريف عن ثواب من يسعى إلى قضاء حوائج المسلمين ، وكان الفولي يهز رأسه مؤمنا على كلامه حتى وصل عزام إلى النقطة الحاسمة فقال :

-.. ولذلــك فقــد استخرت الله وتوكلت عليه ونويت بأمر الله أن أرشح نفسي في الانتخابات القادمة عن دائرتي ، قصر النيل ، وأملي أن يوافق الحزب القومي على ترشيحي وأنا تحت أمرك يا كمال بك في أية حاجة ..

تظاهر الفولي بالتفكير العميق برغم أنه كان يتوقع ما قاله عزام وكان الفولي يترك في نفس من يراه انطباعا متضاربا: ذكاؤه وسرعة بديهته وحضوره الطاغي من ناحية، ومن ناحية أخرى جسده البدين وكرشه المتدلي ورابطة عنقه المفكوكة دائما قليلا وألوان ثيابه البذيئة غير المتناسقة وشعره المصبوغ بطريقة فجة ووجهه المكتنز الغليظ ونظراته الوقحة الشرسة الكاذبة وطريقته السوقية في الحديث حين يمد ذراعيه أمامه ويحرك أصابع يديه ويهز كتفيه وبطنه وهو يتكلم وكأنه امرأة سوقية ، كل ذلك يجعل منظره فكاهيا على نحو ما (وكأنــه يــؤدى فقــرة لتسلية المشاهدين) ويترك أيضا في النفس إحساسا مبتذلا كريها.. طلب الفولي من مساعديه ورقة وقلما ثم بدأ يرسم ومرت لحظات وهو منهمك في الرسم حتى ظن الحاج عزام أن في الأمر خطأ ما لكن الفولى لم يلبث أن انتهى من الرسم ثم أدار الورقة بيديه ناحية عزام الذي فوجئ بأن الرسم يمثل أرنبا كبيرا وظل صامتا فترة ثم سأل بود :

- لا أفهم ما تقصده سعادتك

فرد الفولي بسرعة :
أنت عاوز تضمن النجاح في الانتخابات وتسأل عن المطلوب وأنا رسمت لك المطلوب ..
- أرنب بحاله ؟! مليون جنيه يا كمال بك ؟! ..دا كثير جدا
كان عزام يتوقع المبلغ لكنه آثر المساومة لعل وعسى.. وقال الفولي :
- اسمع ياحاج !!..تصدق بالله ..؟!
فردد الحاضرون جميعا " لااله إلا الله "
- أنا بآخذ في دوائر أقل من قصر النيل مليون ونصف و٢ مليون وياسر ابني أهو قدامك يقولك .. لكن والله العظيم أنا أحبك يا حاج ونفسي تبقى معنا في المجلس .. ويعدين المبلغ دا لا آخذه وحدي .. أنا بوسطجي آخذ منك وأوصل لغيرك وأنت سيد العارفين ..
وتظاهر الحاج عزام بالقلق قليلا ثم سأل :
- يعني لو دفعت المبلغ يا كمال بك أضمن الانتخابات بأمر الله ؟!
- عيب ياحاج .. انت بتكلم كمال الفولي .. خبرة برلمانية ثلاثين سنة .. ولا مرشح فيك يا مصر يقدر ينجح من غير رغبتنا بأمر الله
- أنا سامع عن ناس جامدين ناويين يرشحوا أنفسهم

في قصر النيل

- ولايهمك .. لو اتفقنا على بركة الله تنجح في قصر النيل ولو نـزل ضدك الجن الأزرق .. دي لعبتي يا حاج

ثم ضحك الفولي وأرجع ظهره إلى الوراء ومسح بكفه على بطنه الكبير وقال مزهوا :

- الناس الساذجة فاهمين إننا بنزور الانتخابات .. أبدا .. كل الحكاية إننا دارسين نفسية الشعب المصري كويس .... المصريين ربنا خلقهم في ظل حكومة .. لايمكن لأي مصري يخالف حكومته .. فيه شعوب طبعها تثور وتتمرد إنما المصري طول عمره يطاطي لأجل يأكل عيش .. الكلام ده مكتوب في التاريخ ، الشعب المصري أسهل شعب ينحكم في الدنيا .. أول ما تأخذ السلطة المصريين يخضعوا لك ويتذللوا لك وتعمل فيهم على مزاجك .. وأي حزب في مصر لما يعمل انتخابات وهو في السلطة لازم يكسبها لأن المصري لازم يؤيد الحكومة .. ربنا خلقه كده..

تظاهر عزام بأنه محتار وغير مقتنع بكلام الفولي ثم سأله عن نظام الدفع فقال ببساطة :

- .. صل على النبي يا حاج .. إذا كان المبلغ نقدي أنا استلمه ولوكان بشيك تكتبه باسم ياسر الفولي المحامي

وتعمل معه عقد على أية قضية وكأنك موكله فيها .. انت فاهم طبعا دى إجراءات شكلية ..

صمت الحاج عزام لحظة ثم أخرج دفتر الشيكات وقال وهو يفتح قلمه الذهبي:

– طيب .. على بركة الله .. أكتب شيك بالنصف وبعد النجاح بإذن الله ادفع الباقي

– لايا حلو عيب .. كده تزعلني .. الكلام دا تعمله مع التلامذة .. النظام عندي سلم واستلم .. ادفع المبلغ كله وأنا أبارك لك على المجلس وأقرأ معك الفاتحة حالا ..

كانت هذه مساومة أخيرة من عزام ولما فشلت استسلم وكتب الشيك بمبلغ مليون جنيه و فحصه بدقة كعادته ومد يده به إلى الفولي الذي أخذه وناوله إلى ابنه ثم تهللت أساريره وقال بلهجة مرحة :

– مبارك يا حاج .. يالله نقرأ الفاتحة ربنا يكرمنا ويوفقنا والعقد جاهز مع ياسر..

وأغمض الأربعة ، الفولي وعزام وولداهما ، أعينهم وبسطوا أيديهم أمامهم في تضرع وجعلوا يرددون الفاتحة بصوت هامس ..

• • •

دفع الحاج عزام المبلغ إلى الفولى وتخيل أن الانتخابات قد حسمت لصالحه لكن ذلك لم يكن صحيحا ، فقد اشتعلت المنافسة في دائرة قصر النيل بين أكثر من رجل أعمال يريد كل منهم أن يفوز بمقعد العمال في مجلس الشعب ، وكان أقوى المنافسين للحاج عزام الحاج أبوحميده صاحب سلسلة محلات "الرضا والنور" الشهيرة للملابس وكما يتنافر القطبان المتماثلان في الطبيعة فان الكراهية الحادة بين الحاجين عزام وأبو حميده ترجع أساسا إلى تشابههما في نواح كثيرة ، فقد نشأ أبوحميده مثل عزام عاملا بسيطا في ميناء بور سعيد ثم تضخمت ثروته في أقل من عشرين عاما ليصبح من أكبر المليونيرات في مصر ، وقد سمع الناس عن أبوحميده لأول مرة من سنوات عندما افتتح سلسلة محلاته الكبرى في القاهرة والإسكندرية ثم غمر الصحف والتليفزيون بإعلانات يتعهد فيها بإعطاء أية سيدة عدة فساتين محتشمة جديدة وأحجبة ملونة للرأس ، إذا قررت هذه السيدة الالتزام بالحجاب الشرعي وقامت بتسليم ملابسها القديمة المتبرجة لادارة المحل تدليلا على جديتها ، واندهش الناس وقتها من هذه الدعوة الغريبة وازدادت دهشتهم عندما تسلمت محلات " الرضا والنور " فعلا الملابس القديمة من عشرات السيدات وسلمتهن بدلا منها ملابس إسلامية جديدة وغالية بدون مقابل ، ولم يمنع

الغرض النبيل للمشروع من انسـاس بعـض السـيدات المحجبات أصلا اللاتي أردن الاستفادة من الملابس المجانية فكن يتظـاهرن بـأنهن لـم يتحجبن بعد ويقدمن إلي المحل ملابس متبرجة لا تخصهن ليتسلمن ملابس جديدة بدلا منها وانتبهت محلات "الرضا والنور" إلى هذا التلاعـب فنشرت إعلانا في كل مكان تحذر فيه هؤلاء المتلاعبات مـن عقوبة القانون لأن العقد الذي توقعه السيدة التي تتحجب في المحل ينص على شرط جزاني يوقـع عليها إذا كـانت كاذبـة .. وبرغم هذه المخالفات فقد حقق المشروع نجاحا هائلا وساعد علـى تحجـب آلاف المسـلمات وظهـرت فـي الصحـف موضوعات تسجيلية (مدفوعة الأجر) عن المشروع صرح فيها الحاج أبوحميده بأنه قد نذر مبلغا كبيرا لينفقه في الخير ابتغاء لوجه الله سبحانه وتعـالى وأنـه بعد استشـارة العلمـاء وجد مـن أفضـل الطـرق التـي يخدم بهـا الدعـوة أن يسـاعد المسلمات على التحشم كخطوة أولـى نحـو الالـتزام الكامل بشرع اللـه الحنيف وعندمـا سئل كـم يكلفـه توزيـع آلاف الملابس المحتشمة الجديدة مجانا رفض أبو حميده أن يذكر مـا ينفقـه وأكد انـه يحتسـب هذا المبلـغ عند ربنـا سـبحانه وتعالى، ولاشك أن مشروع الحجاب قد قفـز باسـم أبوحميده إلى عالم الشهرة وجعله من نجوم المجتمـع فـي مصـر لكن الشائعات لم تلبث أن ترددت بقـوة بـأن أبوحميده مـن أكبر

تجـار الهـيروين وأن مشروعه الإسلامي واجهة لغسيل الأموال كما أن الرشاوى التي يدفعها لكبار المسئولين تمنع القبض عليه ، وقد بذل أبو حميده جهدا كبيرا لكي يفوز بترشيح الحزب القومي عن دائرة قصر النيل وعندما أعلن الحزب ترشيح الحاج عزام غضب أبو حميده بشدة وبذل مساعي ملحة عند الكبار ولكن عبثا فقد كانت كلمة الفولي هي العليا بل إن مسئولا كبيرا تربطه صداقة حميمة بأبو حميده استمع إلى شكواه من الفولي ثم ابتسم وقال :

- اسمع يا أبوحميده .. انت عارف أني أحبك وأخاف على مصلحتك ..إياك أن تصعد خلافك مع الفولي . إذا لم تدخل مجلس الشعب هذه المرة فأمامك مرات قادمة بإذن الله ولكن لا تخسر الفولي أبدا لأنه مسنود وواصل فوق ما تتصور ونابه أزرق ولو غضب يعمل لك مشاكل لا تتخيلها .."

لكن أبو حميده لم يتراجع بل تقدم رسميا كمستقل وأغرق دائرة قصر النيل بمئات الملصقات الانتخابية التي تحمل صورته واسمه ورمزه الانتخابي(الكرسي) وأخذ يقيم كل ليلة سرادقات انتخابية كبيرة في وسط البلد حيث يحشد أنصاره ويخطب فيهم مهاجما الحاج عزام وملمحا إلى ثروته الحرام وتكالبه على الشهوات (في إشارة لزواجه الجديد) وقد غضب عزام من هذا التعريض وذهب إلى

الفولي وقال لـه بعبارة صريحة :

" ما فائدة ترشيح الحزب إن لم يمنع شتيمتى على الملأ كل ليلة ..؟!" وهز الفولي رأسه ووعد خيرا ثم أدلى بتصريح في اليوم التالي أبرزتـه كل الجرائد في صفحاتها الأولى قال فيه : " إن الحزب القومي له مرشح واحد في كل دائرة والواجب الحزبي يفرض على أعضاء الحزب جميعا الوقوف بكل قوتهم خلف مرشحي الحزب .. كما أن اى عضو يرشح نفسه ضد مرشح الحزب سوف يحاكم حزبيا ويفصل بعد انقضاء الانتخابات " ..

وكان التصريح ينطبق بوضوح على أبوحميده الذي لم يؤثر فيه التهديد فاستمر في حملته العنيفة ضد عزام وصارت السرادقات تقام يوميا وتوزع مئات الهدايا على سكان الدائرة وتنافس الطرفان في حشد الأتباع والمؤيدين بكل طريقة ونشبت مشاجرات يومية عنيفة أسفرت عن إصابات كثيرة ، ونظرا للنفوذ الكبير الذي يتمتع به الغريمان فقد وقفت أجهزة الأمن دائما على الحياد فكانت قوات الشرطة تصل غالبا إلى مكان المشاجرة بعد انفضاضها أو تقبض بشكل رمزي على بعض المتشاجرين الذين ما أن يصلوا إلى القسم حتى يفرج عنهم بغير تحقيق..

لسبب ما ، ارتبطت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بالأناقة والرفاهة ، وصار طلابها إذا سئلوا عن كليتهم يقولون بثقة : " اقتصاد وعلوم سياسية " .. ينطقونها بزهو وعدم اكتراث (وكأنهم يقولون .. نعم . نحن على القمة كما ترى) ولا يعرف أحد سر الهالة التي أحاطت بهذه الكلية ، ربما لأنها أنشئت وحدها بعد بقية الكليات بسنوات طويلة مما أعطاها طابعا خاصا ، أو لأن الحكومة أقامتها خصيصا - كما يقال - حتى تلتحق بها ابنة الزعيم جمال عبد الناصر، أو لأن العلوم السياسية تجعل من دارسيها على علاقة وطيدة يومية بأحداث العالم مما ينطبع على طريقتهم في التفكير والتصرف وأخيرا ، ربما ، لأن هذه الكلية ظلت لفترة طويلة البوابة الملكية للعمل في وزارة الخارجية وكان أولاد الكبراء يلتحقون بها كخطوة أولى مؤكدة نحو العمل الدبلوماسي ..على أن طه الشاذلي وهو يلصق كوبون كلية الاقتصاد ، كرغبة أولى في أوراق التنسيق ، لم يدر بذهنه شيء من هذا ، كان أمله في الشرطة قد ضاع للأبد و أحب أن يستثمر تفوقه بأقصى ما يمكن .. هذا كل ما في الأمر ..وفى اليوم الأول للدراسة عندما مر تحت ساعة الجامعة وانتابه ذلك الشعور بالرهبة والجلال وهو يستمع إلى دقاتها الشهيرة ثم دخل إلى المدرج واحتواه ذلك الطنين المدوي المنبعث من ثرثرة مئات الطلاب واختلاط ضحكاتهم وقد

شرعوا في التعارف وتبادل الأحاديث المرحة ، عندئذ أحس طه بأنه ضئيل للغاية وسط هذا الحشد الهائل الأشبه بحيوان خرافي له ألف رأس تنظر عيونها جميعا إليه وتتفحصه ، وقد وجد نفسه يصعد ليجلس بعيدا في أعلى المدرج ، وكأنه يختبئ في مكان آمن بحيث يرى الحاضرين ولا يرونه ، كان يرتدي بنطلون جينز أزرق وفانلة تي شيرت بيضاء ، وظل يعتقد حتى نزوله من البيت أن مظهره أنيق لكنه بعدما رأى زملاءه الطلبة تأكد له أن ملابسه ليست على ما يرام إطلاقا وأن البنطلون بالذات مجرد تقليد رديء وبائس للبنطلونات الجينز الأصلية وعزم على إقناع أبيه بشراء ولو طقم واحد من المهندسين أو الزمالك بدلا من محلات " الرضا والنور " التي يشترى منها ملابسه الرخيصة ، وقرر طه في نفسه ألا يتعرف إلى أحد لأن التعارف معناه تبادل المعلومات الشخصية ، وقد يكون واقفا وسط مجموعة من زملائه (ومعهم بنات مثلا) ثم يسأله أحدهم عن مهنة أبيه ، ماذا يقول عندئذ ؟ ..ثم سيطر عليه هاجس غريب بأن يكون أحد هؤلاء الطلاب الجالسين في المدرج ابنا لأحد السكان في عمارة يعقوبيان وقد يكون طه قد اشترى له مرة علبة سجائر أو غسل سيارته وراح يتخيل ابن الساكن المجهول عندما يجد ابن البواب زميلا له في نفس الكلية ، ماذا يحدث حينئذ ؟ .. أخذ يفكر على هذا

النحو ومضت المحاضرات واحدة تلو الأخرى حتى ارتفع أذان الظهر وقام بعض الطلاب إلى الصلاة فتبعهم طه إلى مسجد الكلية ولاحظ - بارتياح - أنهم فقراء مثله ويبدو على معظمهم الأصل الريفي ، وقد شجعه ذلك بعد انقضاء الصلاة على أن يسأل أحدهم :

- " انت في سنة أولى ؟.."

فأجابه مبتسما بود :

- إن شاء الله .."

- اسمك ايه ؟..

- خالد عبد الرحيم .. من اسيوط .. وانت ؟

- .. طه الشاذلي ..من مصر هنا ..

كان هذا أول تعارف لطه والحق أنه منذ اللحظة الأولى ، وكما ينفصل الزيت فورا عن الماء مشكلا طبقة منعزلة فوقه ، انعزل الطلاب الأغنياء عن الفقراء وتكونت شلل متعددة ومغلقة من خريجي مدارس اللغات وأصحاب السيارات الخاصة والملابس المستوردة والسجائر الأجنبية وقد انجذب لهؤلاء أجمل البنات وأكثرهن أناقة ، أما الطلاب الفقراء فأخذوا يتلاصقون كالفئران المذعورة ويتهامسون على استحياء وفى أقل من شهر كان طه قد صاحب مجموعة المسجد كلها وظل أقربهم لقلبه خالد عبد الرحيم : بقامته القصيرة وجسده النحيل الجاف كعود القصب وسمرته

الغامقة ونظارته الطبية الرخيصة ذات الإطار الأسود التي تضفي على وجهه طابعا جادا رصينا فيبدو بملابسه الكلاسيكية المتواضعة أشبه بمدرس إلزامي حديث التخرج ، أحبه طه جدا ربما لأنه فقير مثله أو هو في الحقيقة أفقر منه (تشهد بذلك جواربه المرتقة التي تتكشف دائما أثناء الصلاة) وأحبه أيضا لأنه عميق التدين وعندما يصلي كان يقف ، مستحضرا الله بمعنى الكلمة ، يضع يديه معقودتين ناحية القلب ويحنى رأسه في خشوع كامل حتى يهيأ لمن يراه عندئذ أنه لوشب حريق أو أطلق الرصاص بجواره لما صرفه ذلك عن صلاته لحظة واحدة ، وكم تمنى طه لو أنه يصل إلى مثل ايمان خالد وحبه للإسلام ، وقد توطدت الصداقة بينهما فتصارحا وتبادلا الأسرار واستنكرا معا مايرانه كل يوم من طيش بعض الزملاء المترفين وانصرافهم عن الدين الصحيح وتبرج بعض الزميلات اللاتي يجئن إلى الجامعة وكأنهن ذاهبات إلى حفلة رقص ، ولقد عرف خالد صديقه طه إلى أصدقاء من المدينة الجامعية : ريفيين وطيبين ومتدينين وفقراء جميعا ، وصار طه يزورهم مساء كل خميس ، يصلي معهم العشاء ويسهر معهم يتسامرون ويتناقشون والحق أنه أفاد كثيرا من هذه المناقشات ففهم لأول مرة أن المجتمع في مصر مجتمع جاهلية لا مجتمع إسلام لأن الحاكم يعطل شرع الله

وحرمات الله تنتهك على الملأ وقانون الدولة يسمح بالخمر والزنا والربا وعرف أيضا معنى الشيوعية التي هي ضد الدين والجرائم الرهيبة التي ارتكبها نظام عبد الناصر في حق الإخوان المسلمين ، وقرأ معهم كتبا لأبي الأعلى المودودى وسيد قطب ويوسف القرضاوى وأبى حامد الغزالي .. وبعد عدة أسابيع جاء ذلك اليوم ، عقب سهرة ممتعة مع أصدقاء المدينة قاموا يودعونه كالعادة وعند الباب سأله خالد عبد الرحيم فجأة :

– أين تصلي الجمعة ياطه ؟! ..

– في مسجد صغير قريب من البيت

.. وتبادل خالد نظرة مع الاخوة ثم قال بمرح :

– اسمع ياطه لقد قررت أن أكسب ثوابا فيك .. غدا انتظرني الساعة العاشرة في ميدان التحرير أمام قهوة على بابا .. سوف نصلى معا في مسجد أنس بن مالك وأعرفك إلى فضيلة الشيخ شاكر بإذن الله ..

• • •

قبل أذان الجمعة بساعتين كاملتين ، امتلأ مسجد أنس بن مالك عن آخره بالمصلين ، كانوا جميعا من الطلبة الإسلاميين بعضهم يرتدى الملابس الإفرنجية ومعظمهم بالزي الباكستاني : الجلباب أبيض أو أزرق يصل إلى أسفل

الركبة وتحته بنطلون من نفس اللون وعلى الرأس عمامة بيضاء يتدلى طرفها عند مؤخرة الرقبة ، هؤلاء جميعا من محبي الشيخ محمد شاكر وأتباعه وهم يبكرون إلى المسجد يوم الجمعة ليحجزوا أماكنهم قبل الزحام ويقضون الوقت في التعارف وقراءة القرآن والمناقشات الدينية ، أخذوا يتزايدون حتى ضاق بهم المكان وأخرج المسئولون عن الجامع عشرات الأبسطة وفرشوها في الساحة المواجهة للجامع فامتلأت عن آخرها بالمصلين حتى تعطل المرور تماما ، حتى المقصورة العلوية للمسجد المخصصة للطالبات برغم كونها محجوبة عن النظر إلا أن الطنين القوى الصادر منها دل على أنها مزدحمة عن آخرها، انفتح ميكروفون الجامع فاصدر صريرا عاليا ثم صفا الصوت وبدأ أحد الطلاب يرتل القرآن بصوت رخيم خاشع والطلاب ينصتون إليه بكل جوارحهم ، كان الجو أسطوريا وصادقا ونقيا والمشهد البدائي الخشن المتقشف بعيد إلى الذهن أيام الإسلام الأولى وفجأة علا التهليل والتكبير وتزاحم الطلاب واقفين ليصافحوا الشيخ شاكر الذي وصل أخيرا ، كان في نحو الخمسين ، ربعة وله لحية خفيفة مخضبة بالحناء ووجه لا يخلو من وسامة وعينان عسليتان واسعتان مؤثرتان ، وهو يرتدى زيا إسلاميا مثل الطلبة يعلوه إزار أسود .. كان يعرف معظم الطلاب المحتشدين

حولـه و أخـذ يصـافحهم ويعانقهم ويسألهم عن أحوالهم واستغرق وقتا طويلا حتى صعد إلى المنبر وأخرج من جيبه سواكا تسوك به ثم بسمل فتصاعد التكبير عاليا يرج جنبات المسجد وأشار الشيخ بيده فساد فورا سكون كامل ، وبدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه ثم قال :

".. أبنائي وبناتي الأحباء ..

أتمنى أن يوجه كل واحد منكم إلى نفسه هذا السؤال: كم عاما يعيشها الإنسان في هذه الدنيا ؟!.. الإجابة: إن متوسط حياة الإنسان على أحسن الفروض لا يزيد عن ٧٠ عاما .. وهذه فترة لو تأملناها لوجدناها قصيرة للغاية .. كما أن المرء قد يصيبه في أية لحظة مرض أو حادث فيموت ، ولو أنك بحثت في معارفك وأصدقائك لوجدت أكثر من شخص مات فجأة في سن الشباب ، وكل الذين ماتوا في شبابهم لم يدر بأذهانهم أبدا أنهم سيموتون .. ولو تابعنا التفكير في هذا الأمر لوجدنا الإنسان في هذه الدنيا لديه اختياران اثنان لاثالث لهما : .. إما أن يركز مجهوده كله في حياته الدنيا القصيرة الفانية التي قد تنتهي في أية لحظة على غير توقع فيكون مثله مثل رجل أراد أن يشيد لنفسه بيتا أنيقا فاخرا ، فصنعه من الرمال على شاطئ البحر وبالتالي يكون البيت معرضا في أية لحظة لأن تأتي موجة قوية من البحر وتهدمه بسهولة ، هذا هو الاختيار الفاشل ،

أما الاختيار الثاني الذي يدعونا إليه ربنا سبحانه وتعالى فيقضي بأن يعيش المسلم هذه الدنيا باعتبارها مرحلة قصيرة وعابرة في حياة الروح الخالدة ، والذي يعيش حياته بهذا المعنى يكسب الدنيا والآخرة معا ويظل دائما سعيدا مرتاح البال والضمير ، شجاعا لا يخشى إلا ربنا سبحانه وتعالى .. فالمؤمن الحق لا يفزعه الموت لأنه لا يعتبره نهاية الوجود كما يعتقد الماديون وانما الموت للمؤمن مجرد انتقال الروح من الجسد الفاني إلى الحياة الأبدية ، هذا الإيمان الصادق هو ما جعل بضع مئات من المسلمين الأوائل ينتصرون على جيوش الإمبراطوريات الكبرى في ذلك الوقت مثل الفرس والروم ، لقد نجح هؤلاء المسلمون البسطاء في رفع راية الإسلام في كل أنحاء الدنيا بفضل قوة إيمانهم وحبهم الصادق للموت في سبيل الله واحتقارهم العميق لملذات الدنيا الزائلة .. لقد فرض الله علينا الجهاد في سبيل إعلاء كلمته . إن الجهاد فريضة إسلامية مثله مثل الصلاة والصيام بل إن الجهاد أهم الفرائض جميعا لكن الحكام الفاسدين المتهافتين على المال واللذات الذين حكموا العالم الإسلامي في أزمنة الانحطاط تعمدوا ، بمساعدة فقهائهم المنافقين ، أن يستبعدوا الجهاد من فرائض الإسلام لأنهم أدركوا أن تمسك الناس بالجهاد سوف ينقلب عليهم في النهاية ويفقدهم عروشهم ، وهكذا تم - بإلغاء الجهاد -

تفريغ الإسلام من معناه الحقيقي وتحول ديننا العظيم إلى مجموعة طقوس فارغة من المعنى يؤديها المسلم كالألعاب الرياضية ، مجرد حركات بدنية بلا روح .. وعندما ترك المسلمون الجهاد صاروا عبيدا للدنيا حريصين عليها هيابين للموت جبناء فغلبهم أعداؤهم وأذلوهم وكتب الله عليهم الهزيمة والتخلف والفقر لأنهم نقضوا عهدهم معه سبحانه وتعالى ..

.. أبنائي وبناتي الأحباء ..

إن حكامنا يزعمون أنهم يطبقون شريعة الإسلام ويؤكدون في الوقت نفسه أنهم يحكموننا بالديمقراطية .. ويعلم الله أنهم كاذبين في هذا وفي ذاك .... فالشريعة الإسلامية معطلة في بلادنا المنكوبة ونحن محكومون بالقانون الفرنسي العلماني الذي يبيح السكر والزنا والشذوذ مادام يتم برضا الطرفين بل إن الدولة نفسها تتكسب من القمار وبيع الخمور ثم تضخ مالها الحرام على هيئة مرتبات للمسلمين فتصيبهم لعنة الحرام وينزع الله البركة عن حياتهم، والدولة الديمقراطية المزعومة تقوم بتزوير الانتخابات واعتقال الأبرياء وتعذيبهم لتستمر الزمرة الحاكمة في سدة العرش إلي الأبد .. انهم يكذبون ويكذبون ويكذبون ويريدوننا أن نصدق أكاذيبهم الممجوجة .. وها نحن نقولها لهم عالية مدوية .. لا نريد أمتنا اشتراكية ولا

ديمقراطيـــــة .. نريدهـــا إسلامية إسلامية.. وسوف نجاهد ونبذل النفس والنفيس حتى تعود مصر إسلامية .. الإسلام والديمقراطية نقيضـان لا يجتمعـان أبـدا .. كيـف يجتمـع المـاء مـع النـار أو النـور مـع الظـلام ؟! .. إن الديمقراطية تعني أن يحكم الناس أنفسهم بأنفسهم ، والإسلام لا يعرف الاحكم الله ، يريدون أن يعرضوا شرع اللـه علـى مجلس الشعب ليقرر السادة النواب إن كان شرع الله صالحا للتطبيق أم أنه لا يصلح .." كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .." ..إن شريعة الحق جل وعلا لاتنـاقش ولا ينظر فيها بل تطاع وتنفذ فورا بالقوة ولو كره الكارهون ..تعالوا يا أبنائي نستحضر الله جميعـا في قلوبنـا ، ونحن في اجتماعنا المبارك هذا ، نعاهده عز وجل على أن نخلص له الدين ،أن نجاهد في سبيله بكل ذرة من كياننـا ، أن نبذل أرواحنا رخيصة حتى تكون كلمة الله هي العليا.."

تعـالت الهتافات و التكبيرات ترج أركـان المكـان وتوقف الشيخ عن الحديث وأطرق قليلا حتى عاد السكون ثم قال :

أيها الأبناء...

إن مهمة الشباب الإسلامي اليوم أن يستعيد مفهوم الجهاد ويعيده إلى أذهان المسلمين وقلوبهـم ، وهـذا بـالتحديد ما يرعب أمريكا وإسرائيل ومعهمـا حكامنـا الخونـة ، انهم

يرتعدون خوفا من الصحـوة الإسـلامية الكـبرى التـي تتصاعد كل يوم في بلادنا وتشتد شوكتها ، إن مجاهدين قلائل من حزب اللـه وحركة حماس استطاعوا أن يهزموا أمريكا الجبارة وإسرائيل التي لا تقهر بينما اندحرت جيوش عبد الناصر الجرارة لأنها حاربت بالدنيا ونسيت الدين ..

ثم بلغ حماس الشيخ مداه فهتف : " الجهاد الجهاد الجهاد .. يا أحفاد أبى بكر وعمر وخالد وسعد .. أمـل الإسلام معقود اليوم عليكم كما عقد يوما على أجدادكـم العظام ..فجاهدوا في سبيل الله وطلقوا هذه الدنيا ثلاثا كما طلقها الإمام على بن أبي طـالب رضى الله عنه ، إن اللـه ينظر إليكم لتنفذوا عهده معكم ، فاثبتوا ولا تنكصوا فتكونـوا من الخاسرين ..إن ملاييـن المسلمين الذين يذلهم الاحتلال الصهيوني ويستبيح أعراضهم يهيبون بكم أن تعيدوا إليهم كرامتهم المهدرة .. يا شباب الإسلام إن الصهاينـة يسكرون ويزنون بالبغايا في صحن مسجدكم الأقصى .. فماذا أنتم فاعلون ؟! .."

اشتد انفعال الطلاب ونهض أحدهم مـن الصـف الأمامي واستدار ناحية الحشد وهتف بصوت متقطع من فرط الحماس " .. إسلامية إسلامية ..لاشرقية ولاغربيـة .." ورددت الهتاف وراءه مئات الحناجر ثم أخذ الطلاب جميعا ينشدون نشيد الجهاد بصوت واحـد قـوى هـادر كـالرعد

ولعلعت عشرات الزغاريد من مقصورة الطالبات وعلا صوت الشيخ شاكر وقد بلغ حماسه المدى : " .. والله اني أرى هذا المكان طاهرا مباركا تحف به الملائكة ، والله اني أرى معكم دولة الإسلام وقد بعثت قوية شامخة وأرى أعداء الأمة وهم يرتعدون فرقا من قوة إيمانكم ولسوف يلقى حكامنا الخونة الامعات ، خدام الغرب الصليبي ، نهايتهم العادلة على أيديكم الطاهرة المتوضئة بإذن الله .."

ثم أقام الصلاة واحتشد وراءه مئات الطلاب فقرأ عليهم بصوت عذب مؤثر من سورة آل عمران : بسم الله الرحمن الرحيم ..

الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم..

"صدق الله العظيم"

• • •

عقب الصلاة اندفع الطلاب لمصافحة الشيخ ثم افترشوا صحن المسجد في مجموعات رباعية يتعارفون ويرتلون القرآن ويتدارسونه ، ومن خلف المنبر دلف الشيخ شاكر عبر باب صغير واطئ إلى مكتبه الممتلئ على آخره بطلاب يريدون مقابلته لأسباب مختلفة ، اندفع الموجودون ناحيته وعانقوه وهم بعضهم بتقبيل يده لكنه سحبها في حسم وجلس يستمع باهتمام إلى مسألة كل طالب ويدور بينهما حديث هامس ينصرف إثره الطالب .. وفى النهاية لم يتبق في الحجرة سوى بضعة طلاب ومعهم خالد عبد الرحيم وطه الشاذلي .. كان هؤلاء المقربين إلى الشيخ الذي أشار إلى أحدهم فنهض وأغلق باب المكتب بالمزلاج .. وبدا الحديث طالب ضخم الهيئة طويل اللحية فقال للشيخ بصوت عال متحمس :

- يا مولانا ليس هذا تحرشا بالأمن .. هم الذين اعتدوا علينا ، لقد قبضوا على زملائنا من بيوتهم واعتقلوهم بدون ذنب .. كل ما أدعو إليه احتجاج من أى نوع .. اعتصام أو مظاهرة من أجل الإفراج عن إخواننا المعتقلين .

وهمس خالد لطه مشيرا إلى الطالب الضخم :
"الأخ طاهر .. أمير الجماعة في جامعة القاهرة كلها .. طالب في نهائي طب .."

استمع الشيخ إلى الشابِ ثم تفكر قليلا وقال بهدوء والابتسامة لا تفارقه :

– ليس من الخير استفزاز الأمن علينا في هذه الفترة ، لقد تورط النظام في التحالف مع الأمريكان والصهاينة بدعوى تحرير الكويت .. وبعد أيام قليلة سوف تبدأ حرب ظالمة كافرة يقتل فيها المسلمون المصريون اخوتهم العراقيين بقيادة أمريكا وعندئذ سوف ينقلب الناس على الحكومة في مصر ولسوف تقودهم الحركة الإسلامية بإذن الله .. أظنك فهمتَ الآن يا ولدى .. إن مباحث أمن الدولة تتحرش بنا حتى نرد عليهم فنعطيهم ذريعة لتوجيه ضربة شاملة للإسلاميين . ألم تلاحظ في خطبة اليوم أنني اكتفيت بحديث عام ولم أذكر الحرب المنتظرة صراحة؟!.. ولو أنني هاجمت انضمام مصر إلى التحالف لأغلقوا المسجد غدا ، وأنا أحتاج إلى المسجد حتى أحشد الشباب عندما تبدأ الحرب .. لاياولدى .. ليس من الحكمة تمكينهم منا الآن . دعهم حتى يقتلوا اخوتنا المسلمين في العراق بقيادة الكفرة والصهاينة وسوف ترى بنفسك ما سوف نفعله يومئذ بإذن الله .

- ومن قال لك أنهم سيتركوننا حتى تبدأ الحرب ؟ .. من أين لك هذه الثقة ؟!.. اليوم اعتقلوا عشرين من قيادات الحركة الإسلامية وغدا يعتقلون الباقين إذا لم نقاومهم..

هكذا رد الشاب بحدة وساد السكون وتوتر الجو ووجه الشيخ نظرة لائمة للشاب وقال بنفس الهدوء :

- أدعو الله أن تتخلص يوما من حدة طبعك هذه يا ولدى .. فالمؤمن القوى من يملك نفسه عند الغضب كما علمنا الحبيب المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ..أعرف أن حبك لإخوانك وغيرتك على دينك يدفعانك إلى هذا الغضب وأطمئنك يا ولدى وأقسم لك بالعلي القدير أننا سوف نضرب هذا النظام الكافر في مقتل ولكن في الوقت المناسب بإذن الله .

وسكت الشيخ للحظة ثم نظر مليا إلى الشاب وأضاف بنبرة نهائية :

- .. هذه كلمتي الأخيرة : .. سوف أبذل مسعاي بإذن الله للإفراج عن المعتقلين ولنا والحمد لله أصدقاء في كل مكان .. أما الاعتصام والتظاهر فأنا لا أوافق عليه في هذه المرحلة .

أطرق الشاب وبان أنه سكت على مضض ولم يلبث أن استأذن في الانصراف وصافح الحاضرين ولما وصل

إلي الشيخ انحنى عليه وقبل رأسه مرتين ، كأنما ليمحو أثر المشادة ، ورد الشيخ بابتسامة حانية وربت على كتفه بود ثم انصرف الطلاب واحدا تلو الآخر ولم يبق سوى طه وخالد عبد الرحيم الذي اقترب من الشيخ وقال :

– يا مولانا .. ها هو الأخ طه الشاذلي زميلي في كلية الاقتصاد الذي حدثتك عنه .. واقبل الشيخ مرحبا بطه وقال :

– أهلا أهلا .. كيف حالك يا ولدى . لقد سمعت عنك كثيرا من صاحبك خالد ..

• • •

اشتد وطيس المعركة في قسم البوليس ..

اتهم حامد حواس ملاك خله في المحضر الرسمي باغتصاب حيازة الحجرة وطالب بإحالته للمحاكمة ومن ناحيته ، أرفق ملاك بالمحضر صورة من عقد إيجار الحجرة و أصر على تحرير محضر آخر اتهم فيه حامد حواس وعلى السواق بالاعتداء عليه بالضرب وطلب إثبات إصاباته فارسلوه مع أمين شرطة إلي مستشفى أحمد ماهر وعاد بتقرير طبي تم إرفاقه بالمحضر ، وقد أنكر على السواق تماما أنه اعتدى على ملاك واتهمه بافتعال إصابته

.. هذا عن السجال القانوني أما الحرب المعنوية فقد خاضوها جميعا ، كل بطريقته ، فلم ينقطع حامد حواس لحظة واحدة عن تقديم الأدلة القانونية على المنفعة العامة لسكان السطح مستشهدا في ذلك بأحكام النقض .. بينما ارتفع عويل أبسخرون واخذ يتوسل إلى الضابط وقد كشف جلبابه - كعادته في الملمات - عن ساقه المقطوعة وجعل يصيح :

- الرحمة يا سعادة الباشا ..الرحمة ..عاوزين ناكل عيش يقوموا يطردونا ويضربونا ..

.. أما ملاك فكان أداؤه في أقسام البوليس فريدا من نوعه وقد أدرك من فترة طويلة أن ضباط البوليس يقيمون أى مواطن بناء على ثلاثة عوامل : مظهره ومهنته وطريقة كلامه .. ووفقا لهذا التقييم يتم احترام المواطن في القسم أو يهان ويضرب .. ولما كانت بدلة ملاك الشعبية المتواضعة لايمكن أن تترك أى انطباع خاص لدى الضباط كما أن مهنته كترزي قمصان لاتكفل له الاحترام الكافي ، لم يبق إلا طريقته في الكلام .. من هنا تعود ملاك ، إذا دخل قسم الشرطة لأي سبب ، أن يتخذ فورا هيئة رجل الأعمال المشغول بمهام عاجلة وخطيرة ، المنزعج للغاية من تعطيله بهذه الطريقة ، ويتحدث الى الضباط بلغة أقرب الفصحى تجعلهم يترددون في الاستهانة به . فكان يقول أى كلام ثم

يصيح مؤكدا في وجه الضابط :

- .. سيادتك تعلم ذلك وأنا أعلم ذلك .. والبك المامور يعلم ذلك .. والسيد مدير الأمن أيضا يعلم ذلك ..

وكان استعمال اللغة الفصحى مع ذكر مدير الأمن (وكأنه شخصية قريبة وارد الاتصال بها) أسلوبا فعالا يجعل الضباط يتراجعون على مضض عن إهانة ملاك.. وهاهم ، أبسخرون وملاك وحامد حواس واقفون أمام الضابط لا ينقطعون عن الصياح ومن ورائهم وقف على السواق السكير، كعازف كونترباس مخضرم ، يعرف دوره في العزف فيردد باستمرار بصوته الأجش العميق نفس الجملة على التوالي :

- يا سعادة الباشا السطح فيه حريم وعائلات ولايمكن نقبل فيه صنايعية يجرحوا حرماتنا.. يا سعادة الباشا .

وقد شعر الضابط بحنق بالغ عليهم ولولا خوفه من العواقب لكان قد أمر المخبرين بتعليقهم على الفلكة وضربهم جميعا .. لكنه في النهاية أشر على المحضر بالعرض على النيابة وبات المتنازعون داخل غرفة الحجز حتى اليوم التالي حين أصدر وكيل النيابة قراره بتمكين ملاك من الحجرة " وعلى المتضرر اللجوء إلى القضاء .."

وهكذا عاد ملاك منتصرا إلى السطح ثم توسط

أولاد الحلال وصالحوه على غريميه على السواق وحامد حواس (الذي تظاهر بالصلح ولم ينتطع عن تحرير الشكاوى ضد ملاك ومتابعتها بعناية) .. لكن قرار النيابة كان نقطة الانطلاق لملاك الذي قام في أسبوع واحد بتغيير ملامح الحجرة تماما : أغلق الباب المفضي إلى السطح وفتح بابا كبيرا على الردهة الداخلية حيث علق لافتة كبيرة من البلاستيك وكتب عليها بحروف عربية ولاتينية " قميص ملاك " وبالداخل وضعت منضدة تفصيل كبيرة وبضعة مقاعد لانتظار الزبائن وعلقت على الحائط صورة للعذراء مريم وصورة أخرى لمقال بالإنجليزية من جريدة "النيويورك تايمز" الأمريكية تحت عنوان : "ملاك خله .. ترزي مصري عظيم.." يتحدث فيه الصحفي الأمريكي على مساحة صفحة كاملة عن مهارة الأسطى ملاك في تفصيل القمصان وتتوسط الصفحة صورة كبيرة لملاك والمازورة حول رقبته وهو منهمك تماما في قص قطعة قماش وكأنه لا يشعر بأن أحدا يصوره .. ولمن يسأله عن هذا المقال ، يحكي ملاك أن رجلا أجنبيا (يتضح فيما بعد أنه مراسل النيويورك تايمز في القاهرة) جاءه ذات يوم بغرض تفصيل بعض القمصان وفوجئ به ملاك يأتي في اليوم التالي ومعه مصورون أجانب وعملوا عنه هذا الموضوع من فرط الإعجاب ببراعته في التفصيل .. يحكي ملاك هذه الواقعة

بطريقة عادية ثم يختلس النظر إلي مستمعيه فإذا وجدهم متململين متشككين انتقل حينئذ إلي الحديث في موضوع آخر (وكأن شيئا لم يكن) أما إذا بان التصديق عليهم فان ملاك يستطرد مؤكدا أن الخواجه ألح عليه بشدة حتى يسافر معه إلي أمريكا ليعمل هناك كترزي قمصان بأي مرتب يحدده لكنه ، طبعا ، رفض العرض لأنه يكره الغربة .. ثم ينهي ملاك مقطوعته قائلا بزهو وثقة :

- معلوم ..بلاد بره كلها تتنشق على صنايعى قمصان شاطر ..

ووجه الحقيقة في هذه الواقعة أن بسيونى المصور في ميدان العتبة بمقدوره أن يلفق لأي شخص موضوعا صحفيا يتحدث عن مهارته في أية جريدة حسب الطلب : الجريدة العربية بعشرة جنيهات والأجنبية بعشرين ، والأمر لا يكلف بسيونى إلا اسم الجريدة وصورة الزبون ثم موضوعات جاهزة عنده يتحدث فيها المحرر عن مفاجأة كبرى اكتشفها في شوارع القاهرة ألا وهى ورشة الترزي العبقري فلان أو محل الحاتي الكبير فلان ، يضع بسيونى كل هذه الأشياء بطريقة معينة في ماكينة تصوير الورق فتخرج الصورة وكأنها مأخوذة فعلا عن الجريدة ..

ولكن .. ماذا يصنع ملاك خله في محله الجديد..؟..

انه طبعا يفصل قمصان لكن التفصيل لا يستنفد إلا

جـزءا قليـلا مــن نشــاطه اليومي ، لأنه باختصار يعمل في كل ما يدر مالا : بدءا من تجارة العملة والخمور المهربة حتى سمسرة العقارات والأراضي والشقق المفروشة إلي تزويج الشيوخ العرب بفلاحات صغيرات يجلبن عن طريق وسطاء من قرى معينة في الجيزة والفيوم ..إلى تسفير العمال إلى الخليج مقابل شهرين من الراتب ..

وقد جعله هذا النشاط المفتوح حريصا على جمع المعلومات عن الناس ومعرفة أدق أسرارهم لأن أى شخص مرشح في أية لحظة للتعامل معه ، وقد تساعده معلومة صغيرة في لحظة معينة فيكون تأثيرها حاسما على المتعامل معه ويبرم الصفقة كما يريد وكل يوم من الضحى وحتى العاشرة مساء ، يتوافد على محل ملاك كل أنواع البشر : زبائن فقراء وأثرياء وشيوخ عرب وسماسرة وشغالات وفتيات للشقق المفروشة وتجار صغار وقومسيونجية ..ووسط هؤلاء جميعا ، يروح ملاك ويجيء ويتحدث ويصيح ويضحك ويداعب ويغضب ويتشاجر ويحلف كاذبا مائة مرة ويعقد الصفقات ، وكأنه ممثل عتيد متألق يؤدى باستمتاع دوره على المسرح في رواية تدرب عليها طويلا حتى أتقنها ..

• • •

كـان مـلاك يـرى بثينة السيد كل يوم مرتين ، في ذهابها وعودتها من العمل ، وقد أثارت انتباهـه من أول مرة لأنها جميلة وجسدها مثير كما أن شعورا آخر مستعصيا على الوصف تقريبا ، كان يؤكد لـه أن التعبير الجاد الذي ترسمه على وجهها هش وكاذب وأنها ليست بالاستقامة التي تحاول أن تبدو بها ، وقد جمع عنها معلومات فعرف كل شيء ، وبدأ يحييها ويسألها عن صحة الحاجة والدتها وان كان محل شنن للملابس الذي تعمل فيه يحتاج الى رسالة قمصان بسعر ممتاز (وعمولتها محفوظة طبعا) وشيئا فشيئا أخذ يتحدث معها في موضوعات متنوعة : الطقس والجيران والزواج .. والحق أن بثينة لم ترتح أبدا إلى ملاك ولم تستطع أيضا أن تصده لأنها تمر أمامه كل يوم ولأنه جارهم ولأنه يتحدث إليها بأدب مما يقطع عليها فرصة مهاجمته كما أنها استسلمت للحديث معه ، أساسا ، لأن شيئا كاشفا نافذا في سلوكه معها يجعلها تذعن..كان يحدثها في أي موضوع بينما نبرة صوته ونظراته تصل إليها وكأنه يقول :

" لاتتظاهري بالاستقامة فقد عرفت كل شيء .."

..هذه الرسالة غير المنطوقة ظلت تتضح وتقوى حتى تساءلت في نفسها إن كان طلال قد أفشى سر علاقتهما .. وأخذ ملاك يقترب منها حتى جاء يوم سدد فيه ، فجأة ، نظرة متفحصة بطيئة إلي صدرها المكتنز وجسدها البض ثم

سألها بوقاحة :

- "طلال شنن بيدفع لك كم في الشهر؟! ..".

وشعرت بغيظ بالغ وقررت هذه المرة أن تصده بمنتهى العنف لكنها في النهاية ، وجدت نفسها تجيبه وهي تتحاشى النظر الى عينيه :

- ٢٥٠ جنيه ..

خرج صوتها متحشرجا وغريبا وكأن واحدة غيرها تتكلم وضحك ملاك واقترب منها وقال مطورا هجومه :

- انت عبيطة يابت .. دول ملاليم .. اسمعي . أنا جايب لك شغلة ب٦٠٠ جنيه في الشهر . بلاش تردي دلوقت . فكري على مهلك . يوم يومين وبعدين تعالي ..

• • •

٢

... في بار مكسيم يشعر زكى الدسوقى بالراحة .

بمجرد أن يعبر ميدان سليمان باشا إلى الممر الصغير المواجه لنادى السيارات ، ما أن يدفع بيده الباب الخشبي الصغير ذي الفتحات الزجاجية ويجتاز المدخل حتى يشعر وكأن آلة الزمن السحرية قد حملته إلى سنوات الخمسينيات الجميلة ..: الحوائط المطلية باللون الأبيض الشاهق علقت عليها لوحات أصلية لفنانين كبار والإضاءة هادئة تنبعث من مصابيح جانبية أنيقة والمناضد المغطاة بمفارش بيضاء ناصعة ، اصطفت عليها الأطباق والفوط المطوية والملاعق والسكاكين وكئوس زجاجية من كافة الأحجام على الطريقة الفرنسية ، المدخل إلى الحمام محجوب عن النظر بساتر (بارافان) أزرق كبير وفي أقصى

المكان بار صغير أنيق وإلى يساره بيانو قديم تعزف عليه كريستين صاحبة المطعم لأصدقائها ، كل شيء في مكسيم يحمل طابع الماضي الأنيق مثل سيارات الرولز رويس العتيقة وقفازات السيدات الطويلة البيضاء وقبعاتهن المزدانة بالريش وأجهزة الجرامافون ذات البوق والإبر الذهبية والصور القديمة الأبيض والأسود ذات الإطارات الخشبية الداكنة التي نعلقها في حجرات الصالون وننساها ومن حين لآخر نتأملها فنحس بحنين وشجن .. صاحبة بار مكسيم : مدام كريستين نيقولاس ، يونانية جاوزت الستين ببضعة أعوام ، ولدت وعاشت في مصر ، تجيد الرسم والعزف على البيانو والكمان وتغنى ببراعة ، تزوجت عدة مرات وعاشت حياة صاخبة مرحة . بدأت علاقتها بزكى بك في الخمسينيات بعشق ملتهب انطفأ بعد ذلك ليخلف صداقة عميقة راسخة .. ينشغل زكى عنها فلا يراها شهورا طويلة وما أن يشعر بالضيق أو تسوء أحواله حتى يذهب إليها فيجدها دائما في انتظاره ، تستمع باهتمام وتنصح بإخلاص وتحنو كأم .. واليوم ما أن رأته داخلا من باب البار حتى هللت وعانقته وقبلته على وجنتيه ثم أمسكت بكتفيه وعادت برأسها إلى الوراء وتفحصته قليلا بعينيها الزرقاوين قائلة::

– تبدو مهموما ياصديقى ؟

ابتسم زكى في حزن وكاد أن يقول شيئا لكنه سكت

وهزت كريستين رأسها وكأنها فهمت ثم دعته إلى الجلوس على مائدته المفضلة بجوار البيانو وطلبت زجاجة من النبيذ الوردي ومزات باردة ..كما تحتفظ الزهرة المجففة ببعض أريجها القديم لازالت كريستين تحمل آثار الجمال المنقضي ، جسدها متماسك رشيق وشعرها مصبوغ ومصفف إلى الوراء والماكياج الهادئ يمنح وجهها المجعد طابعا راقيا وقورا وعندما تضحك يتراوح وجهها بين الحنان والتسامحالجديرين بجدة طيبة وتلك الغواية القديمة التي تعود وتلمع أحيانا للحظة ثم تنطفئ ، تذوقت كريستين النبيذ كما تقضي تقاليد المائدة ثم أشارت إلى النادل النوبي العجوز فصب كأسين مترعين ومع رشفات النبيذ حكى لها زكي ما حدث فاستمعت باهتمام ثم قالت مستنكرة وهي تنطق الحروف الفرنسية بطريقتها الموسيقية الناعمة :

- زكي .. أنت تبالغ .. هذه مشاجرة عادية

- دولت طردتني

- تصرف طائش من فرط الغضب . يوم أو اثنين وتعتذر لك . دولت عصبية لكن قلبها طيب . ولاتنس أنك أضعت خاتمها الثمين وأية امرأة في الدنيا تتسبب في ضياع مجوهراتها سوف تطردك

هكذا قالت كريستين بمرح لكن زكي ظل واجما وقال بأسى :

- دولت تخطط من زمان لطردي من الشقة وقد وجدت في ضياع الخاتم ذريعة.. عرضت عليها أن أشترى لها خاتما جديدا لكنها رفضت

- لا أفهم

- دولت تريد أن تستولي على الشقة لنفسها

- لماذا ..؟

- يا صديقتي العزيزة .. لست متدينا كما تعرفين وهناك أشياء لا أفكر فيها أبدا مثل الإرث وتقسيم التركات

نظرت إليه كريستين مستفهمة فاستطرد موضحا وهو يصب كأسا جديدا :

- أنا لم أتزوج ولم أنجب وعندما أموت ستئول أملاكي إلى دولت وأولادها .. وهى تريد أن تضمن كل شئ لأولادها من الآن .بالأمس أثناء المشاجرة قالت لى: لن أسمح لك بتبديد حقوقنا .. تصوري .. هكذا بمنتهى الوضوح. إنها تعتبر كل ما أملكه حقا لأولادها وكأنني مجرد حارس على أموالي . تريد أن ترثني قبل أن أموت .. هل فهمت الآن ..؟!

- لايازكى ..

هكذا صاحت كريستين وبدا أنها ثملت قليلا وحاول زكى أن يتكلم فقاطعته بحرارة :

- .. لايمكن لدولت أن تفكر بهذه الطريقة .. ..

- بعد كل هذا العمر لازلت ساذجة ..لماذا تندهشين من الشر ؟.. أنت تفكرين كالأطفال : تتخيلين الطيبين مبتسمين وبشوشين والأشرار وجوههم قبيحة وحواجبهم غليظة مشعثة ..الحياة أكثر تعقيدا من ذلك بكثير، الشر موجود في أطيب الناس وأقربهم إلينا ..

- يا فيلسوفي العزيز أنت تبالغ. اسمع .. لكن الرهان بيننا على زجاجة بلاك ليبل كبيرة .. سوف أتصل بدولت الليلة وأصلح بينكما وعندئذ سوف ألزمك بشراء الزجاجة وإياك أن ترجع في كلامك .... !!

.. انصرف زكي من بار مكسيم وأخذ يتجول على غير هدى في وسط البلد ثم عاد إلى المكتب فاستقبله أبسخرون (الذي كان عالما بما حدث) بتعبير حزين مناسب على وجهه وأعد له الشراب والمزة بسرعة وحرارة وكأنه يعزيه .. استأنف زكي الشراب في الشرفة وحتى تلك اللحظة كان لديه أمل في أن يتصالح مع دولت .. كان يشعر بأنها في النهاية أخته و لايمكن أن تؤذيه .. وقد مرت نصف ساعة ثم رن جرس التليفون وجاءه صوت كريستين مرتبكا:

- " زكي .. لقد اتصلت بدولت.. أنا آسفة .. يبدو أنها جنت فعلا ومصممة على إخراجك من الشقة .. قالت

إنها غيرت المفتاح وسوف ترسل إليك ثيابك غدا .. أنا لا أصدق ما يحدث .. تصور إنها تكلمت عن إجراءات قانونية سوف تتخذها ضدك

– أية إجراءات قانونية ؟!

هكذا سأل زكى وهو يشعر بغصة في حلقه

– لم توضح لي ولكن عليك أن تحذر يا زكى .. توقع منها أى شئ ..

• • •

فى اليوم التالي حضر أبسخرون ومعه صبى من الشارع يحمل حقيبة كبيرة بعثت فيها دولت بكل ثياب زكى وتلاحقت بعد ذلك الاستدعاءات من قسم الشرطة حيث حررت دولت عدة محاضر بغرض إثبات حيازتها للشقة وأخذت التعهد على زكى بعدم التعرض لها ، و حاول بعض الأصدقاء التوسط بين الشقيقين من أجل الصلح لكن دولت رفضت واتصل بها زكى تليفونيا عدة مرات فأغلقت السماعة في وجهه وأخيرا استشار أحد المحامين فأخبره بأن موقفه ليس سينا ولا ممتازا لأن الشقة مستأجرة باسم أبيه ومن حق دولت الإقامة فيها وأكد له أن حبال القانون طويلة والتصرف الصحيح في مثل هذا الموقف يعتمد على العنف ، عليه (بكل أسف) أن يستأجر بعض البلطجية ويطرد دولت

خارج الشقة ويمنعها من الدخول ولتلجأ هي إلى المحاكم ، هذه الطريقة الوحيدة لحل مثل هذه النزاعات ، وافق زكى على فكرة المحامي واقترح أن يتم كسر الباب وتغيير الكالون في صباح الأحد عندما تذهب دولت إلى البنك كعادتها وأكد للمحامي أن البواب أو أحدا من الجيران لن يمنعه من تنفيذ الخطة ، كان يتحدث بحماس وجدية لكنه في أعماق نفسه كان يدرك جيدا أنه لن يفعل أى شئ من ذلك ، لن يستأجر بلطجية ولن يطرد دولت ولن يقاضيها ، لا يمكن أن يفعل ذلك .. يخاف منها ؟! ربما .. انه لا يواجهها أبدا ، دائما ينسحب أمامها وهو بطبيعته ليس مقاتلا، منذ الصغر لا يحب النزاعات والمشاكل ويتجنبها بأي ثمن ، وهو أيضا لن يطردها لأنها أخته ، حتى لو استعاد شقته منها وألقى بها في الشارع لن يكون سعيدا ، إن صراعه معها يحزنه لأنه لا يستطيع أن يفكر فيها كانسانة شرسة وشريرة مهما فعلت .. لا يستطيع أن ينسى صورتها القديمة التي أحبها ، كم كانت رقيقة وخجول وكم تغيرت ، انه حزين لأن علاقته بأخته الوحيدة قد تردت إلى هذا الحد وهو يتأمل ما فعلته معه ويتساءل من أين اكتسبت هذه القسوة ؟! كيف هان عليها أن تطرده أمام الجيران وكيف استطاعت أن تجلس أمام الضابط في القسم لكي تحرر محضرا ضد أخيها ، ألم تفكر مرة واحدة في أنه أخوها وأنه

لم يسئ إليها أبدا ليكون هذا جزاءه ..؟! ثم هل تساوي بضعة أملاك أن يخسر الإنسان أهله ؟! صحيح أن الأرض التي استردها من الإصلاح الزراعي تضاعف سعرها مرات لكنها ستؤول كلها بعد وفاته إلى دولت وأولادها على كل حال .. فلماذا المشاكل وقلة القيمة ..؟! شعر زكي بالحزن يمتد شيئا فشيئا ويلقي بظلاله السوداء على حياته وقضى ليالي كاملة وهو عاجز عن النوم ، يسهر حتى مطلع الصبح في الشرفة يشرب ويدخن ويتأمل أحداث الماضي ، يفكر أحيانا أنه قليل الحظ منذ مولده .. إن تاريخ ميلاده من البداية لم يكن موفقا ولو أنه ولد قبل ذلك بخمسين عاما لتغيرت حياته تماما .. لو أن الثورة فشلت ، لو أسرع الملك فاروق بالقبض على الضباط الأحرار الذين كانوا معروفين له بالاسم لما قامت الثورة و لعاش زكي حياته الحقيقية الجديرة به «زكي بك ابن عبد العال باشا الدسوقي ، كان سيتولى الوزارة حتما وربما رئاسة الوزراء ، حياة عظيمة تليق به حقا بدلا من التخبط والمهانة :.. تخدره مومس وتسرقه ثم تطرده أخته وتفضحه أمام الجيران وفي النهاية ينام في المكتب مع أبسخرون ، أهو سوء حظ أم خطأ في شخصيته يدفعه دائما إلى القرار الخاطئ ..؟!: لماذا استمر في مصر بعد الثورة ..؟!.. كان بإمكانه أن يسافر إلى فرنسا ويبدأ حياة جديدة كما فعل كثير من أبناء الأسر

الكبيرة ، كان سيصل هناك حتما إلي مركز مرموق كما فعل أصدقاء أقل منه في كل شيء ، لكنه بقي في مصر وأخذ يتأقلم مع وضعه المتدهور شيئا فشيئا حتى وصل إلى الحضيض ثم.. لماذا لم يتزوج ؟!..عندما كان شابا تمنته نساء كثيرات جميلات وثريات ، لكنه ظل يتمنع على الزواج حتى فاتته الفرصة ، ولو أنه تزوج لكان له الآن أولاد كبار يهتمون به وأحفاد يداعبهم ويحبهم .. لو أن له ولدا واحدا لما فعلت دولت به كل ذلك ، ولو أنه تزوج لما شعر أبدا بهذه الوحدة المؤلمة القاتلة ، ذلك الشعور الأسود الداهم باقتراب الموت الذي يجتاحه كل ما سمع بموت أحد أصدقائه ، السؤال الغامض الذي يلاحقه عندما يأوى إلى فراشه كل ليلة .. متى يأتي الموت وكيف ؟! يتذكر الآن صديقا له تنبأ بموته، كان جالسا معه في شرفة المكتب ثم وجه إليه نظرة غامضة ، فجأة ، وكأنه لمح شيئا ما في الأفق ثم قال بهدوء:

– أنا موتي قريب يا زكي .. أنا شامم رائحة الموت الغريب أن صديقه هذا مات فعلا بعد أيام ولم يكن مريضا وقد جعلته هذه الحادثة يتساءل (عندما يكون محبطا ومكتئبا) أيكون للموت رائحة معينة تنبعث حول الإنسان في آخر حياته فيحسُ بدنو أجله ؟! وكيف تكون النهاية ؟! أيكون الموت بمثابة نوم طويل لا يفيق الإنسان منه أبدا ؟!

أم أن هنـاك قيامـة وثوابـاً وعقاباً كما يعتقد المتدينـون؟! .. وهل يعذبه الله بعد الموت ؟! .. إنه ليس متدينا ولايصلي ولا يصوم صحيح.. لكنه طيلة حياته لم يؤذ أحدا ، لم يغش ولم يسرق ولم يستول على حقوق الآخرين ولم يتأخر أبدا عن مساعدة الفقراء وباستثناء الخمر والنساء لا يعتقد أنه ارتكب ذنوبا بالمعنى الحقيقي .. هذه الخواطر المقبضة سيطرت على زكى أياما طويلة وقد أمضى ما يقرب من ثلاثة أسابيع مقيما في المكتب ، ثلاثة أسابيع من الهم والكرب ، انتهت ذات صباح بمفاجأة حلوة ، تبدد الحزن كما ينقشع الليل الطويل في لحظة سحرية ، سوف يظل زكى يذكر المشهد السعيد ، يستعيده في ذاكرته مئات المرات مصحوبا بموسيقى مرحة ، وهو جالس في الشرفة يحتسى قهوة الصباح ويدخن ويتفرج على الشارع المزدحم عندما ظهر أبسخرون متأرجحا على عكازه وقد بانت على وجهه ، بخلاف طابعه المتوسل ، ابتسامة غامضة خبيثة :

- عاوز ايه ؟!

بادره زكى بك مستنكرا بصوت أجش منذر لكن شيئاً ما استثنائيا مؤكدا منح أبسخرون ثقة غير معهودة فاقترب من سيده ثم انحنى وهمس:

- سيادتك.. أنا وأخويا ملاك عندنا موضوع..

- .. موضوع ايه؟!..

– موضوع سيادتك كده..

– انطق يا حمار أنا مش ناقصك.. موضوع إيه؟!

وهنا مال عليه أبسخرون وهمس:

– عندنا "سوكرتيرة" لسيادتك .. شابة بنت حلال .. لا مؤاخذة سيادتك محتاج في الظروف الوحشة دى لسوكرتيرة "تأخذ بالها من سيادتك..

.. انتبه زكى بك وسدد نظرة عميقة متفهمة لأبسخرون وكأنه قد تلقى شفرة خاصة أو سمع جملة بلغة سرية يفهمها فرد بسرعة :

– وماله .. أشوفها ؟!

سكت أبسخرون وقد استجاب لاغراء تعذيب سيده قليلا فقال ببطء :

– يعنى سيادتك تحب تشوفها ؟!!

وهز البك رأسه بسرعة وتظاهر بالنظر إلى الشارع ليخفى انفعاله.. وبطريقة الساحر الذي يكشف عن مفاجآته في آخر اللعبة ، استدار أبسخرون مبتعدا وهو يضرب الأرض بعكازه واختفى نحو عشر دقائق ثم عاد معها ، تلك اللحظة لن ينساها أبدا ، حين رآها لأول مرة كانت ترتدى فستانا أبيض تغطيه زهور خضراء كبيرة يلتصق بجسدها ويبرز تفاصيله ومن الأكمام القصيرة برزت ذراعاها المربربتان الطريتان .. جذبها أبسخرون من يدها وقال :

- الآنسة بثينة السيد .. المرحوم أبوها كان رجل طيب وساكن معنا هنا فوق السطح ، الله يرحمه كان أكثر من أخ بالنسبة لي أنا وملاك وتقدمت بثينة بخطوتها الصغيرة المتثنية المتأرجحة ثم ابتسمت فأشرق وجهها بطريقة أخذت قلب زكى وقالت :

- صباح الخير يا سعادة البك ..

الذين عرفوا طه الشاذلي في الماضي قد يتعرفون عليه الآن بصعوبة ، تغير تماما، وكأنه استبدل بشخصه القديم شخصا آخر جديدا ، لا يقتصر الأمر على الزي الإسلامي الذي استبدل به ملابسه الإفرنجية ولا لحيته التي أعفاها فمنحته مظهرا مهيبا وقورا أكبر من سنه ولا الزاوية الصغيرة التي أقامها بجوار المصعد في مدخل العمارة ، يتناوب فيها على الأذان مع أخ ملتح طالب في الهندسة يسكن في الدور الخامس .. كل هذه تغيرات في المظهر أما في داخله فقد تملكته روح جديدة قوية متوثبة ، صار يمشي ويجلس ويتحدث إلى الناس في العمارة بطريقة جديدة، انتهى إلى الأبد ذلك التضاؤل والرهبة والانكسار أمام السكان ، انه الآن يواجههم معتدا بنفسه ، لم يعد يعبأ بهم ولا يمكن أن يتحمل منهم أقل توبيخ أو إهانة ولم تعد تهمه تلك الأوراق المالية الصغيرة التي يمنحونها إياه فيدخرها لشراء حاجاته الجديدة .. أولا لإيمانه الراسخ بأن الله سيرزقه وثانيا لأن الشيخ شاكر أشركه في تجارة الكتب الدينية ، مشاوير بسيطة يؤديها في أوقات فراغه وتدر عليه مبلغا معقولا ، وهو الآن يدرب نفسه على أن يحب الناس ويكرههم في الله ، تعلم من الشيخ أن البشر أحقر وأهون من أن نحبهم ونكرههم من أجل صفاتهم الدنيوية بل يجب أن تتحدد مشاعرنا ناحيتهم وفقا لالتزامهم بشرع الله ،

وهكذا تغيرت نظرته إلى أشياء كثيرة : كان يحب بعض السكان لأنهم طيبون معه ويجزلون له العطاء فصار يكرههم في الله لأنهم تاركون للصلاة وبعضهم شارب خمر ، وأصبح يحب إخوانه في الجماعة الإسلامية لدرجة أن يفتديهم بحياته .. انهارت كل مقاييسه الدنيوية القديمة كما يسقط بناء قديم متصدع وحل محلها تقييم إسلامي صحيح للناس والأشياء ، انبعثت قوة الإيمان في قلبه ومنحته كيانا جديدا متحررا من الخوف والشر ، لم يعد يخشى الموت ولا يهاب أي مخلوق مهما كان قدره ونفوذه ، لم يعد يخاف في حياته كلها إلا من معصية الله وغضبه ، والفضل في ذلك لله عز وجل ثم للشيخ شاكر الذي كلما التقى به زاده من الإيمان بالله والعلم بالإسلام وقد أحبه طه وتعلق به وصار من المقربين إليه حتى سمح له الشيخ بزيارة منزله في أى وقت ، وهذه منزلة حميمة لا يمنحها الشيخ إلا لخلصائه ، شيء واحد بقي في نفس طه من العهد القديم : حبه لبثينة ، حاول جاهدا أن يخضع شعوره ناحيتها لفكره الجديد لكنه فشل وقد سعى لاقناعها بالالتزام : أحضر لها كتاب " الحجاب قبل الحساب " وضغط عليها لتقرأه وظل يلح عليها حتى اصطحبها إلي جامع أنس بن مالك واستمعت معه إلى خطبة الشيخ شاكر لكنها ، لدهشته وحزنه ، لم تتأثر بالخطبة بل صارحته بأنها مملة مما دفعه للتشاجر معها .. صارا

يتشاجران كثيرا ، كلما التقيا ، تستفزه دائما حتى يتشاجرا فيغضب وينصرف كل مرة عازما على مقاطعتها نهائيا ، وتلوح له ابتسامة الشيخ المشرقة الهادئة كلما حكى له عن بثينة وقوله : " يا ولدي انك لن تهدى من أحببت لكن الله يهدى من يشاء ".. تتردد كلمة الشيخ في ذهنه ويعاهد نفسه على ألا يراها ثانية، لكنه ينكص بعد أيام قليلة ويشعر بأسى و يتلهف من جديد على رؤيتها ، وكلما عاد ليصالحها بعد مشاجرة ازدادت جفاء على أنه اليوم لم يذهب إلي الجامعة خصيصا ليراها .. انتظرها على مدخل العمارة وهي خارجة في الصباح وبادرها قائلا :

- صباح الخير يا بثينة ..عاوزك في كلمة لو سمحت ..

- مش فاضية

هذا ردت ببرود وتجاهلته وتقدمت بضع خطوات لكنه لم يتمالك نفسه فجذبها من يدها وقاومت للحظة ثم انصاعت هامسة بفزع :" سيب يدي بلاش فضائح " ..مشى الاثنان صامتين متحفزين وسط المارة حتى وصلا إلى مكانهما المفضل في ميدان التوفيقية وما أن جلسا حتى صاحت بغضب

- أنت عاوز إيه مني ؟! كل يوم تعمل مشكلة ..؟!

الغريب أن ثورته زالت فجأة وكأنها لم تكن وانتظر لحظة ثم

قال بصوت جهد ليجعله هادئا كأنه يستعطفها :
- أرجوك يا بثينة ما تغضبي مني
- باقولك عاوز ايه ؟
- عاوز أتأكد من خبر سمعته
- اتأكد..
- يعني ايه ؟!
- يعني كل اللي سمعته صحيح
كانت تتحداه وتدفع بالحوار إلي حافته
- أنت مشيت من محل طلال..؟
- مشيت من الشغل عند طلال واشتغلت عند زكى الدسوقى .. عيب ولاحرام يا سيدنا الشيخ ..؟
وقال بصوت ضعيف :
- زكى الدسوقى سمعته وحشه
- أيوه سمعته وحشة وبتاع ستات لكن بيدفعلى ٦٠٠ جنيه في الشهر .. وحيث إني باصرف على عيلة وحيث إن حضرتك ما تقدرش تدفع لى مصاريف المدارس والأكل والشرب يبقى سيادتك مالكش دعوة
- يا بثينة اتقي الله .. أنت انسانة طيبة .. إياك تغضبي ربنا .. اعملي الصالح والأرزاق على الله
- الأرزاق على الله صحيح لكننا مش لاقيين نأكل
- أنا ممكن أدور لك على شغلة محترمة

- دور لنفسك يا حبيبي .. أنا مستريحة في شغلي

- كده

- أيوه كده .. فيه حاجة ثانية ..؟

سألته بتهكم ثم جرفتها مشاعر السخط من جديد فنهضت ووقفت أمامه وقالت وهي تصلح من شعرها استعدادا للانصراف :

- اسمع ياطه .. أنا أقول لك من الآخر .. حكايتنا خلصت على كده .. كل واحد يروح من سكة ..وما فيش داعي نشوف بعض تاني من فضلك ..

ثم ابتسمت بغموض وقالت وهى تخطو مبتعدة :

- دا أنت حتى بقيت ملتح وملتزم وأنا بالبس قصير وعريان .. شكلنا ما يليقش على بعض ......

• • •

شقة الشيخ شاكر ضيقة متواضعة .. البيت مبنى من دورين بالطوب الأحمر في حارة ضيقة بدار السلام ، في حجرتين وصالة يعيش الشيخ شاكر وزوجتاه وسبعة أولاد وبنات في مراحل التعليم المختلفة ، وقد اتفق الشيخ مع زواره الطلبة على علامة يعرفهم بها .. ثلاث دقات

منفصلة، نقرها طه الشاذلي على الباب ، فجاءه صوت الشيخ من الداخل ".. حاضر .." ثم سمع حركة عرف منها أن الحريم يدخلن إلى الحجرة البعيدة وتردد وقع خطوات الشيخ البطيئة الثقيلة وصوت نحنحته ولم يلبث أن فتح الباب وهو يبسمل ..

– طه .. أهلا يا ولدى..

– آسف لوكنت أزعجتك لكني أريد أن أتحدث معك قليلا

– تعال .. تفضل .. ألم تذهب إلى الجامعة اليوم؟!..

جلس طه على الأريكة بجوار النافذة وحكى ما حدث مع بثينة ، قال كل شئ ووصف مشاعره للشيخ الذي ظل منصتا وهو يعبث في مسبحته وانقطع الحديث لحظات عندما نهض الشيخ ليحضر صينية الشاي وظل بعد ذلك يستمع حتى فرغ طه من الحديث ، وسكت مفكرا فترة ثم قال :

– يا ولدي إن الدين الحنيف لم يحرم الحب ما دام مشروعا ولا يؤدى الى معصية .. بل إن أشرف خلق الله المصطفى صلوات الله عليه وسلامه أحب السيدة عائشة وتحدث بذلك في روايات صحيحة مجمع عليها ،المشكلة في أن تختار المرأة الجديرة بعواطفك ، ماذا تكون مواصفات

تلك المرأة ؟! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها .. فاظفر بذات الدين تربت يداك .. " .. صدق رسول الله .. التربية الإسلامية الصحيحة هي التي تمنعك من الوقوع في مشكلة مثل التي تعاني منها الآن ، أنت وجميع أبناء جيلك لم تتلقوا التربية الإسلامية لأنكم نشأتم في دولة علمانية وتلقيتم تعليما علمانيا فتعودتم التفكير بطريقة تستبعد الدين ، ولقد عدتم الى الإسلام بقلوبكم بينما سوف تستغرق عقولكم وقتا حتى تتخلص من العلمانية وتصفو للإسلام ، تعلم كما قلت لك مرارا كيف تحب في الله وتكره في الله وبغير ذلك لن يكتمل إسلامك أبدا ، إن الضيق الذي تعاني منه الآن نتيجة طبيعية مؤكدة لابتعادك عن الله ولو في موقف واحد من حياتك ، ولو أنك سألت نفسك في بداية تعلقك بصاحبتك هذه عن مدى التزامها .. لو جعلت تمسكها بالإسلام شرطا لارتباطك بها لما وصلت إلى ما أنت فيه الآن ..

صب الشيخ كوبين من الشاي وقدم أحدهما إلى طه ثم وضع البراد على الصينية المعدنية التي حيل لونها من القدم وقال وهو يرشف الشاي على مهل :

- يعلم الله كم أحبك يا ولدى ، وأكره أن تأتي الى شيخك حزينا فيلقى عليك محاضرة بدلا من مواساتك ، لكنني والله أصدقك النصيحة ، انس هذه الفتاة ياطه لأنها

ضلت وأنت شاب ملتزم مؤمن وأولى بك فتاة مسلمة مثلك ، روض نفسك على النسيان واستعن بالصلاة وقراءة القرآن ، سيكون الأمر صعبا في البداية لكنه سيسهل عليك بعد ذلك بإذن الله ، ثم هل نسيت دينك ياطه..؟! أين الجهاد ياطه؟!.. أين واجبك نحو الإسلام والمسلمين ؟! .. بالأمس بدأت الحرب القذرة وانساق حكامنا لقتال المسلمين تحت إمارة الكفار .. وواجب الشباب الإسلامي جميعا في مصر أن يثور على هذا الحكم الكافر .. هل تقبل ياطه أن تتخاذل عن نصرة المسلمين الذين يقتلون بالآلاف يوميا وتنشغل بالفتاة الضالة التي هجرتك إلى الفاحشة ؟ .. إن الله عز وجل لن يسألك يوم القيامة عن بثينة لكنه سيحاسبك عما فعلته من أجل نصرة الإسلام .. ماذا تقول لله يوم المشهد العظيم؟!

أطرق طه وبدا عليه التأثر ثم قال بأسى وخجل :

– لقد عاهدت الله أكثر من مرة على أن أنساها لكنني للأسف أعود وأفكر فيها..

– لن يستسلم شيطان نفسك بسهولة ولن تصل إلى التقوى مرة واحدة..إن جهاد النفس ياطه هو الجهاد الأكبر كما أسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم

– ماذا أفعل يا مولانا ..؟!

– عليك بالصلاة وقراءة القرآن .. داوم عليهما يا

ولـدي حتـى يشـرح اللـه صدرك ولتعاهدني ياطه أنك لن ترى هذه الفتاة مهما تكن الظروف..

نظر طه إلي الشيخ وظل صامتا..

– هذا عهد بيننا ياطه وأنا واثق انك ستحافظ عليه بإذن الله ..

ثم نهض الشيخ وفتح درج المكتب القديم وأخرج صورا منزوعة من صحف أجنبية وألقى بها في حجر طه وقال :

– انظر إلى هذه الصور..تأملها جيدا .. هـؤلاء إخوانك المسلمون في العراق الذين مزقت أجسادهم قنابل طـائرات التحـالف .. انظر كيف تمزقت أجسادهم وبينهـم أطفال ونساء .. هكذا يفعلون بالمسلمين وأطفالهم ويشترك حكامنا الخونة مع الكفرة في جرائمهم ..

ثم التقط الشيخ صورة ورفعها أمام عيني طه وقال:

– تأمل وجه هذه الطفلة العراقية التي مزقتها القنابل الأمريكية..أليست هذه الطفلة البريئة مسئولة منك مثل أختك وأمك .. ماذا أنـت فـاعل لنصرتها ؟!.. ألم يزل في قلبك مكان للحزن على صاحبتك الضالة ؟

كانت صورة الطفلة المشوهة مؤلمة للغاية فقال طـه بمرارة :

– أطفال المسلمين يذبحون بهذه الطريقة البشـعة

بينما يحشد التليفزيون المصري أكبر علماء الأزهر ليؤكدوا أن موقف الحكومة المصرية صحيح شرعا ويزعمون أن الإسلام يقر التحالف مع أمريكا لضرب العراق ولأول مرة ينفعل الشيخ ويعلو صوته .. :

– هؤلاء مشايخ منافقون وفاسقون ، فقهاء السلاطين ونذنبهم عند الله عظيم .. الإسلام لا يجيز إطلاقا أن نشترك مع الكفار في قتل المسلمين مهما كانت الأسباب .. والأسانيد الشرعية لذلك يعرفها أى تلميذ في سنة أولى شريعة ..

وهز طه رأسه مؤمنا على كلام الشيخ الذي قال فجأة وكأنه تذكر :

– اسمع ..غدا بإذن الله سوف ينظم إخوانك مظاهرة كبرى في الجامعة .. أرجو ألا تتخلف عنها ..

.. ثم سكت لحظة واستطرد :

– لن أستطيع قيادة المظاهرة بنفسي لكن أخاكم طاهر سيكون أميركم غدا بإذن الله .. والتجمع أمام قاعة الاحتفالات بعد صلاة الظهر..

هز طه رأسه ثم قام مستأذنا للانصراف لكن الشيخ استمهله وغاب في الداخل قليلا ثم عاد مبتسما وقال وهو يناوله كتيبا صغيرا

– هذا " ميثاق العمل الإسلامي " ..أريدك أن تقرأه وحدك ثم نتناقش فيما بعد هذا الكتاب ياطه سوف ينسيك

بإذن الله كل الأفكار السيئة التي تراودك

• • •

ذبحت الحيوانات صباح الجمعة ، ثلاثة عجول ضخمة قضت الليل بجوار المصعد في مدخل عمارة يعقوبيان ولما ارتفع أذان الفجر تكاثر عليها خمسة جزارين وأوثقوها ثم نحروها وقضوا ساعات في سلخها وتقطيعها وتعبئتها في أكياس معدة للتوزيع وما أن انتهت صلاة الجمعة حتى اشتد الزحام في شارع سليمان باشا ، أفواج من البشر توافدوا على محلات عزام ، كانوا فقراء للغاية : متسولين وعساكر شرطة و صبيان حفاة و نساء متشحات بالسواد يحملن أو يجرجرن أطفالهن الصغار ، جاءوا جميعا ليأخذوا نصيبهم من لحم الضحية التي وهبها الحاج عزام بمناسبة فوزه في الانتخابات وأمام الباب الرئيسي للمحل وقف فوزي الابن الأكبر للحاج عزام بجلباب أبيض وأخذ يتناول بيديه أكياس اللحم ويلقي بها إلى الناس الذين أخذوا يتزاحمون بقوة ويتدافعون بالأيدي للحصول على اللحم حتى حدثت مشاجرات واصابات واضطر عمال المحل إلى عمل كوردون وضرب المتدافعين بالأحزمة حتى يبعدوهم عن زجاج الواجهات قبل أن ينكسر من ضغط أجسادهم وبالداخل

جلس الحاج عزام في صدر المكان وقد ارتدى بدلة زرقاء أنيقة على قميص أبيض ورابطة عنق حمراء منقوشة وفاض وجهه بالبشر ، كانت نتيجة الانتخابات قد أعلنت رسميا مساء الخميس وفاز الحاج عزام بمقعد مجلس الشعب عن دائرة قصر النيل (عمال) وحقق نصرا كاسحا على منافسه أبو حميده الذي لم يحرز إلا أصواتا قليلة للغاية (وقد تعمد الفولي أن تكون خسارته فادحة مدوية ليكون عبرة في المستقبل لكل من يخالف تعليماته) أحس الحاج عزام بامتنان صادق عميق لله سبحانه وتعالى الذي زاده من فضله ونصره نصرا مبينا فصلى أكثر من عشرين ركعة شكر منذ عرف بالخير وأصدر تعليماته بذبح العجول ووزع سرا نحو عشرين ألف جنيه على الأسر الفقيرة التي يعولها بنفسه ، وعشرين ألفا أخرى أعطاها للشيخ السمان لينفقها في وجوه الخير بمعرفته بخلاف عشرين جنيها ذهبيا أهداها للشيخ السمان بهذه المناسبة .. ثمة شعور آخر كان يداعب قلب الحاج عندما يفكر في سعاد ، كيف سيحتفل معها الليلة بفوزه الرائع ..؟! استعاد في ذهنه تفاصيل جسدها الطري الدافئ وشعر بأنه يحبها حقا وقال لنفسه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان محقا عندما تفاءل بالنساء ، بعض النساء مبروكات فعلا ما أن يقترن المرء بهن حتى يغمره الخير وسعاد واحدة من هؤلاء ، جاءت معها بالنصر والبركة

وهاهو ينتصر ويدخل إلى مجلس الشعب ، حقا ما أعجب التصاريف الإلهية .. انه الآن ينوب في مجلس الشعب عن سكان دائرة قصر النيل الذين كانوا يوما ما يمدون لـه أحذيتهم ليمسحها وينظرون إليه من عل ويتفضلون عليه بقروشهم ، انه الآن حضرة النائب المحترم .. يتمتع بحصانة قضائية تمنع أية جهة من التعرض له بغير موافقة المجلس ، من الآن فصاعدا سوف تظهر صورته في الصحف والتليفزيون وكل يوم يجتمع بالوزراء ويصافحهم ندا لند .. لم يعد مجرد رجل أعمال ثري ، انه الآن من رجال الدولة وعليه أن يتصرف مع الجميع على هذا الأساس ، من الآن فصاعدا سوف يبدأ في الشغل الكبير الذي سيقفز به إلى مستوى العمالقة ، الخطوة القادمة سوف تصعد به إلي القمة، سيكون من الخمس أو الست رءوس الكبيرة في البلد كلها ، لو تمت له الصفقات التي يخطط لها لانتقل من خانة مليونير إلى ملياردير بل ربما يكون أثرى أثرياء مصر وقد يتولى الوزارة .. نعم الوزارة ..!!.. لماذا لا..؟! إذا أراد الله فليس هناك مستحيل وهل كان يحلم بعضوية مجلس الشعب؟! .. المال يذلل الصعب ويقرب البعيد وقد تتحقق الوزارة يوما كما تحقق المجلس .. ظل مستغرقا في تأملاته حتى ارتفع أذان العصر فأم عمال المحل في الصلاة كعادته وان كان (وقد استغفر الله على

ذلك) انصرف ذهنه أكثر من مرة إلى جسد سعاد وهو يصلي وما أن فرغ من الصلاة والتسبيح حتى قام منصرفا على عجل ودخل إلى عمارة يعقوبيان وركب المصعد إلى الدور السابع ويا لشوقه المضطرم الملح اللذيذ وهو يدير المفتاح في الباب فيجد سعاد أمامه ، كما توقعها تماما ، تنتظره بالروب الأحمر الذي يبرز مفاتنها الصارخة وتلك الرائحة المعطرة التي تتسلل إلى أنفه فتدغدغ حواسه ، أقبلت ناحيته تتهادى وتملكه الوجد وهو يستمع إلى وقع خطوتها وحفيف الروب على الأرض ثم احتضنته وهمست وهي تداعب أذنه بشفتيها :

- مبروك ياحبيبي .. ألف مبروك

• • •

في لحظات نادرة استثنائية تظهر ، عاد جابر على حقيقتها ، تفلت من عينيها لمحة خاطفة كومضة ويسترد وجهها هيئته الأصلية ، تماما كما يرجع الممثل بعد انتهاء الدور إلى شخصيته فيخلع ملابس التمثيل ويزيل الماكياج عن وجهه ، نفس النظرة الجادة المستيقظة ببطء التي تستعيد شيئا ما بصلابة وإصرار تظهر في وجه سعاد وتكشفه ، يحدث هذا لها في أى وقت : وهى تتناول الطعام مع الحاج

وتسامره وحتى وهى معه في الفراش ، تتقلب في أحضانه وتجهد لإثارة فحولته الذابلة ثم تبرق هذه الومضة في عينيها فتؤكد أن ذهنها لا يتوقف عن التفكير حتى في عز الغرام وكثيرا ما تندهش من قدرتها الجديدة على تقمص أدوار كاذبة ، لم تعرف الكذب أبدا من قبل ، طوال حياتها وكل ما يدور في ذهنها يجري على لسانها ، فمن أين جاء كل هذا التمثيل..؟!.... : إنها تؤدى ببراعة دور الزوجة المحبة المتلهفة المشفقة الغيورة وقد صارت كالممثلين المحترفين تتحكم في مشاعرها تماما : تبكي وتضحك وتغضب عندما تقرر ذلك، إنها الآن في الفراش مع الحاج عزام تؤدى مشهدا تمثيليا: الزوجة التي تدهشها فحولة رجلها فتستسلم له ليفعل بجسدها ما شاءت له قوته الخارقة ، تغمض عينيها وتتنهد وتتأوه وهى لا تشعر بشيء سوى الاحتكاك ، مجرد احتكاك جسدين عاريين بارد ومزعج وفى وعيها الحاد القابع في الخلفية الذي لا يغفل لحظة ، تتأمل جسد الحاج المنهك الذي ذهبت فورته وبان ضعفه بعد شهر واحد من الزواج ، تتحاشى النظر إلى بياض جلده العجوز المجعد وشعيرات صدره القليلة المتناثرة وحلمتيه الصغيرتين الغامقتين، تتقزز عندما تلمس جسده وكأنها تمسك بيديها سحلية أو ضفدعة لزجة مقرفة ، وتتذكر كل مرة ، جسد مسعود زوجها الأول الممشوق الصلب الذي

عرفت معه الحب لأول مرة ، كانت أياما جميلة ، تبتسم وتسترجع كيف كانت تحبه وتتوق للقائه ، يشتعل جسدها من لمساته ووقع أنفاسه الحارة على رقبتها وصدرها ، تنام معه بحرارة وتذوب في غيبوبة اللذة وعندما تنتبه تشعر بالخجل .. تدير رأسها بعيدا عنه وتقضى وقتا تتفادى النظر إلى وجهه ويستغرق هو في الضحك ويقول بصوته الأجش القوى :

– أيووه .. مالك يا بت مستحية .. هو إحنا عاملين عملة .. دا شرع ربنا يابت يا عبيطة ..؟!!

ما أجمل ذلك الزمن وما أبعده ، كانت تحب زوجها ولم تكن تتمنى في الدنيا إلا أن يعيشا معا ليربيا الولد ، والله العظيم لم تكن تريد المال ولم تكن لها طلبات ، كانت سعيدة في شقتها الصغيرة في العصافرة قبلي ، بجوار شريط القطار ، تغسل وتطبخ وتجهز الرضعات لتامر وتمسح الأرض ثم تستحم وتتزين وتنتظر مسعود آخر النهار ، كانت ترى بيتها متسعا ونظيفا ومضيئا وكأنه قصر وعندما أخبرها بأنه حصل على عقد عمل في العراق رفضت وثارت وتشاجرت ومنعته من فراشها أياما حتى تثنيه عن السفر.. صاحت في وجهه :

– تتغرب وتفوتنا وحدنا ..؟!

– سنة ولا سنتين وأرجع بقرش حلو

– كل الناس تقول كده وعمرها ما ترجع

– يعني عاجبك الفقر .. إحنا عايشين يوم بيوم .. نفضل طول عمرنا نستلف؟!

– واحدة واحدة الصغير يكبر

– إلا في بلدنا.. كل حاجة بالعكس.. عندنا الكبير يكبر والصغير يموت .. الفلوس تجيب فلوس والفقر يجيب فقر ..

كان يتكلم بهدوء من اتخذ القرار . وكم تندم الآن على أنها طاوعته . لو أنها قاومته للنهاية . لوأنها غضبت وتركت البيت لكان أذعن لها وعدل عن السفر . كان يحبها ولا يطيق بعدها عنه ، لكنها استسلمت بسهولة وتركته يسافر .. كل شيء قسمة ونصيب .. سافر مسعود ولم يرجع أبدا وهي متأكدة أنه مات في الحرب ودفنوه هناك واعتبروه مفقودا ، هكذا حدث مع أسر كثيرة تعرفها من الإسكندرية ، لايمكن لمسعود أن يهجرها ويترك ابنه أبدا.. مستحيل .. مؤكد أنه مات ، ذهب إلى الله وتركها وحدها في المرار، انتهى زمن الحب والمشاعر الحارة الحقيقية والخجل والوقت الجميل ، تلطمت وجاعت لتربي ابنها و الرجال جميعا وجوههم وأجسادهم وملابسهم مختلفة لكن نظرتهم دائما واحدة : تنتهكها وتعريها وتعدهابكل شيء لو وافقت .. وهي تقاوم بضراوة وأيضا بصعوبة وتخاف أن تتعب يوما

فتستسلم ، شغلها في محل هانو مرهق والمرتب ضعيف ومصاريف الولد تتزايد والحمل ثقيل عليها وكأنها تحمل جبلا وأقاربها جميعا - حتى أخاها حميدو - إما فقراء مثلها على باب الله أو أنذال يساعدونها بالتمنيات الطيبة ويعتذرون عن عدم إقراضها بحجج كاذبة ، عاشت سنوات صعبة حتى كادت تكفر وضعفت أكثر من مرة وكادت تسقط في الحرام من فرط اليأس والاحتياج ، ولما طلبها الحاج عزام على سنة الله ورسوله حسبتها بدقة ، سوف تعطى الحاج جسدها مقابل مصاريف ابنها ، المهر الذي دفعه عزام لم تلمسه ، أودعته باسم تامر في البنك ليتضاعف ثلاثة مرات بعد عشرة أعوام ، انقضى زمن العواطف والعملية الآن محسوبة ، شئ مقابل شيء بالاتفاق والتراضى ، تنام مع هذا العجوز ساعتين كل يوم وتترك ابنها في الإسكندرية وتقبض الثمن ، صحيح أنها تتمزق شوقا لتامر وفي الليل كثيرا ما تتحسس موقعه بجوارها على الفراش وتبكى بحرقة، وذلك الصباح عندما مرت أمام مدرسة ابتدائية ورأت الأطفال في زيهم المدرسي تذكرته وبكت واعتصرها الحزن والشوق أياما ، رأت نفسها تحمل جسده الصغير الدافئ من الفراش وتغسل له وجهه في الحمام وتلبسه ثياب المدرسة وتعد له الإفطار وتحايله حتى يشرب كوب اللبن بأكمله ثم تنزل معه ويركبان الترام إلى المدرسة ، أين هو

الآن ؟ .. كم تشفق عليـه .. انه وحيد وبعيد وهي في هذه المدينة الكبيرة الباردة الكريهة التي لاتعرف فيها أحدا ، تعيش وحدها في شقة شاسعة لاتملك أي شيء فيها ، تختبئ من الناس وكأنها سارقة أو زانية ، وظيفتها الوحيدة مضاجعة هذا الرجل العجوز الذي يجثم كل يوم على أنفاسها بضعفه المتدلي المرهق وملمس جسده الناعم المقزز ، وهو لا يريدها أن تسافر إلى تامر وعندما تتحدث عنه يتكدر وجهه وكأنه يغار ، وهي في كل لحظة تشتاق إلى ابنها ، تتمنى أن تراه الآن وتحتضنه بقوة وتشم رائحته وتملس على شعره الأسود الناعم ، لو تستطيع أن تحضره ليعيش معها في القاهرة .. لن يوافق الحاج عزام أبدا على ذلك وقد اشترط عليها من البداية أن تترك الولد وقال لها بوضوح : أنا أتزوجك وحدك من غير أولاد.. اتفقنا ؟.. تسترجع وجهه البارد القاسي في تلك اللحظة وتكرهه من صميم قلبها لكنها تعود فتقنع نفسها بأن كل ما تفعله من أجل مصلحة تامر ومستقبله ، وماذا ينفعه أن يعيش في حضن أمه وهما يتسولان من القريب والغريب ..؟.. عليها أن تشكر عزام وتمتن له لا أن تكرهه ، على الأقل تزوجها في الحلال وتكفل بنفقاتها ، هذه الفكرة العملية المباشرة تحكم علاقتها بالحاج ، انه صاحب الحق في جسدها طبقا للاتفاق الشرعي، له الحق في إتيانها وقتما يشاء وكيفما يشاء و

عليها أن تستعد دائمـا ، أن تنتظره كل يوم وقد تزينت وتعطرت ، من حقه ألا يشعر ببرودها نحوه ، وألا تشعره أبدا بضعفه أو عجزه في الفراش ، وهي الآن تلجأ إلى حيلة تعلمتها بالغريزة لترفع الحرج عنه : شهقت وخربشت ظهره بأظافرها وتظاهرت ببلوغ الذروة واحتضنت جسده المنهك وألقت برأسها على صدره وكأن اللذة قد خدرتها ولم تلبث أن فتحت عينيها وأخذت تقبله في ذقنه ورقبته وتمسح بأصابعها على صدره ثم همست بصوت ناعم :

– على فكرة .. فين حلاوة نجاحك في الانتخابات؟!

– حلاوتك من عيني .. هدية محترمة

– ربنا يخليك لي ياحبيبى .. شوف.. أسألك سؤال وجاوبني بصراحة

.. واستند الحاج بظهره إلى حاجز الفراش ، ونظر إليها باهتمام وهو يحتفظ بيده على كتفها العاري .. قالت :

– انت بتحبني ..؟

– جدا يا سعاد وربنا اللي يعلم

– يعنى لو طلبت أى حاجة في الدنيا تعملها لي ؟

– طبعا

– طيب .. خليك فاكر كلمتك

ونظر إليها مترددا لكنها كانت قد قررت ألا تواجهه الليلة فقالت :

– أقولك على حاجة مهمة .. الأسبوع الجاي بإذن الله

– لأ.. قولي الليلة

– لا ياحبيبى .. لما أتاكد الأول..

ضحك الحاج وقال

– هي فزورة ؟

فقبلته وهمست بصوت مثير :

– آه .. فزورة ..

• • •

يبرع الشواذ جنسيا عادة في المهن التي تعتمد على الاتصال بالناس مثل العلاقات العامة والتمثيل والسمسرة والمحاماة ويقال إن نجاحهم في هذه المجالات يرجع إلي تخلصهم من الخجل الذي يضيع على سواهم فرص النجاح كما أن حياتهم الشاذة الحافلة بتجارب إنسانية متنوعة وغير مألوفة تجعلهم أكثر فهما لطبيعة الناس وأقدر على التأثير فيهم ، ويبرع الشواذ أيضا في مهن الذوق والخيال مثل هندسة الديكور وتصميم الملابس والمعروف أن أشهر مصممي الأزياء في العالم من الشواذ ربما لأن طبيعتهم الجنسية المزدوجة تمكنهم من تصميم أزياء نسائية مثيرة

للرجال وبالعكس . والذين يعرفون حاتم رشيد قد يختلفون حوله لكنهم لابد أن يعترفوا بذوقه الرقيق وموهبته الأصيلة في اختيار الألوان والثياب حتى في غرفة نومه ، مع عشاقه، يربأ حاتم بنفسه عن الشكل الأنثوي السوقي الذي يصطنعه كثير من الشواذ :.. لا يضع المساحيق على وجهه ولايرتدى قمصان نوم نسائية ولا صدرا صناعيا لكنه يجهد بلمسات خبيرة في إبراز جماله كمخنث : يرتدى جلابيب شفافة مطرزة بألوان جميلة على جسده العاري ويحلق ذقنه تماما ويزجج حواجبه بقدر مناسب محسوب ويكحل عينيه بخفة ثم يصفف شعره الناعم إلى الخلف أو يترك خصلاته متناثرة على جبهته .. هكذا يسعى دائما في زينته إلى تحقيق نموذج الغلام الجميل في العصور القديمة وبمثل هذا الذوق المرهف اشترى حاتم لرفيقه عبده ثيابه الجديدة : بنطلونات ضيقة تبرز قوة عضلاته وقمصان وفانلات ألوانها فاتحة لتضيء وجهه الأسمر والياقات مفتوحة دائما لتظهر عضلات الرقبة وشعر الصدر الكثيف .. كان حاتم كريما مع عبده : منحه مالا كثيرا أرسله إلى أسرته وحصل له على توصية لقائد المعسكر فتحسنت معاملته ومنحوه إجازات متتالية قضاها كلها مع حاتم ، وكأنهما عروسان في شهر العسل : يستيقظان في الضحى ويستمتعان بالفراغ والكسل و يأكلان في أفخم المطاعم ويرتادان السينما

ويذهبان للتسوق ، وفى آخر الليل يذهبان إلى الفراش معا وبعد ما يشبعا جسديهما ، يستلقيان متعانقين في ضوء المصباح الخافت ، ويتسامران أحيانا حتى الصباح ، تلك اللحظات الحنون لن ينساها حاتم أبدا .. يكون قد ارتوى من الحب ويلتصق كطفل خائف بجسد عبده القوى ، يدفس أنفه كالقط في جلده الأسمر الخشن ويحكي له عن كل شيء : طفولته وأبيه وأمه الفرنسية وحبيبه الأول إدريس والمدهش أن عبده برغم حداثة سنه وجهله كان يتفهم مشاعر حاتم وقد صار أكثر تقبلا لعلاقتهما. ذهب النفور الأول وحل مكانه اشتياق لذيذ آثم ، وكان هناك أيضا المال والعز والثياب الجديدة والأكل الفاخر والأماكن الراقية التي لم يحلم عبده بدخولها يوما وبالليل في الشارع وهو عائد بصحبة حاتم ، كان يحلو لعبده أن يمر في مظهره الأنيق بجوار جنود الأمن المركزي ويحييهم عن بعد وكأنه يثبت لنفسه أنه صار لبعض الوقت مختلفا عن هؤلاء البؤساء الفقراء الواقفين بلا معنى ولاهدف بالساعات الطوال في الشمس والبرد ... عاش الصديقان أياما من الهناء الخالص ثم حان عيد ميلاد عبده الذي أكد لحاتم أن المناسبة لاتهمه لأنهم في الصعيد لا يحتفلون إلا بالزواج والطهور لكن حاتما أصر على الاحتفال به واصطحبه في السيارة وابتسم قائلا :

- .. أنا عامل لك الليلة مفاجأة

- مفاجأة آيه ؟!..

- .. صبرك .. هتعرف حالا

هكذا تمتم حاتم وقد بدا على وجهه عبث طفولي وهو يقود السيارة في اتجاه غير معتاد ، قطع طريق صلاح سالم ودخل مدينة نصر ثم اجتاز الطريق حتى وصل إلى شارع جانبي صغير ، كانت المحلات مغلقة والشارع شبه مظلم لكن كشكا معدنيا ظهر وطلاؤه الحديث يلمع في العتمة ونزل الاثنان من السيارة ووقفا أمام الكشك ثم سمع عبده صليلا ورأى حاتم يخرج سلسلة مفاتيح صغيرة ومد يده بها ناحيته قائلا بحنان:

- تفضـــــل .. جويـــــوز انيفرســـــير.. Joyeux anniversaire.. كل سنة وأنت طيب .. دى هديتي لك .. يارب تعجبك

- أنا مش فاهم حاجة

أطلق حاتم ضحكة صاخبة ثم قال :

- آه يا صعيدي .. دماغك مقفولة ؟! .. الكشك دا بتاعك ، أنا عملت واسطة كبيرة وأخذته من المحافظة عشانك .. أول ما تطلع من التجنيد أشترى لك بضاعة وتقف تبيع فيه .. ثم اقترب منه وقال بصوت هامس :

- كده يا حبيبي تشتغل وتكسب وتصرف على عيالك وكمان أضمن انك تفضل معي على طول وأطلق

عبده صيحة عالية وأخذ يضحك وهو يحتضن حاتم ويتمتم شاكرا ... كانت ليلة جميلة . تعشيا سويا في محل للأسماك في المهندسين وأكل عبده وحده ما يقرب من كيلو جمبري بالأرز ، وشربا أثناء الأكل زجاجتين كاملتين من النبيذ السويسري ، وقد بلغ حساب العشاء أكثر من ٧٠٠ جنيه دفعها حاتم بالفيزا الكارت الخاصة به وعندما التقيا تلك الليلة في الفراش ، كاد حاتم أن يبكي من ألم اللذة ، شعر بأنه يحلق في السحاب وتمنى لو يتوقف الوقت عند تلك اللحظة ، وبعد الحب ظلا كعادتهما ملتصقين في الفراش ، الشمعة الطويلة يتراقص ضوؤها الشاحب فيلقى بظلاله على الحائط المقابل المغطى بالورق المنقوش وتكلم حاتم طويلا عن مشاعره ناحية عبده الذي ظل صامتا ، ينظر أمامه وقد ارتسم على وجهه جد مفاجئ فسأله حاتم بقلق :

- مالك يا عبده .. ؟!
- ....
- مالك ..؟!
- خايف يا حاتم بك ..

كان عبده يتكلم ببطء وصوت عميق

- خايف من ايه ..؟!
- من ربنا سبحانه وتعالى ..؟!

- بتقول ايه .. ؟!

- ربنا سبحانه وتعالى..أنا خايف يعاقبنا على اللي بنعمله ..

سكت حاتم وجعل يتأمله في الظلام .. بدا لـه الأمر غريبا ، كان آخر ما يتوقعه أن يتحدث مع عشيقه في الدين.

- إيه الكلام ده يا عبده ؟؟

- يا بك أنا طـول عمري أعرف ربنا وكانوا في بلدنا يقولوا على الشيخ عبد ربـه .. دائما أصلي الفرض بفرضه في الجامع وأصوم رمضـان والسنن كلها .. لغاية لما عرفتك وتغيرت

- عاوز تصلي يا عبده ؟!.. صلي..

- وكيف أصلي وأنا كل ليلة أشرب خمره و أنام معك..أنا حاسس إن ربنا غضبان مني وحيعاقبني

- يعني هو ربنا يعاقبنا عشان بنحب بعض ..

- ربنا محرم علينا الحب ده ..دا ذنبه كبير جدا.. كان عندنا في البلد إمام جامع اسمه الشيخ دراوي ، الله يرحمه كان رجل صالح وبتاع ربنا وكان يقول لنا في خطبة الجمعة : اياكم واللواط فهو ذنب عظيم يهتز له عرش الرحمن غضبا .

لم يتمالك حاتم نفسه فنهض من الفراش وأضاء النور وأشعل سيجارة وبدا بوجهه الوسيم وقميصه الهفهاف

على جسده العاري أشبه بامرأة جميلة غاضبة ونفث دخان السيجارة ثم صاح فجأة :

- يا عبده أنا حقيقي احترت فيك .. مش عارف أعمل لك ايه أكثر من كده؟!.. ..أنا أحبك وأفكر فيك وأحاول دائما أسعدك وبدل ما تشكرني .. تقوم تنكد علي بالطريقة دى ..؟!

ظل عبده مستلقيا صامتا يحدق في السقف وقد وضع يديه أسفل رأسه وأكمل حاتم تدخين السيجارة وصب لنفسه كأسا من الويسكي تجرعها دفعة واحدة ثم عاد وجلس بجوار عبده وقال بهدوء :

- اسمع يا حبيبي .. ربنا كبير وعنده رحمة حقيقية غير كلام المشايخ الجهلة في بلدكم .. فيه ناس كثير بتصلي وتصوم لكن بتسرق وتأذى دول ربنا يعاقبهم .. إنما إحنا أنا متأكد إن ربنا حيغفرلنا لأننا مش بنأذى أحد .. إحنا بس بنحب بعض .. يا عبده وحياتك ما تقلبها نكد .. الليلة عيد ميلادك والمفروض نفرح ..

حدث ذلك مساء الأحد .. كانت بثينة قد أمضت في عملها الجديد أسبوعين اتخذ خلالها زكي الدسوقي كافة الخطوات التمهيدية : كلفها أولا ببعض المهام:.. عمل أجنده تليفونات جديدة ودفع إيصالات الكهرباء وترتيب أوراق قديمة ثم بدأ يتحدث معها عن نفسه وإحساسه بالوحدة وندمه أحيانا على عدم الزواج ، وشكا لها من أخته دولت وقال انه حزين من تصرفاتها السيئة معه وبدأ يسألها عن أسرتها واخوتها الصغار وبين الحين والحين يغازلها ، يثني على فستانها الأنيق وتسريحة الشعر التي تبرز جمال وجهها ويطيل النظر إلى جسدها ، كان أشبه بلاعب بلياردو ماهر يسدد ضرباته بثقة وحساب وظلت هي تتلقي إشاراته بابتسامة متفهمة (وكانت المقارنة بين مرتبها الكبير وعملها التافه كافية لتوضيح الدور المنتظر منها)، واستمر التلميح بينهما أياما حتى قال لها مرة وهي تستعد للانصراف :

- أنا مستريح لك جدا يا بثينة .. نفسي نفضل مع بعض على طول

- .. تحت أمرك

هكذا قالت بنعومة لتفسح له الطريق فأمسك بيدها وسأل

- لو طلبت منك أي حاجة تعمليها لي ..؟!

- لـو فـي يـذي أعملها لك طبعا

فرفع يديها إلى فمه وقبلهما ليؤكد مقصده ثم همس .

- بكره تعالي بعد الظهـر .. عشـان نبقـى علـى راحتنا.

وفي اليوم التالي ، خلال الساعة التي قضتها بثينة في الحمـام وهي تنزع الشعر الزائد عن جسمها وتدعك كعبيها بالحجر وتطرى يديها وبشرتها بالكريم، فكرت فيما يحدث وبدا لها أن العلاقـة الجسدية مع رجل عجوز مثل زكي الدسوقي ستكون غريبة وطريفة على نحو ما وتذكرت أنها أحيانا عندما تقترب منه تشم مع رائحة السيجار النفاذة المنبعثة من ثيابه رائحة أخرى خشنة وعتيقـة تذكرها بتلك الرائحة التي كانت تملأ أنفها وهي صغيرة عندما تختبئ في دولاب ملابس أمها الخشبي القديم وفكرت أيضا أنها تشعر بعطف ناحيته لأنه رجـل مهذب ويعاملها برقـة وأنـه فعلا مسكين لأنه يعيش في مثل هذه السن وحده تماما بلا زوجـة ولا أولاد وفي المسـاء ذهبت إليه فـي المكتب فوجدتـه قد صرف أبسخرون مبكرا وجلس وحده ينتظرها ..أمامـه زجاجـة الويسـكي والكـأس وانـاء الثلـج ، كـانت عينـاه محمرتين قليلا ورائحة الكحول تنبعث فـي الحجرة ونهض مرحبا بها ثم جلس وأفرغ بقية الكأس في فمه وقال بحزن :

- عرفت اللي حصل ..؟!

- .. خير ..؟!

- دولت رفعت قضية حجر ..

- يعني ايه ..؟!

- يعني طلبت من المحكمة أنها تمنعني من التصرف في أملاكي

- يا ساتر يارب .. ليه ..؟!

- عشان تورثني وأنا عايش

هكذا قال بمرارة وهو يصب لنفسه كأسا جديدا .. وأحست بثينة بعطف ناحيته..

- الاخوات ياما يغضبوا لكن عمرهم ما يهونوا على بعض

- يتهيأ لك .. دولت مش شايفة قدامها إلا الفلوس

- يمكن لو حضرتك كلمتها..

هز زكي رأسه بمعنى " لا فائدة " وقال ليغير الحديث :

- .. تشربي معي؟!

- لا شكرا ..

- عمرك ما شربت ..؟!

- عمري ..

- .. جربي كاس واحد .. هو طعمه مر في الأول وبعد كده الواحد ينبسط

– شكرا ..

– .. خسارة .. الشرب حاجة لطيفة جدا ، الأجانب يعرفوا قيمة الشرب أكثر منا

– أنا لاحظت إن حضرتك عايش زي الأجانب بالضبط ..

ابتسم وتأمل وجهها بشغف وحنان وكأنها طفلة فصيحة ثم قال :

– أرجوك ما تقوليش حضرتك .. أنا صحيح عجوز بس ما فيش داعي تفكريني بالموضوع دا طوال الوقت .. فعلا أنا طول عمري مع الأجانب .. تربيت في مدارس فرنساوي ومعظم أصحابي كانوا أجانب وتعلمت في فرنسا وعشت هناك سنين .. أنا أعرف باريس زي مصر بالضبط

– بيقولوا باريس حلوة

– حلوة ..؟! ..الدنيا كلها في باريس

– طيب ليه ماعشتش هناك

– .. دي حكاية طويلة

– احكي لي .. إحنا ورانا حاجة

ضحكت لتخفف عنه وضحك هو لأول مرة فاقتربت منه وسألت بود :

– صحيح ..ليه ما عشتش في فرنسا ؟!

– .. حاجات كثيرة كان لازم أعملها في حياتي وما

عملتهاش

- .. ليه؟!

- ما أعرفش .. وأنا صغير في سنك كان يتهيأ لي إن كل شيء باعمله نتيجته في ايدى .. كنت أخطط لحياتي وأنا متأكد من كل حاجة .. لما كبرت عرفت إن الإنسان ما فيش في ايده حاجة تقريبا ..الدنيا كلها قضاء وقدر

وأحس بالحزن يتسلل إليه فتنهد وسألها مبتسما:

- نفسك تسافري ..؟!

- طبعا ..

- تحبي تروحي فين ؟!

- اي حتة بعيدة عن المخروبة دي ؟!

- أنت بتكرهي مصر ..؟!

- طبعا..

- معقول !.. حد يكره بلده ؟!

- أنا ما شفتش منها حاجة حلوة عشان أحبها

نطقت هذه الجملة وأشاحت بوجهها ورد زكي بحماس :

- الواحد لازم يحب بلده لأن بلد الواحد زي أمه .. فيه أحد يكره أمه ؟! ..

- الكلام ده في الأغاني والأفلام .. يا زكي بك الناس تعبانة

- الفقر مايمنعش الوطنية .. زعماء مصر الوطنيين

معظمهم كانوا فقراء
- الكلام دا على أيامكم ..دلوقت الناس طهقت على الآخر
- ناس مين ..؟!
- كل الناس ..البنات مثلا اللي كانوا معايا في مدرسة التجارة ..كلهم نفسهم يهجوا بأي طريقة ..
- للدرجة دي ..؟!!
- طبعا..
- اللي مالوش خير في بلده مالوش خير في حد ..
أفلتت هذه الجملة من زكي وأحس بأنها ثقيلة فابتسم ليخفف وقعها على بثينة التي نهضت واقفة وقالت بمرارة :
- انت مش فاهم لأن ظروفك كويسة.. لما تقف ساعتين على محطة الأتوبيس ولا تركب تلات مواصلات وتتبهدل كل يوم عشان ترجع بيتكم ..لما بيتك يقع والحكومة تسيبك قاعد مع عيالك في خيمة في الشارع..لما الضابط يشتمك ويضربك لمجرد انك راكب ميكروباس بالليل ..لماتفضل تلف طول النهار على المحلات تدور على شغل وما تلاقيش .. لما تبقى طويل عريض ومتعلم وما فيش في جيبك إلا جنيه واحد وساعات ما فيش خالص .. ساعتها بس حتعرف إحنا بنكره مصر ليه ..
ساد بينهما صمت ثقيل وقرر زكي تغيير الموضوع

فنهض من مقعده واتجه إلى جهاز التسجيل قائلا بمرح :
- أنا ها أسمعك دلوقت أجمل صوت في الدنيا .. مغنية فرنسية اسمها اديث بياف .. أهم مغنية في تاريخ فرنسا .. سمعت عنها ؟!..
- أنا ما أعرفش فرنساوى أساسا
وأشاح زكي بيده علامة أن ذلك لايهم وضغط على مفتاح جهاز التسجيل فانبعثت موسيقى راقصة على البيانو وعلا صوت بياف دافئا قويا صافيا وأخذ زكي يهز رأسه على إيقاع اللحن وقال :
- الأغنية دي بتفكرني بأيام جميلة ..
- كلماتها بتقول ايه ؟!
- بتحكي عن بنت واقفة وسط الزحام وبعدين الناس دفعوها غصبا عنها ناحية واحد ماتعرفوش وأول ما شافته أحست ناحيته بإحساس جميل وتمنت لو تبقى معه طول العمر لكن فجأة الناس دفعوها بعيد عنه .. وفي النهاية لقت نفسها وحدها والإنسان اللي أحبته ضاع منها للأبد
- يا خسارة ..
- طبعا الأغنية فيها رمز .. يعني الواحد ممكن يقضى طول عمره يبحث عن الشخص المناسب ولما يلاقيه يضيع منه ..
كانا واقفين بجوار المكتب وأخذ يتكلم وهو يقترب

منهـا ووضـع يديـه علـى خديها فامتلأت أنفها برائحته الخشنة العتيقة وقال وهو يتأمل عينيها :

- عجبتك الأغنية ؟!

- .. حلوة ..

- تعرفي يا بثينة أنا كنت فعلا محتاج أقابل انسانة زيك

- ...

- عينيك جميلة جدا ....

- .. شكرا ..

هكذا همست وقد اضطرم وجهها وتركته يقترب أكثر حتى لامست شفتاه وجهها ثم احتواها بين ذراعيها لم تلبث أن أحست في فمها بطعم الويسكي اللاذع ..

• • •

- على فين يا عروسة ؟! ..

سألها ملاك بوقاحة وهو يعترض طريقها في الصباح أمام المصعد وأجابت وهي تتحاشى النظر إلى .بنيه

- نازلة الشغل

أطلق ملاك ضحكة عالية وسأل :

- باين عليك الشغل عجبك ..؟!
- زكي بك رجل طيب
- كل الناس طيبين .. عملت ايه في الموضوع بتاعنا ؟!..
- .. لسه .. .
- يعني ايه ..؟!
- لسه ما جتش الفرصة ..
وقطب ملاك ما بين حاجبيه ونظر إليها بما يشبه الغضب وقبض على يدها بقوة وقال :
- اسمعي ياشاطرة .. المسألة مش لعبة ... الأسبوع دا لازم يمضي على العقد .. فاهمة ..؟! ..
- حاضر ..
هكذا قالت وخلصت يدها منه ودخلت إلى المصعد..

• • •

منذ الصباح الباكر بدأ احتجاج الطلاب في معظم الكليات ، عطلوا الدراسة وأغلقوا المدرجات ثم أخذوا يتحركون بأعداد كبيرة وهم يهتفون ويحملون لافتات تندد بحرب الخليج ، وعندما أذن لصلاة الظهر اصطف نحو خمسة آلاف طالب وطالبة لأداء الصلاة في الساحة

المواجهة لقاعة الاحتفالات (الطلاب في المقدمة ووراءهم الطالبات) وقد أمهم في الصلاة الأخ طاهر أمير الجماعة الإسلامية ثم أقام المحتشدون صلاة الغائب على أرواح شهداء المسلمين في العراق ، ولم يلبث طاهر أن صعد إلى أعلى درجات السلم المواجه للقاعة ، وقف بجلبابه الأبيض ولحيته السوداء المهيبة ، وعلا صوته في الميكروفون :

" أيها الأخوة ، لقد جئنا اليوم لنوقف قتل المسلمين في العراق الشقيق ، إن أمتنا الإسلامية لم تمت بعد كما يريد لها الأعداء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح : " الخير في أمتي إلى يوم الدين " .. فلنقل يا إخواني كلمتنا عالية مدوية ليسمعها الذين وضعوا أيديهم في أيدي الأعداء النجسة الملوثة بدماء المسلمين .. يا شباب الإسلام .. إننا نتحدث الآن بينما صواريخ الكفار تدك العراق الشقيق ، انهم يباهون بأنهم قد سحقوا بغداد سحقا وجعلوها أثرا بعد عين ، يقولون انهم أعادوا بغداد إلى العصر الحجري بعد أن دمروا محطات الكهرباء والمياه بالكامل ، الآن يا إخواني في كل لحظة يستشهد آلاف المسلمين العراقيين الذين تسلخ جلودهم القنابل الأمريكية وقد اكتملت المأساة عندما أذعن حكامنا لأوامر أمريكا وإسرائيل وبدلا من أن توجه جيوش المسلمين

أسلحتها إلى الصهاينة الذين يغتصبون فلسطين ويدنسون المسجد الأقصى، صدرت أوامر حكامنا إلى الجنود المصريين حتى يقتلوا اخوتهم المسلمين في العراق ... يا اخوتي في الإسلام ارفعوا صوتكم عاليا بكلمة الحق ..قولوها عالية مدوية لكي يسمعها الذين باعوا دماء المسلمين وكدسوا ثرواتهم المنهوبة في بنوك سويسرا .."

علت الهتافات من كل اتجاه ، يلقيها طلاب محمولون على الأعناق وترددها آلاف الحناجر بحماس بالغ:

" إسلامية ..إسلامية .. لاشرقية ولاغربية "

" خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد راح يعود "

" يا حكامنا يا لئام .. دم المسلم بعتوه بكم "

ثم أشار لهم طاهر فسكتوا وعلا صوته هادرا بالغضب : " .. بالأمس نقلت شاشات التليفزيون في العالم كله ، صورة جندي أمريكي وهو يستعد لاطلاق صاروخ ليقتل أهلنا في العراق ..هل تعرفون ماذا كتب الخنزير الأمريكي على الصاروخ قبل أن يطلقه .. لقد كتب .. مع تحياتي إلى الله .. أيها المسلمون .. انهم يسخرون من إلهكم فماذا أنتم فاعلون ؟!.. انهم يقتلونكم ويستحيون نسائكم ويستهزئون بربكم سبحانه وتعالى .. هل هانت كرامتكم ورجولتكم إلى هذا الحد ؟!.. الجهاد الجهاد الجهاد ..

فليسمع الجميع كلمتنا عالية .. لا لهذه الحرب القذرة .. لا لقتل المسلم بيد المسلم .. والله لنموتن قبل أن تكون أمة الإسلام لقمة سائغة في فم الأعداء .. لن نكون أحذية لأمريكا ترتدينا وتخلعنا كيفما تشاء .."

ثم هتف طاهر بصوت متقطع من الانفعال :"الله أكبر .. الله أكبر .. تسقط الصهيونية .. الموت أمريكا .. يسقط الخونة .. إسلامية إسلامية .."

حمل الطلاب طاهر على أعناقهم وأخذ الحشد الضخم يتجه ناحية البوابة الرئيسية للجامعة ، كان هدف المتظاهرين أن يخرجوا إلى الشارع حتى ينضم الناس إلى المظاهرة لكن قوات الأمن المركزي كانت في انتظارهم أمام الجامعة، وما أن خرج الطلاب إلي الساحة حتى هجم عليهم الجنود المسلحون بالعصي الضخمة والخوذات والدروع الحديدية وأخذوا يضربونهم بعنف بالغ وارتفع صراخ الطالبات ووقع طلاب كثيرون وأصيبوا وسالت دماؤهم على أسفلت الشارع ، على أن حشود الطلاب ظلت تتدفق بغزارة من فتحة البوابة وتمكن كثيرون من الهرب ، اندفعوا يركضون بعيدا عن الجنود الذين راحوا يطاردونهم، وتمكن هؤلاء الطلاب من اجتياز ميدان الجامعة وتجمعوا من جديد عند الكوبري فانقضت عليهم فرق إضافية من الأمن المركزي لكنهم اندفعوا بالمئات ناحية السفارة

الإسرائيلية وهناك ، برز من عند السفارة جنود كثيرون من القوات الخاصة أخذوا يقذفون الطلاب بقنابل مسيلة للدموع وارتفع الدخان حتى حجب المشهد كله ثم لعلع صوت رصاص غزير ..

• • •

اشترك طه الشاذلي في المظاهرات طوال النهار وتمكن في آخر لحظة من الهرب عندما بدأت قوات الأمن في القبض على الطلاب أمام السفارة الإسرائيلية ، وطبقا للاتفاق ذهب طه إلى مقهى الأوبرج في ميدان السيدة زينب حيث التقى ببعض الاخوة ومعهم الأمير طاهر الذي قدم عرضا وتقييما لأحداث اليوم ثم قال بصوت حزين :

– لقد استعمل المجرمون القنابل المسيلة للدموع كستار للتمويه ثم أطلقوا على الطلبة الرصاص الحي . وقد فاز بالشهادة أخوكم خالد حربي من كلية الحقوق . ونحن نحتسبه عند الله ونسأله أن يغفر ذنوبه جميعا ويتغمده برحمته ويكرم مثواه في الجنة بإذن الله.."

قرأ الحاضرون الفاتحة على روح الشهيد و سادهم شعور بالرهبة والكآبة ثم شرح لهم الأخ طاهر المهام المطلوبة في اليوم التالي ، الاتصال بوكالات الأنباء

الأجنبية لتأكيد خبر استشهاد خالد حربي وتفقد أسر المعتقلين وتنظيم مظاهرات جديدة تبدأ من مكان لا يتوقعه الأمن .. كانت المهمة المكلف بها طه كتابة مجلات الحائط وتعليقها في الصباح الباكر على جدران الكلية ، وقد اشترى لهذا الغرض مجموعة أقلام ملونة وعدة أفراخ من الورق المقوى وأغلق على نفسه حجرته فوق السطح واستغرق في العمل حتى أنه لم ينزل إلى الزاوية وصلى المغرب والعشاء منفردا ، قام بتصميم عشر مجلات وتنفيذها كتابة ورسما وانتهى من العمل بعد منتصف الليل فشعر بتعب بالغ وقال لنفسه إن أمامه ساعات قليلة لينام لأن عليه أن يذهب إلى الكلية قبل السابعة صباحا ، صلى ركعتين سنة العشاء ثم أغلق النور واستلقى على جانبه الأيمن وردد دعاءه المعتاد قبل النوم : " اللهم اني وجهت وجهي إليك والجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك. رغبة ورهبة إليك . لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك .اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت"...ثم استغرق في نوم عميق وبعد فترة شعر بأنه يحلم وأفاق على أصوات مختلطة وفتح عينيه فميز أشباحا تتحرك في ظلام الحجرة وفجأة أضيء النور فرأى ثلاثة رجال ضخام واقفين أمام السرير.. اقترب منه أحدهم وصفعه بقوة على وجهه ثم أمسك برأسه وأدارها بعنف ناحية اليمين فرأى طه لأول

مرة ضابطا شابا سأله متهكما:

- انت طه الشاذلي ؟!

لم يرد فضربه المخبرون بقوة على رأسه ووجهه وأعاد الضابط السؤال فقال طه بصوت خافت :

- أيوه ..

فابتسم الضابط بتحدي وقال :

- .. عامل لي زعيم يابن القحبة ..

وكانت هذه إشارة فانهالت الضربات على طه والغريب أنه لم يحتج ولا صرخ ولا حتى حمى وجهه بيديه. ظل وجهه جامدا من وقع المفلجأة واستسلم تماما لضربات المخبرين الذين أحكموا قبضتهم عليه وجذبوه إلى خارج الحجرة ..

• • •

من بين عشرات الزبائن الذين تمتلئ بهم قاعة المطعم الشرقي في فندق شيراتون الجزيرة لن تجد إلا قلة من المواطنين العاديين ، أولئك الذين يصطحبون خطيباتهم أو زوجاتهم وأولادهم يوم العطلة من أجل أكلة كباب شهية، أما معظم الرواد فمن وجوه المجتمع : رجال أعمال مرموقون ووزراء ومحافظون حاليون وسابقون ، يأتون

إلـى المطعـم ليـأكلوا ويجتمعوا بعيـدا عـن أعيـن الصحافة والفضوليين ، من هنـا كثفت الشرطة الحراسـة على المكان بالإضافة إلى الحراس الشخصيين الذين يـأتون مع أية شخصية مهمة ، وقد صار لكبابجي الشيراتون نفس الدور الذي لعبه طويلا نادي السيارات الملكي في السياسة المصرية قبل الثورة ، فكم من سياسـات وصفقات وقوانين تركت تأثيرهـا على حياة ملايين المصريين تم إعدادهـا والاتفاق عليها في كبابجي الشيراتون على موائد الطعام العامرة بالمشويات ، والفرق بين نادى السيارات وكبابجي الشيراتون يعبر بدقة عن التغير الذي طرأ على النخبة المصريـة الحاكمـة قبـل الثـورة وبعدهـا ، فـالوزراء الأرستقراطيون في العهد البائد ، بتعليمهم وسلوكهم الغربـي الخالص كان يناسبهم تماما نادي السيارات حيث يسهرون كل ليلـة ويصطحبون زوجـاتهم بفسـاتين السـهرة العاريـة ويحتسون الويسـكي ويلعبـون البوكـر والـبريدج .. أمـا الكبراء في العصـر الحـالي ، بـأصولهم الشعبية غالبـا وتمسكهم الصارم بمظاهر الدين ونهمهم إلى الطعـام الشـهي فان كبابجي الشـيراتون يلائمهم حيث يـأكلون أفخر أنـواع الكبـاب والكفتـة والحمـام المحشي ثم يشربون أكوابـا مـن الشـاي ويدخنـون المعسل على الشيشـة التي أدخلتهـا إدارة المطعم بناء على طلبهم ، وأثناء الأكل والشرب والتدخين لا

ينقطع الحديث عن شئون المال والأعمال .. ولقد طلب كمال الفولي لقاء الحاج عزام في كبابجي الشيراتون ، وجاء هذا الأخير قبيل الموعد مع ابنه فوزي وجلسا يدخنان الشيشة ويشربان الشاي حتى وصل كمال الفولي مع ابنه ياسر وثلاثة من أفراد الحراسة قاموا بتفقد المكان ثم أسر أحدهم إلى الفولي بشيء ما فهز رأسه موافقا وقال للحاج عزام بعد أن احتضنه مرحبا بحرارة :

- معلهش ياحاج .. لازم نغير القعدة .. الحراسة معترضة لأن المكان مكشوف..

واستجاب الحاج عزام ونهض وابنه مع الفولي واتجهوا جميعا إلي مائدة بعيدة حددتها الحراسة ، في أقصى المكان بجوار النافورة ، جلسوا هناك واستقر رجال الحراسة في مائدة قريبة على بعد محسوب ، يسمح لهم بحماية المائدة ولا يمكنهم من سماع ما يقال عليها ، بدأ الحديث عاما : سؤال متبادل عن الصحة والأولاد وشكوى معتادة من إرهاق العمل وتزايد المسئوليات . ثم قال الفولي للحاج عزام بلهجة ودية :

- على فكرة حملتك في مجلس الشعب ضد الإعلانات الخليعة في التليفزيون ممتازة وعملت صدى عند الناس

- الفضل لك يا كمال بك .. أنت صاحب الفكرة

- كان غرضي الناس تتعرف بك وأنت نائب جديد في المجلس.. والحمد لله كل الجرائد كتبت عنك ..

- ربنا يقدرنا على رد جمايلك

- العفو يا حاج ..أنت أخ عزيز وربنا يعلم

- تفتكر يا كمال بك التليفزيون يستجيب للحملة ويمنع الإعلانات السافلة دي

وصاح الفولي بحماس " برلماني " :

- يستجيب غصبا عنه .. أنا قلت لوزير الإعلام في اجتماع المكتب السياسي: المسخرة دي لا يمكن تستمر .. واجبنا حماية أخلاقيات الأسرة في بلدنا .. من يقبل بنته أو أخته تتفرج على الرقص والمرقعة في التليفزيون وفين؟!.. في مصر بلد الأزهر..؟!

- أنا مستغرب البنات اللي يظهروا عريانين في التليفزيون دول فين أهلهم ؟! .. فين أبوها ولا أخوها دي عشان يسيبها تظهر بالطريقة الوسخة دي..؟!

- أنا عارف النخوة راحت فين ؟!.. اللي يسيب حريمه تتعرى يبقى ديوث .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الديوث ..

وهز الحاج عزام رأسه قائلا بورع :

- الديوث بالذات مصيره جهنم وبئس المصير والعياذ بالله

كـان هـذا الحـوار بمثابة تمهيـد وجـس نبـض وشحذ قدرات ، مثل تمرينات التسخين التي يؤديها لاعبو الكرة قبل أن يبدءوا المبـاراة ، وقـد زالـت الرهبـة الآن وسرى الدفء إلـى الجلسـة فمال كمال الفولي برأسه إلى الأمام وابتسم قائلاً بنبرة ذات مغزى وهو يحرك مبسم الشيشة بين أصابعه الغليظة :

– على فكرة .. نسيت أقول لك مبروك ..!..

– بارك الله فيك ..على ايه ؟!..

– على توكيل سيارات تاسو الياباني ..

– آه ..

هكذا ردد عزام بصوت خافت وقد لمعت عينـاه بانتباه مفاجئ ثم أطرق وجذب نفسا بطيئا من الشيشـة ليعطي نفسه فرصة للتفكير وبدأ يزن كل كلمة يقولها :

– بس الموضوع لسه ما تمـش يا كمـال بك .. أنـا لسه متقدم بطلب التوكيل واليابانيين بيعملوا تحريات عني.. يمكن يوافقوا يعطوني التوكيل ويمكن يرفضوا.. قل يـارب وادعي لنا لأجل النبي ..

أطلق الفولي ضحكة عالية وخبط بيده على ركبة الحاج وقال بلهجة حميمة :

– يـا رجل يـا عجوز .. علـى أنـا الكـلام دا ؟! .. لاياسيدي أنت أخذت التوكيـل الأسبوع ده .. وبالأمـارة

وصل لك فاكس الموافقة يوم الخميس .. ايه رأيك ؟!
ونظر عزام إليه صامتا فاستطرد بجدية

- بص ياحاج عزام .. أنا اسمي كمال الفولي .. رجل دوغري كما السيف (واشار بيده علامة الاستقامة) .. كلمتي واحدة .. وأظنك جربتني..

- ربنا يديم المعروف ....

- أقولك من الآخر ؟!.. التوكيل دا ياحاج أرباحه تعدى الـ ٣٠٠ مليون كل سنة .. طبعا ربنا يعلم اني أتمنى لك الخير .. بس اللقمة كده كبيرة عليك

- يعني ايه ؟؟

هكذا هتف عزام بصوت شابته حدة فأجابه الفولي وهو ينظر إليه بقوة :

- يعني ما ينفعش تاكلها لوحدك ياحاج ..إحنا عاوزين الربع

- ربع ايه ؟!

- ربع الأرباح ..

- أنتم مين ؟!

ضحك الفولي عاليا وقال :

- بقه دا سؤال يا معلم .. ياراجل أنت ابن بلد وكلك نظر..!

- قصدك ايه ؟!

- قصــــدي انـــــي بـأتكلم بالنيابـة عـن الرجـل الكبير .. الرجل الكبير طالب يشـاركك في التوكيل وبـأخذ ربع الأرباح .. وأنت عارف ..!! الرجل الكبير لمـا يطلـب لازم يأخذ ..

المصـائب لا تـأتي فرادى ..

هكذا يردد الحاج عزام كلما تذكر ذلك اليـوم .. غادر الشيراتون في نحو العاشرة مساء بعدما وافق على طلب كمال الفولي ، كان لابد أن يوافق لأنه يعلم قوة الرجل الكبير وإن ظل يشعر بغيظ بالغ من فكرة إعطائه ربع المكسب .. مشروع كبير يتعب ويشقى فيه ويصرف ملايين ثم يأتي الكبير ويأخذ ربع الأرباح على الجاهز ..!! افتراء و بلطجة..هكذا قال لنفسه في حنق وقرر في نفسه أن يسعي لإيجاد حلا يمنع هذا الظلم ، كانت السيارة تشق طريقها إلى بيته في المهندسين عندما التفت الحاج عزام قائلا لابنه فوزي:

– اطلع على البيت وقل لوالدتك أني بايت بره الليلة .. لازم أعمل اتصالات بخصوص موضوع الفولي

هز فوزي رأسه في صمت ونزل أمام البيت بعدما قبل يد أبيه الذي ربت على كتفه وقال :

– بكره نتقابل من بدري إن شاء الله في المكتب ..

اضطجع الحاج عزام في مقعد السيارة وأحس براحة وطلب من السائق أن يذهب به إلي عمارة يعقوبيان ، لم يكن قد رأى سعاد منذ أيام لانشغاله في موضوع التوكيل الياباني وابتسم وهو يتخيلها وقد فوجئت بحضوره إليها ، كيف سيجدها ، ماذا تصنع وحدها الآن ..؟!..كم يشتاق إلى

ليلة معها ، ليلة يتخلص فيها من الهم ويستيقظ مرتاحا .. خطر له أن يتصل بها من تليفون السيارة حتى تستعد للقائه، لكنه فضل أن يهبط عليها فجأة ليرى كيف تستقبله ، وفعلا صرف السائق وصعد إلى الشقة وأدار المفتاح بهدوء ودخل إلى الصالة فسمع صوتا يأتي من ناحية الصالون فاقترب ببطء .. وهناك ، وجدها مستلقية على الأريكة وقد ارتدت بيجاما حمراء ولفت شعرها على البوكل وغطت وجهها بالكريم ، كانت تتفرج على التليفزيون وما أن رأته حتى صاحت مرحبة وقفزت من مكانها واحتضنته قائلة بعتاب :

- كدا يا حاج ؟! .. على الأقل كنت كلمني في التليفون أقوم أعمل حسابي وألا أنت نفسك تشوفني وأنا شكلي وحش

- أنت زي القمر ..

هكذا همس الحاج وتشبث بجسدها واحتضنها بقوة وأحست هي بشهوته وكأنها وخزة فأرجعت رأسها إلى الوراء وقالت بخلاعة وهي تتملص :

- أيووه ياحاج .. انت كل حاجة عندك قفش كده .. استنى يا رجل لما أدخل الحمام وأعمل لك لقمة ..

مضت ليلتهما كالمعتاد ، أعدت له الفحم والشيشة ودخن عدة أحجار من الحشيش ريثما أعدت نفسها في

الحمام ثم خلع ثيابه واستحم وارتدى جلبابه الأبيض على جسده العاري ونام معها ، وكان من ذلك النوع من الرجال الذين يتخلصون من همومهم بالجنس فجاء أداؤه معها تلك الليلة حارا وغزيرا على غير العادة حتى أنها بعدما فرغا قبلته وهمست وهي تدعك أنفها في أنفه:

-.. الدهن في العتاقي

.. أطلقت ضحكة عالية وأسندت ظهرها إلى مسند السرير وقالت بمرح :

- يالله أقولك على الفزورة

- فزورة ايه ..؟!..

- أيووه .. نسيت بسرعة ؟!.. الفزورة يا حاج .. الموضوع اللي تثبت لي به انك بتحبني

- أيوه صحيح لامؤاخذة .. دماغي الليلة مشغولة على الآخر .. يالله ياستي قولي لي على الفزورة ..

واستدارت سعاد ناحيته ونظرت إليه في صمت وكأنها تستشف رد فعله ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وقالت :

- يوم الجمعة رحت للدكتور ؟

- دكتور ؟! .. خير..؟!

- كان عندي تعب

- .. سلامتك ..!

.. ضحكت عاليا وقالت :

- لا .. ما هو طلع تعب حلو..

- مش فاهم ..

- مبروك يا حبيبي .. أنا حامل في شهرين ..

• • •

وقفت الناقلة الكبيرة أمام عمارة يعقوبيان .. كانت مغلقة تماما إلا من بضع نوافذ صغيرة مغطاة بالأسلاك ، واقتاد الجنود طه الشاذلي وهم يضربونه ويركلونه بأحذيتهم الضخمة وقبل أن يدفعوه داخل السيارة وضعوا عصابة محكمة على عينيه ثم جذبوا يديه خلف ظهره ووضعوهما في الكلابشات فشعر بجلد يديه يتمزق من ضغط الحديد ، كانت السيارة مزدحمة عن آخرها بالمعتقلين ، الذين لم ينقطعوا طوال الطريق عن ترديد الهتافات ..: "لا إله إلا الله..إسلامية .. إسلامية.. " وكأنهم بصياحهم يتغلبون على خوفهم وتوترهم ، وتركهم الحراس يهتفون لكن السيارة انطلقت بأقصى سرعة حتى وقع الطلاب أكثر من مرة بعضهم على بعض ثم توقفت فجأة وسمعوا صرير بوابة حديدية عتيقة وسارت السيارة ببطء قليلا ثم توقفت من جديد وانفتح الباب الخلفي واندفع مجموعة جنود يصيحون

ويشتمون وقد خلعوا! أحزمتهم العسكرية وأخذوا يضربون بها الطلاب الذين أخذوا يتساقطون خارج السيارة وهم يصرخون ثم سمعوا نباح الكلاب البوليسية التي سرعان ما هجمت عليهم وحاول طه أن يجرى مبتعدا لكن كلبا ضخما انقض عليه وأسقطه على الأرض وبدأ ينهش بأنيابه في صدره وعنقه ، تقلب طه على الأرض ليحمي وجهه من أنياب الكلب وفكر أنهم لن يتركوا الكلاب تقتلهم وانه لومات سيرزق الجنة ، ظل متماسكا ، وأخذ يردد في سره آيات القرآن ويتذكر مقاطع من خطب الشيخ شاكر واكتشف أن ألمه الجسدي يصل إلى ذروة معينة ، فظيعة ، ثم يقل الإحساس به شيئا فشيئا ..فجأة ابتعدت الكلاب عنهم وكأنها تلقت إشارة وظلوا ملقين في الفناء لمدة دقائق ثم شن الجنود غارة جديدة من الضرب العنيف وبدءوا في اقتيادهم واحدا واحدا ، وشعر طه بأنهم يدفعونه في ممر طويل ثم انفتح باب و دخل إلي حجرة متسعة جوها ملبد بدخان السجائر وبدأ يميز أصوات الضباط الجالسين ، كانوا يتبادلون حديثا عاديا ضاحكا ثم قام أحدهم إليه و صفعه على قفاه بقوة و صاح في وجهه:

- اسمك ايه يا روح أمك ..
- طه محمد الشاذلي
- ايه ؟! .. مش سامع

– طــه محمــد الشاذلي

– ارفع صوتك يا ابن القحبة

صاح طه بأعلى صوته لكن الضابط صفعه وسأله من جديد وكرر ذلك ثلاث مرات ثم انهالت الضربات والركلات عليه حتى سقط على الأرض فأنهضوه وارتفع لأول مرة صوت هادئ أجش يتحدث بثقة وتأن ، صوت لن ينساه طه أبدا بعد ذلك :

– خلاص يا جماعة.. كفاية ضرب.. الولد دا شكله عاقل وذكي ..تعال يا ابني قرب هنا ..

ودفعوه ناحية مصدر الصوت الذي تأكد لطه أنه رئيسهم وأنه يجلس على مكتب يتوسط المكان

– اسمك ايه يا حبيبي ؟؟

– طه محمد الشاذلي

كان يتكلم بصعوبة وهو يشعر بطعم الدم اللاذع في فمه .. قال الرئيس :

– يا طه أنت باين عليك طيب وابن ناس. ليه يابني تعمل في نفسك كده؟! ..شفت جرى لك ايه ؟! .. ولسه؟!.. انت لسه شفت حاجة ؟! ... عارف العساكر دول .. حيفضلوا يضربوا فيك لغاية بالليل و بعدين يروحوا بيوتهم يأكلوا وينامو و ييجي عساكر تانيين يضربوك لغاية الصبح والصبح يرجع العساكر دول من بيوتهم ويضربوك تاني

لغاية بالليل.:. حتفضل كده على طول ولومت من الضرب ندفنك هنا مطرح ما أنت واقف .. ولايهمنا ..أنت مش قدنا ياطه ..إحنا الحكومة ..أنت قد الحكومة ياطه ؟!.. شفت الداهية اللي وقعت نفسك فيها .. اسمع يا بابا.. تحب أخرجك دلوقت ..؟! .. تحب تروح لأهلك ..؟!.. أبوك وأمك زمانهم قلقانين عليك ..

وقد نطق الجملة الأخيرة وكأنه منزعج بصدق فشعر طه برجفة قوية تجتاح جسده وحاول جاهدا أن يتماسك لكنه فشل وخرج منه صوت حاد كالعواء ثم استسلم لبكاء متصل حار فاقترب منه الضابط وربت على كتفه قائلا :

- لأ يا طه .. لأ يا حبيبي ما تبكيش .. والله العظيم انك صعبان علي .. اسمع يا شاطر..أنت تقول لنا معلومات عن التنظيم بتاعك وأنا بشرفي أسيبك تخرج حالا.. إيه رأيك ..؟!..

.. وصاح طه :

- أنا ما ليش تنظيم

- ومحتفظ بميثاق العمل الإسلامي ليه ؟!

- كنت أقرأ فيه

- بس يا حبيبي دا كتاب تنظيمي .. ياالله ياطه ربنا يهديك .. قل لي أنت مسئوليتك ايه في التنظيم ؟!

- أنا ما أعرفش تنظيمات

وانهالت الضربات من جديد وأحس طه بأن ألمه يتجاوز ذروته الرهيبة مرة أخرى ليصبح أقرب إلى فكرة يدركها من الخارج وجاءه صوت الرئيس هادئا كالعادة:

- ليه كده يابني .. ما تقول اللي تعرفه وتخلص نفسك

- والله العظيم يا باشا أنا ما أعرف حاجة

- أنت حر. ذنبك على جنبك .. خللي بالك أنا الوحيد الطيب هنا .. الضباط دول كفرة ومجرمين ومش بس بيضربوا .. دول بيعملوا حاجات قبيحة جدا.. ناوي تتكلم ولا لأ..؟!..

- والله العظيم ما أعرف حاجة

- خلاص.. أنت حر..

وكأنها كلمة السر ، ما أن نطق بها الضابط حتى انهالت الضربات من كل اتجاه على طه ثم ألقوا به منكفئا على الأرض وبدأت أكثر من يد تكشف جلبابه وتنزع عنه ملابسه الداخلية وقاومهم بكل قوته لكنهم تكاثروا عليه وثبتوا جسده بأيديهم وأقدامهم وامتدت يدان غليظتان فشدتا عضلتي إليته وفرقتا بينهما وأحس بجسم صلب ينغرز في مؤخرته ويقطع أنسجته الداخلية فأخذ يصرخ . صرخ بأعلى صوته . صرخ حتى أحس بحنجرته تتمزق .

• • •

بحلول الشتاء بدأ عبد ربه حياته الجديدة ..

انتهت فترة تجنيده في الأمن المركزي وخلع زيه العسكري إلى الأبد واستبدل به الملابس الإفرنجية وتسلم العمل في الكشك الجديد ولم يلبث أن أرسل في إحضار زوجته هدية وابنه الرضيع وائل من الصعيد وسكنوا جميعا في حجرة فوق سطح عمارة يعقوبيان استأجرها لهم حاتم رشيد، تحسنت صحة عبده وزاد وزنه وبان عليه الاستقرار وتخلص من الطابع الهزيل البائس للمجندين وبدا أقرب إلى تاجر قاهري شاب ناجح مفعم بالثقة و النشاط (وإن ظل محتفظا بلكنته الصعيدية الثقيلة وأظافره الطويلة المتسخة وأسنانه المصفرة من أثر التدخين وبقايا الطعام التي لا ينظفها أبدا) وقد حقق أرباحا معقولة من بيع السجائر والحلويات والمرطبات وتقبل أهل السطح عبده وأسرته بطريقتهم مع كل الجيران الجدد : ترحاب مشوب بالحذر والفضول لكنهم يوما بعد يوم أحبوا هدية زوجة عبده ، بجسدها الرشيق الممشوق وجلبابها الأسود وسمرتها الداكنة والوشم الأزرق الغامق أسفل ذقنها وطعامها الصعيدي (البتاو والويكا) ولكنتها الأسوانية التي يحلو لهم تقليدها ضاحكين .. قال عبده لجيرانه انه يعمل طباخا عند حاتم رشيد لكنهم لم يصدقوه لأنهم يعرفون شذوذ حاتم ولأنه كان يبيت معه مرتين كل أسبوع على الأقل وكانوا فيما

بينهم يتندرون على هذه "الطبخات الليلية" التي يجهزها عبده لسيده ، كانوا يعرفون الحقيقة ويتقبلونها وكان سلوكهم عموما إزاء أي شخص منحرف يتوقف على قدر محبتهم له، إذا كرهوه ثاروا عليه انتصارا للفضيلة وتشاجروا معه بشراسة ومنعوا أولادهم من الاختلاط به ، أما إذا أحبوه مثل عبد ربه فانهم يغفرون له ويتعاملون معه باعتباره ضالا ومسكينا ويرددون أن كل شيء في النهاية قسمة ونصيب كما أن هدايته ليست بعيدة على ربنا وسبحانه وتعالى و" ياما ناس كانوا أسوأ من ذلك ثم هداهم ربنا وفتح عليهم وصاروا من أولياء الله"، هكذا يقولون ويمصمصون شفاههم ويهزون رءوسهم بتعاطف .. وقد مضت حياة عبد ربه بلا مشاكل تقريبا لكن علاقته بزوجته هدية ظلت متوترة ، كانت سعيدة بحياتها الجديدة الرغدة لكن شيئا ما عميقا وشائكا ظل يضطرم بينهما ، يعلو ويخبو ويتوارى أحيانا لكنه دائما موجود ، عندما يأتي إليها في الصباح بعد ليلة قضاها مع حاتم ، يكون مرتبكا وعصبيا ويتحاشى النظر إلى عينيها ويعنفها بشدة على أقل هفوة فتقابل ثورته بابتسامة حزينة تستفزه أكثر فيصرخ :

- انطقي يا بجم ..

- الله يسامحك ..

تجيبه هدية بصوت خافت وتنسحب من أمامه حتى

يهدأ ، وعندما يضمهما الفراش أثناء الغرام كثيرا ما يفكر عبده في عشيقه حاتم ويحس عندئذ بأنها تقرأ أفكاره فيدفن قلقه في جسدها . يضاجعها بعنف بالغ وكأنما ليمنعها من التفكير أو كأنه يعتدي عليها عقابا لها على معرفتها بشذوذه وعندما يفرغ يستلقي على ظهره ويشعل سيجارة ويظل محدقا في سقف الحجرة ، وترقد هي بجواره ويظل الشيء الشائك معلقا بينهما لا يستطيعان تجاهله ولا الإشارة إليه ، مرة واحدة استجاب عبده لنازع داخلي غامض ..كان قد تعب من التجاهل وثقل الأمر على قلبه وتمنى في قرارة نفسه لو تواجهه هدية بدلا من هذه المواربة المؤلمة ، لو تثور في وجهه وتتهمه باللواط ، عندئذ يتحرر من العبء ويكشف لها كل شيء ويذكر لها ببساطة أنه لا يستطيع الاستغناء عن حاتم لأنه يحتاج إلى المال .. قال لها فجأة:

- عارفة يا هدية .. حاتم بك دا إنسان طيب جدا
- ...
- لو تعرفي قلبه علينا قد ايه ؟!!
- ...
- ساكتة ليه ؟!
- عشان لاهو طيب ولا يحزنون .. كل الحكاية انك أمين وهو معتمد عليك في الشغل

كانت هذه الحجة التي ترددها أمام الجيران وقد

تكلمت بحدة لأنه جرح تجاهلها الذي يعفيها من الحرج وندم هو قليلا على اندفاعه فقال مهدئا :

- ياستي ..هو يشكر برضه لأنه عمل لنا كل الجمايل ده

- ما فيش جمايل ..كل واحد بيعمل لمصلحته وانت فاهم وأنا فاهمة .. وربنا يتوب علينا من حاتم ومن شغلته ومن أيامه كلها..

وقعت كلمتها ثقيلة عليه فلاذ بالصمت وأدار وجهه ناحية الحائط فشعرت ناحيته بإشفاق .. اقتربت منه وأخذت كفه بين يديها وقبلتها وهمست بحنان:

- يا أبو وائل .. ربنا يخليك لنا ويرزقك برزقنا في الحلال .. نفسي تحوش قرش ينفعنا وتفتح لك كشك ملكك أنت ولاحد يبقى له عندك حاجة .. لاحاتم ولاغيره ..

• • •

على طريقة الدول الاستعمارية الكبرى يهدف ملاك خله إلى الامتداد والسيطرة ..تدفعه دائما قوة داخلية ملحة للاستحواذ على كل شيء في متناول يده مهما تكن قيمته وبأي طريقة وهو منذ وصل إلى السطح لم ينقطع عن التوسع في كل اتجاه .. بدأ الأمر بحمام صغير مهجور

مساحته متر في متر يقع على يمين المدخل ، ما أن رآه ملاك حتى شرع في الاستيلاء عليه :..وضع صناديق كرتونية فارغة أمامه ثم بدأ في تخزين بعضها داخل الحمام وشيئا فشيئا قام بإغلاقه بقفل كبير وضع مفتاحه في جيبه بحجة وجود بضائع داخل الصناديق معرضة للسرقة إذا ظل الحمام مفتوحا وبعد الحمام استولى على مساحة كبيرة من السطح ملأها بعدة ماكينات تفصيل قديمة ومعطلة وأخبر السكان (المنزعجين بالطبع من هذا الأمر) بأن هذه الماكينات تنتظر شخصا ما سيأخذها في أقرب فرصة لإصلاحها لكن هذا الشخص يتخلف دائما عن موعده ويتصل بملاك تليفونيا في آخر لحظة ويخبره بأن طارئا ما قد حدث ويؤكد أنه قادم بالتأكيد بعد أسبوع أو أسبوعين على الأكثر لأخذ الماكينات .. وهكذا ظل ملاك يسوف حتى تمكن من فرض الأمر الواقع أما التجويف الكبير الموجود في جدار السطح فقد انتزعه بضربة واحدة مفاجئة، في أقل من ساعة أحضر ثلاثة نجارين عملوا بابا خشبيا يغطي التجويف ووضعوا عليه قفلا احتفظ بمفتاحه وهكذا حصل من الهواء على دولاب إضافي لتخزين بضاعته .. وكان ملاك أثناء هذه المعارك - على طريقة الساسة المخضرمين - يمتص غضب السكان واعتراضهم بكل طريقة بدءا من التهدئة إلى تمييع الموضوع وحتى

المشاجرات العنيفة إن لزم الأمر (وقلما لزم) وقد ساعده على ذلك لحسن الحظ، أن الأستاذ حامد حواس بعد ما أرسل الشكاوى إلي جميع المسئولين في الدولة تقريبا. نجح أخيرا في إلغاء نقله التعسفي إلى القاهرة وعاد إلى موطنه الأصلي في المنصورة وبذلك استراح ملاك من غريم عنيد كفيل بإفساد خططه التوسعية في السطح، على أن المكاسب الصغيرة مثل الحمام والدولاب لم تكن لترضي شهوة ملاك العقارية إلا بقدر ما يرضي قائدا عسكريا كبيرا انتصاره في لعبة الشطرنج، كان يحلم بخبطة كبيرة تمنحه مبلغا ضخما : قطعة أرض حلوة يستولي عليها بوضع اليد مثلا أو شقة كبيرة يموت شاغلها فيأخذها لنفسه، وهذه الحالة الأخيرة شائعة في وسط البلد فكثيرا ما يموت أجنبي عجوز، وحيدا بلا أسرة، فيستولي على شقته أقرب المصريين إليه، المكوجي أو الطباخ أو زوج الخادمة، الذي يسارع بالإقامة في الشقة ويحرر محضرا يثبت إقامته فيها ويغير الأقفال ويبعث إلى نفسه خطابات مسجلة (بغرض إثبات الحالة) ويتفق مع شهود كاذبين يؤكدون أمام المحكمة إقامته الدائمة مع الأجنبي المتوفى ثم يكلف أحد المحامين بمتابعة القضية الطويلة البطيئة ضد صاحب العمارة الذي يضطر غالبا في النهاية إلى قبول التسوية مع مغتصب الشقة مقابل مبلغ أقل بكثير من قيمتها الفعلية،

ضربة حظ كهذه ظلت تداعب أحلام ملاك كما يداعب النسيم أغصان الشجر واستعرض الشقق القابلة للاستيلاء عليها في عمارة يعقوبيان فوجد أقربها إلى يده شقة زكي الدسوقي ، ست حجرات وصالة وحمامان وشرفة كبيرة تطل على سليمان باشا وزكي رجل وحيد عجوز قد يموت في أية لحظة ، والشقة إيجار والإيجار لا يورث ، كما أن وجود أخيه أبسخرون داخل الشقة سوف يسهل لملاك الاستيلاء عليها في اللحظة الحاسمة ، وبعد تفكير واستشارات قانونية موسعة استقر ملاك على الخطة : عقد شركة وهمية يوقعه مع زكي الدسوقي ويسجله في الشهر العقاري ثم يخفيه حتى إذا مات زكي أظهر ملاك العقد فلا يجوز حينئذ طرده من الشقة باعتباره شريكا تجاريا للمتوفى، ولكن كيف يوقع زكي على العقد ..؟! من هنا نشأ التفكير في بثينة السيد ، زكي الدسوقي ضعيف أمام النسوان وتستطيع امرأة شاطرة أن تغافله وتأخذ توقيعه بدون أن يشعر ، وقد عرض ملاك على بثينة مبلغ خمسة آلاف جنيه مقابل حصولها على توقيع زكي الدسوقي ومنحها يومين مهلة للتفكير ، لم يساوره شك في أنها ستوافق لكنه أراد ألا يبدو متلهفا على الاتفاق ووافقت كما توقع لكنها سألته مباشرة بوضوح :

- .. إذا جبت لك العقد وعليه إمضاء زكي

الدسوقى .. ايه يضمن لي أنك تدفع .. ؟!
.. وكان ملاك جاهزا للرد فقال بسرعة :
– النظام سلم واستلم .. خللي العقد معك لغاية ما تأخذي المبلغ بالكامل ..
وابتسمت بثينة وقالت :
– يعني اتفقنا .. لو ما فيش فلوس ما فيش عقد ..؟!
– طبعا ..

* * *

لماذا وافقت بثينة .. ؟!
.. ولماذا ترفض ؟!!..خمسة آلاف جنيه مبلغ جميل تقضي بها احتياجات اخوتها وتشترى ما يلزمها لتجهيز نفسها كما أن ملاك سيأخذ الشقة بعد وفاة زكى الدسوقى الذي لن يعرف أبدا بعملتها ولن يؤذيه شيء لأنه سيكون قد مات .. وحتى لو أن ذلك يؤذيه فلماذا تشفق عليه ؟! .. انه في النهاية مجرد عجوز متصاب عينه فارغة ويستحق ما يجرى له .. كانت قد فقدت إشفاقها على الناس وتكونت حول مشاعرها قشرة سميكة من اللامبالاة ، ذلك الزهق الذي يصيب المراهقين والمحبطين والمنحرفين فيمنعهم من التعاطف مع الآخرين ، وقد نجحت بعد محاولات متكررة في التخلص من شعورها بتأنيب الضمير ، دفنت إلى الأبد

الإحساس بالإثم الذي كان ينتابها وهي تتعرى أمام طلال وتغسل عن ثيابها نجاسته ثم تمد يدها إليه لتقبض عشرة جنيهات ، صارت أكثر قسوة ومرارة وجرأة ولم تعد تبالي حتى بما يردده سكان السطح حول سمعتها ، كانت تعرف من مخازيهم وفضائحهم ما يجعل تظاهرهم بالفضيلة أمرا مضحكا ، إذا كانت هي أقامت علاقة مع طلال لاحتياجها للنقود فإنها تعرف نسوة في السطح يخن أزواجهن لمجرد تحقيق المتعة ، كما إنها في النهاية لازالت بكرا وتستطيع الزواج من أى رجل محترم وتقطع لسان من يتكلم عنها بسوء .. بدأت بثينة العمل عند زكي الدسوقي وهي تتحين الفرصة لاختلاس توقيعه على العقد لكن الأمر لم يكن سهلا لأنه ليس ذلك العجوز الكريه الذي تخيلته لكنه على العكس لطيف ومهذب ويعاملها باحترام فلا تشعر معه أبدا أنها تؤدى مهمة مدفوعة الأجر كما كانت تشعر مع طلال الذي كان يجردها من ثيابها ويعبث بجسدها بغير أن يوجه لها كلمة واحدة ، كان زكي رقيقا معها ، تعرف إلى أسرتها وأحب اخوتها الصغار واشترى لهم هدايا كثيرة وغالية ،كان يحترم مشاعرها ويستمع إلى ما تقوله باهتمام ويحكي لها حكايات شائقة عن الزمن القديم ، حتى لقاؤهما في الفراش لم يترك في نفسها الإحساس بالقرف الذي كان يتركه طلال ، كان زكي يلامسها برقة وكأنه يخشى عليها

من أثر أصابعه ، وكأنه يداعب وردة قد تتمزق أوراقها من أدنى ضغط وكان يقبل يديها كثيرا (ولم تتصور يوما أن رجلا سيقبل يديها) وفي الليلة الأولى عندما التقى جسداهما همست في أذنه برقة وهي تحتضنه :

- خللى بالك .. أنا بنت ..

وضحك بصوت خافت وهمس

- عارف ..

ثم قبلها فشعرت بجسدها يذوب تماما بين ذراعيه .. كانت له طريقته الساحرة في الغرام .. يستعيض بالخبرة عن العنفوان وكأنه لاعب قديم يعوض ضعف لياقته بمهاراته العالية ، وتمنت بثينة في نفسها لو أن زوجها الذي سوف ترتبط به يوما يكون رقيقا مثله لكن إعجابها المتزايد به كان على نحو ما يضايقها لأنه يستدعي داخلها شعورها بالإثم ، انه لطيف معها وهي تخونه وتؤذيه ، هذا الرجل الطيب الذي يحنو عليها ويدللها ويحكي لها أسرار حياته لايمكن أن يتصور أبدا أنها تعد الخطة لتستولي على شقته بعد موته ، وهي تفكر في ذلك فتحتقر نفسها وتكرهها ويصعب عليها أن تخدعه كما يصعب على الجراح إجراء عملية لزوجته أو أولاده وقد همت بأخذ توقيعه على العقد أكثر من مرة وهو مخمور لكنها تراجعت في آخر لحظة ، لم تستطع ، وبعد ذلك - لدهشتها - لامت نفسها بشدة

وأحست بالحنق لتخاذلها ، والحق أن إشفاقها علي زكي العجوز وإحساسها بالذنب من ناحية ورغبتها العارمة في المال من ناحية أخرى ظلا يتنازعان داخلها بنفس القوة ، حتى استجمعت إرادتها مرة وقررت أن تحسم الأمر وتختلس توقيعه في أقرب فرصة ..

• • •

- ..." لاحظي إن كل بدلي شتوية .. الحفلات دي كنت أحضرها في الشتاء وفي الصيف كنت بأسافر أوروبا.."

كانا جالسين في مطعم مكسيم بعد أن تناولا العشاء وقد انتصف الليل وخلا المكان من الرواد . ارتدت بثينة فستانا جديدا أزرق يكشف عن نحرها الناصع ومفرق نهديها وجلس زكي بجوارها يحتسي الويسكي ويعرض عليها مجموعة من صوره القديمة ، كان يبدو في الصور شابا وسيما أنيقا ضاحكا يمسك بكأس في يده ويقف وسط رجال يرتدون البدلات الكاملة ونساء جميلات بفساتين سهرة عارية وأمامهم موائد حافلة بالطعام وزجاجات الخمر الفاخرة .. أخذت بثينة تتفرج على الصور بشغف ثم أشارت إلى إحداها وصاحت ضاحكة :

- ..إيه ده؟! البدلة دي شكلها غريب جدا ..
- دي بدلة سهرة .. زمان كانت كل مناسبة لها بدلة مخصوصة ..بدلة الصبح غير بعد الظهر غير السهرات ..
- تعرف كان شكلك حلو .. شبه أنور وجدي
قهقه زكى عاليا ثم سكت لحظة وقال :
- أنا عشت أيام جميلة يا بثينة .. زمن تاني .. مصر كانت زي أوروبا ..نظافة وأناقة والناس مؤدبة ومحترمة ولا أحد يتجاوز حدوده أبدا... أنا نفسي كنت حاجة ثانية . كان لي وضعي وعندي فلوس وكل أصحابي من مستوى معين وعندي أماكن مخصوصة أسهر فيها .. نادي السيارات وكلوب محمد علي ونادي الجزيرة .. كانت أيام .. كل ليلة ضحك وسهر وشرب وغنا. ومصر كان فيها أجانب كثير.. معظم السكان في وسط البلد كانوا أجانب لغاية لما عبد الناصر طردهم سنة ٥٦ ..
- هو طردهم ليه ..؟!
- طرد اليهود الأول وبقية الأجانب خافوا على أنفسهم ومشوا .. على فكرة إيه رأيك في عبد الناصر؟!
- أنا اتولدت بعد ما مات .. ما أعرفش .. ناس بتقول عليه بطل وناس بتقول عليه مجرم ..
- عبد الناصر أسوأ حاكم في تاريخ مصر كله .. ضيع البلد وجاب لنا الهزيمة والفقر.. التخريب اللي عمله

في الشخصية المصريـة محتاج سنين طويلة لاصلاحه ..عبد الناصر علم المصريين الجبن والانتهازية والنفاق ..

– أمال ليه الناس بتحبه ؟!

– من قال الناس بتحبه..؟!

– ناس كثير أعرفهم بيحبوه ..

– اللي يحب عبد الناصر إما جاهل أو مستفيد .. الضباط الأحرار كانوا مجموعة عيال من حثالة المجتمع .. معدمين أولاد معدمين ..والنحاس باشا كان رجل طيب وقلبه على الفقراء فسمح لهم بدخول الكلية الحربية وكانت النتيجة أنهم عملوا انقلاب سنة ٥٢ .. حكموا مصر وسرقوها ونهبوها وعملوا ملايين .. طبعا لازم يحبوا عبد الناصر لأنه رئيس العصابة ..

كان يتكلم بمرارة وعلا صوته من الانفعال وأحس بذلك فاغتصب ابتسامة وقال:

– وأنت ذنبك ايه أوجع دماغك بالسياسة ... ايه رأيك أسمعك حاجة حلوة ..؟! ..كريستين .. تعالي من فضلك ..Viens s' il te plait

... كانت كريستين جالسة إلى مكتبها الصغير بجوار البار وقد ارتدت نظارتها الطبية وانهمكت في مراجعة الحسابات ، وقد تعمدت ذلك لكي تتركهما وحدهما ثم أقبلت الآن وعلى وجهها ابتسامة عريضة ، كانت تحب

زكـي لدرجـة أن تبتهـج بصدق عندما تراه سعيدا كما أنها ارتاحت كثيرا لبثينة .. صاح زكي بصوت ثمل بالفرنسية وهو يمد ذراعيه ناحيتها :

– كريستين .. ألسنا صديقين قديمين ؟!

– طبعا ..

– إذن .. يجب عليك أن تلبي كل ما أطلبه فورا ؟!

وضحكت كريستين وقالت :

– هذا يتوقف على نوع الطلب

– مهما يكن الطلب يجب أن تنفذيه

– عندما تكون شربت نصف زجاجة ويسكي كما فعلت الليلة فيجب أن أحترس من طلباتك ..!

– .. أريدك أن تغني الآن من أجلنا ..

– أغني ؟!.. الآن ..؟!.. لايمكن ..

كان الحوار يتكرر بينهما دائما على هذا النحو وكأنه طقس ضروري : يطلب إليها الغناء فتعتذر ويلح عليها فتحتج وتتعلل ثم تقبل في النهاية ، وبعد دقائق جلست كريستين أمام البيانو وأخذت تداعب المفاتيح بأصابعها فانبعثت نغمات متفرقة وفجأة ، في لحظة معينة ، رفعت رأسها وكأنها تلقت هاتفا ما كانت تنتظره فأغمضت عينيها وتوتر وجهها وعزفت فترددت الموسيقى بقوة في أرجاء المكان وانطلق صوتها عاليا صافيا ، كانت تغني لاديث بياف ببراعة ..

لا .. لست نادمة على شيء .. اي شيء
لا الخير الذي قدم إلى ولا الشر .. كل شيء يتساوى عندي
أشعلت النار في ذكرياتي .. أحزاني وأفراحي لم أعد أحتاج إليهم
تخلصت من الماضي وعدت إلى نقطة الصفر لكي أبدأ في حبك.

• • •

بعد انقضاء السهرة اجتازا ميدان سليمان باشا في طريقهما إلى المكتب ، كان زكي مخمورا تماما فأمسكت به بثينة من خصره لتسنده وأخذ يصف لها بلسان ثقيل شكل الميدان زمان .. توقف أمام المحلات المغلقة وقال :

- هنا كان فيه بار جميل صاحبه يوناني وجنبه كوافير ومطعم وهنا محل لابورصا نوفا للجلود .. كل المحلات كانت قمة في النظافة وبتعرض بضائع من لندن وباريس..

ظلت بثينة تستمع إليه وترقب خطوته بقلق لئلا يسقط في الشارع وأخذا يتقدمان ببطء حتى وصلا إلي عمارة يعقوبيان فتوقف زكي أمامها وصاح :

- شـايفة الطـراز المعماري البديـع .. العمـارة دى منقولة بالمسطرة من عمارة شفتها في الحي اللاتيني في باريس ..

وحاولت بثينة أن تدفعه برفق حتـى يجتـازا الشـارع لكنه واصل :

- عارفـة يـا بثينـة أنـا بـاحس إن عمـارة يعقوبيـان ملكي .. أنا أقدم ساكن فيها.. كل بني آدم وكل متر مربع في العمارة أعرف تاريخه .. عشت فيها معظم حياتي شفت فيها أيامي الجميلة وحاسس إن عمري من عمرها .. يوم ما تتهد العمارة دي أو يجرى لها حاجة أنا هـاموت فـي نفس اليوم ..

.. ببطء وصعوبـة ، تمكنـا مـن اجتيـاز الشـارع وصعود الدرج ووصلا أخيرا الى الشقة وقالت له بثينة :

- استريح على الكنبة

فنظـر إليهـا وابتسـم ثـم جلس ببطء ، كـان يتنفـس بصوت مسموع وبدا أنه يبذل مجهودا كبيرا ليستجمع وعيه ودفعت بثينة نفسها لتتخلص من التردد فالتصقت بـه وقـالت بصوت ناعم :

- أنا طالبة خدمة منك ممكن تعملها لي ..؟!

حاول أن يرد لكنه عجز عن النطق من فرط السكر وأخذ يحملق أمامه وشهق فانتابها هاجس أنه قد يموت الآن لكنها استجمعت نفسها وقالت:

- أنا مقدمة للبنك الأهلي طلب قرض صغير .. ١٠ آلاف جنيه .. أسددها على خمس سنين بفوائد . والمطلوب ضامن. ممكن تضمني لو سمحت كانت قد وضعت يدها على ساقه وهمست له بصوت ناعم ومتهدج لدرجة أنه برغم سكره الصق وجهه بخدها وقبلها ، واعتبرته موافقا فصاحت بفرح:

- متشكرة ..ربنا يخليك ..

ثم نهضت وأخرجت الأوراق بسرعة من حقيبتها وناولته القلم

- وقع هنا من فضلك

كانت قد أعدت أوراقا حقيقية لطلب قرض ودست وسطها عقد ملاك ، وأخذ زكي يوقع وقد أمسكت بيده لتساعده لكنه توقف فجأة ، وتمتم بلسان ثقيل وقد بدا على وجهه الإعياء :

- الحمام ..

ظلت صامتة لحظة وكأنها لم تفهم فأشار بيده وقال بصعوبة :

- عاوز الحمام ..!

وضعت بثينة الأوراق جانبا وأنهضته بصعوبة واستند إلى ذراعها حتى دخل إلى الحمام وأغلقت الباب واستدارت راجعة ولما بلغت منتصف الردهة سمعت وراءها صوت ارتطام عنيف ..

تلك الليلة امتلأت كافيتيريا جروبي في شارع عدلي عن آخرها بالزبائن ، معظمهم من العشاق الصغار الذين يشعرون بالراحة في الإضاءة الخافتة لمصابيح الحديقة التي تحجب وجوههم فيتبادلون الغرام بغير إزعاج أو تطفل من أحد ، وقد دخل إلى المكان رجل في الخمسين ممتلئ وربعة يرتدي بذلة داكنة واسعة وقميصا أبيض مفتوحا بدون رابطة عنق وبدت ثيابه واسعة وغير متسقة مع جسده وكأنها لا تخصه ، جلس الرجل إلى المائدة المجاورة للباب، وطلب فنجان قهوة سادة وظل صامتا يتأمل المكان وبين الحين والحين ينظر في ساعته بقلق ، وبعد حوالي نصف ساعة وصل إلى المكان شاب أسمر نحيل يرتدي ملابس رياضية وتوجه إلى حيث يجلس الرجل الضخم وتعانق الاثنان بحرارة ثم جلسا يتكلمان بصوت خافت

- حمد لله على سلامتك يا طه .. متى خرجت ؟
- من أسبوعين
-.. أنتِ بالتأكيد مراقب ..هل فعلت كما قال لك حسان وأنت قادم إلى هنا ؟

وهز طه رأسه فاستطرد الشيخ شاكر

- الأخ حسان آمن تماما .. اجعل اتصالك بي عن طريقه وهو سيخبرك بمكان اللقاء وموعده . نحن نختار

عادة أماكن لا تثير الشبهات ..هذا المكان مثلا مزدحم ومظلم مما يجعله مناسبا .. ونلتقي أيضا في الحدائق العامة والمطاعم وأحيانا في البارات .. ولكن .. إياك أن تتعود على قعدة البارات ..

ضحك الشيخ شاكر لكن طه ظل واجما وساد صمت ثقيل ثم استطرد الشيخ بمرارة :

– مباحث أمن الدولة تشن الآن حملة إجرامية على الإسلاميين جميعا .. اعتقالات وتعذيب وقتل .. انهم يطلقون النار على إخواننا العزل أثناء القبض عليهم ثم يتهمونهم بمقاومة السلطات .. مجازر حقيقية ترتكب كل يوم ولسوف يبوءون بدم هؤلاء الأبرياء يوم القيامة .. لقد اضطررت إلى ترك مسكني والانقطاع عن المسجد .. وغيرت من مظهري كما ترى .. بالمناسبة .. ما رأيك في الشيخ شاكر في طبعته الإفرنجية ؟!

أطلق الشيخ ضحكة عالية حاول بها أن يضفي جوا من المرح ولكن عبثا.. فقد امتد بينهما ظل كئيب راسخ سرعان ما أذعن له الشيخ فتنهد واستغفر وقال :

– شد حيلك يابطه .. أنا أحس بك وأقدر ألمك يا ولدي .. أريدك أن تحتسب كل ما فعله الكفار بك عند ربنا سبحانه وتعالى ولسوف يجزينك به أفضل الجزاء بإذن الله .. واعلم إن الجنة جزاء من يتعذب في سبيل الله .. كل ما

حدث لك ضريبة هينة يدفعها المجاهدون عن طيب خاطر من أجل إعلاء كلمة الحق عز وجل .. حكامنا يدافعون عن مصالحهم وثرواتهم الحرام ونحن ندافع عن دين الله .. نحن طلاب آخرة وهم طلاب دنيا .. بضاعتهم خاسرة حقيرة أما نحن فقد وعدنا الله بنصره وهو لا يخلف وعده أبدا ..

وكأنما كان طه ينتظر كلمة الشيخ ليفرج عن أحزانه فقال بصوت أجش:

- لقد أذلوني يا مولانا .. أذلوني لدرجة أني أحسست أن كلاب الشوارع عندها كرامة أكثر مني .. تعرضت إلى أشياء لم أكن أتصور أن مسلما يفعلها أبدا

- ليسوا مسلمين بل هم كفار بإجماع الفقهاء

- حتى ولو كانوا كفارا ..أو ليس لديهم ذرة من رحمة ؟!.. أليس لديهم أولاد وبنات وزوجات يحبونهم ويشفقون عليهم ؟!.. لو إنني اعتقلت في إسرائيل لما فعل بي اليهود مثل ذلك .. بل ولو كنت جاسوسا خائنا لديني وبلدي لما فعلوا بي ذلك .. إنني أتساءل عن الجرم الذي أستحق عليه هذا العقاب الفظيع .. هل صار الالتزام بشرع الله جريمة عظمى ؟! .. أحيانا كان يهيأ إلي في المعتقل أن ما يحدث أمامي غير حقيقي .. كابوس سأصحو من النوم فأجده انتهى .. لولا إيماني بالله عز وجل لكنت قتلت نفسي

لأتخلص من هذا العذاب

بان الألم في وجه الشيخ وظل صامتا بينما ضم طـه قبضة يده وقال:

– لقد عصبوا عيني حتى لا أتعرف عليهم .. لكننـي أقسمت وعاهدت الله أن أطاردهم.. سأعرفهم وانتقم منهم واحدا واحدا

– أنصحك يا ولدي أن تلقي بهذه التجربة الأليمة وراء ظهرك .. أعرف أن ما أطلبه صعب لكنه التصرف الوحيد الصحيح في حالتك .. إن ما جرى لك في المعتقل ليس أمرا خاصا بك .. لكنه مصير كل من يجاهر بالحق في بلدنا المنكوب والمسئولون ليسوا بضعة ضباط لكنه النظام الكافر المجرم الذي يحكمنا ..يجب أن توجه غضبك إلى النظام بأسره وليس إلي أشخاص بعينهم ..قال تعالى في كتابه الكريم " وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " صدق الله العظيم .. لقد حورب المصطفى صلى الله عليه وسلم في مكة وأهين واشتد به الأذى حتى شكا لربه قلة حيلته وهوانه على الناس ، لكنه مع ذلك لم يعتبر جهاده ثأرا شخصيا من الكفار بل انصرف همه إلى نشر الدعوة وفي النهاية عندما انتصر دين الله عفا الرسول عن الكفار جميعا وأعتقهم .. هذا الدرس يجب أن تتعلمه وتعمل به

– كان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل خلقه ،

وأنا لست نبيا ، لا أستطيع أن أنسى ما فعله المجرمون ، إن ما حدث لي يطاردني في كل لحظة . أنا عاجز عن النوم ، لم أذهب إلى الجامعة منذ خروجي ولاأظنني سأذهب .. أقضي اليوم كله في حجرتي لا أكلم أحدا ويخيل إلى أحيانا أنني سأفقد عقلي

– لا تستسلم ياطه ، لقد اعتقل آلاف من الشباب الإسلامي وتعرضوا لتعذيب بشع لكنهم خرجوا من المعتقل أكثر تصميما على مقاومة الظلم، إن الهدف الحقيقي للنظام من تعذيب الإسلاميين ليس مجرد إيلامهم جسديا ولكن المطلوب تدميرهم نفسيا حتى يفقدوا قدرتهم على الجهاد .. ولو أنك استسلمت للحزن تكون حققت لهؤلاء الكفرة أهدافهم..

نظر الشيخ اليه مليا ثم أمسك بيده فوق المائدة وقال:

– متى ترجع الى الجامعة ؟!

– لن أرجع

– بل يجب أن ترجع ..أنت طالب مجتهد ومتفوق وينتظرك مستقبل باهر باذن الله .. توكل على الله وانس ما حدث وعد الى دروسك وكليتك

– لايمكن .. كيف أواجه الناس بعد ..

سكت طه فجأة ثم تقلص وجهه وزفر بقوة ..

– . لقد هتكوا عرضي يا مولانا..

– اسكت

– هتكوا عرضي عشر مرات يا مولانا .. عشر مرات

– قلت لك اسكت ياطه

هكذا صاح الشيخ بحدة لكن طه ضرب بيده على المنضدة فاهتزت الأكواب بشدة وأصدرتْ صليلا وسرعان ما نهض الشيخ من مكانه هامسا بانزعاج :

– تماسك ياطه .. الناس كلهم ينظرون إلينا .. يجب أن ننصرف من هنا فورا ..اسمع سأنتظرك بعد ساعة أمام سينما مترو .. خذ حذرك وتأكد أن أحدا لا يراقبك .

على مدى أسبوعين استعمل الحاج عزام الإقناع والإغراء والتهديد والعنف .. كل الطرق جربها مع سعاد لكنها رفضت بإصرار فكرة الإجهاض ولم تلبث الحياة أن توقفت بينهما تماما : لاكلمات غزل ولا طعام شهي ولا أحجار حشيش ولا لقاءات في الفراش ، لم يعد لديهما إلا موضوع الإجهاض ، يأتي كل يوم ويجلس أمامها : يحدثها برقة وهدوء ثم شيئا فشيئا يفقد أعصابه ويتشاجران .. يصيح:

– أنت اتفقت ورجعت في الاتفاق ..
– قوم اشنقني ..
– قلنا من الأول ممنوع الحمل ..
– هو أنت ربنا بتحلل وتحرم ؟!..ولا إحنا خلقنا في الحرام ..؟!
– اعقلي وخلصينا من الورطة دى ..الله يرضى عليك
– ..لا
– حاطلقك
– .. طلقني ..

كان ينطق لفظ الطلاق بنبرة فارغة زائفة لأنه في أعماقه كان يريد الاحتفاظ بها لكن فكرة إنجابه لطفل وهو في هذه السن مستحيلة ولو سمح هو بذلك فإن أولاده

الرجال لن يسمحوا واذا كانت الحاجة صالحة زوجته الأولى لم تعرف بزواجه الثاني فكيف يخفي الأمر عنها إذا أنجب طفلا ؟!.. عندما يئس الحاج عزام من إقناع سعاد تركها وسافر إلى الإسكندرية والتقى بأخيها حميدو وحكى له ما حدث .. تريث حميدو وأطرق مفكرا لوهلة ثم قال :

– صلي على النبيّ يا حاج .. إحنا الاثنين أولاد البلد والأصول ما تزعلش حد .. أنا أخوها صحيح لكن لايمكن أطلب منها تسقط نفسها .. الإجهاض حرام وأنا رجل أخاف ربنا

– لكن إحنا اتفقنا ياريس حميدو ..

– اتفقنا وخالفنا الاتفاق .. حقك علينا يا سيدي .. دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف .. اعطيها حقوقها الشرعية بما يرضي الله وطلقها يا حاج .. بدا له وجه حميدو في تلك اللحظة لئيما وكاذبا وكريها وتمنى فعلا لو أنه صفعه وضربه لكنه آثر الحكمة فانصرف وهو يغلي بالغضب وفي طريق العودة إلى القاهرة لمعت في ذهنه فكرة مفاجئة وقال لنفسه :

" لم يبق إلا شخص واحد أنا واثق أنه سينقذني .."

• • •

كان الشيخ السمان مشغولا للغاية بحرب الخليج كل يوم ينظم محاضرات وندوات ويكتب مقالات مطولة في الصحف ليشرح فيها الحكم الشرعي لحرب تحرير الكويت وقد استضافته الحكومة مرارا في التليفزيون ودعته إلى إلقاء خطبة الجمعة في أكبر جوامع القاهرة، وراح الشيخ يقدم للناس كافة الأدلة الشرعية على صحة الموقف الذي اتخذه الحكام العرب باستدعاء القوات الأمريكية من أجل تحرير الكويت من الاحتلال العراقي .. قضى الحاج عزام ثلاثة أيام كاملة يبحث عن الشيخ السمان حتى استطاع أخيرا أن يلتقي به في مكتبه بمسجد السلام بمدينة نصر وقد بادره وهو يتأمل وجهه بقلق :

- مالك يا مولانا .. شكلك مرهق

- لا أنام تقريبا من أول الحرب .. كل يوم ندوات ولقاءات وخلال أيام سأسافر بإذن الله إلى السعودية لحضور الملتقى العاجل لعلماء المسلمين ..

- لا يا مولانا ..لازم تحافظ على صحتك

تنهد فضيلة الشيخ وتمتم :

- كل ما عملته أقل من الواجب وأسأل الله عز وجل أن يتقبل عملي ويضعه في ميزان حسناتي ..

- ممكن تؤجل السفر إلى السعودية و تستريح قليلا

- معاذ الله أن أتقاعس .. لقد اتصل بي الشيخ

الغامدي وهو عالم جليل ولا نزكي على الله أحدا .. سوف أشترك مع الاخوة العلماء هناك في إصدار بيان شرعى لافحام مثيري الفتنة وبيان تهافت حجتهم للناس، سوف نذكر في البيان بإذن الله الأدلة الشرعية على جواز الاستعانة بالجيوش المسيحية الغربية لإنقاذ المسلمين من الكافر المجرم صدام حسين

وهز الحاج عزام رأسه مؤمنا على كلام الشيخ ومرت لحظة صمت ثم ربت الشيخ على كتفه وسأله بود :

- وأنت كيف حالك .. أظنك جئتني في مسألة ..

- ..لا أريد أن أزيد همك .

وابتسم الشيخ ورجع بجسده الممتلئ في المقعد الوثير قائلا

- أنت بالذات لايمكن أن تسبب لي هما .. تفضل احك ..

• • •

لما وصل الحاج عزام والشيخ السمان إلى شقة سعاد في عمارة يعقوبيان وجداها في ثياب البيت ، قابلت الشيخ السمان بترحاب متحفظ ودلفت بسرعة إلى الداخل وعادت بعد دقائق وقد غطت رأسها وحملت صينية فضية عليها أكواب من عصير الليمون المثلج فتناول الشيخ رشفة من

المشروب واغمض عينيه متلذذا وكأنه وجد المناسبة للدخول في الموضوع فالتفت إلى عزام وقال ضاحكا :

- عصير الليمون روعة .. مراتك ست بيت ممتازة ..يا أخي احمد ربنا على النعمة

والتقط عزام الخيط فقال :

- ألف حمد وشكر يا مولانا .. سعاد ست بيت وزوجة صالحة طيبة لكنها عنيدة ومتعبة

- عنيدة ؟!

هكذا سأل الشيخ مصطنعا الدهشة والتفت إلى سعاد التي بادرته بلهجةجادة :

- طبعا الحاج حكى لحضرتك عن المشكلة ..؟!..

- ربنا ما يجيب مشاكل أبدا .. اسمعي يابنتي .أنت امرأة مسلمة وملتزمة بشرع الله وربنا سبحانه وتعالى أمر الزوجة بطاعة زوجها في كل شئون الدنيا حتى قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه في حديثه الصحيح : "لو أن لمخلوق أن يسجد لمخلوق مثله لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها .." صدق رسول الله

- الست تسمع كلام زوجها في الحلال ولا في الحرام ؟! ..

- أعوذ بالله من الحرام يا ابنتي ..لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق

- طيب قول له يا مولانا ..عاوزني أجهض نفسي..

ساد الصمت لحظة ثم ابتسم الشيخ السمان وقال بصوت هادئ :

- يابنتي أنت اتفقت معه من الأول على عدم الإنجاب والحاج عزام رجل كبير وظروفه لاتسمح بذلك ..

- خلاص.. يطلقني بما يرضي الله

- ما هو لو طلقك وأنت حامل يبقى ملزم شرعا بالمولود ..

- يعني أنت موافق أسقط نفسي..؟!

- أعوذ بالله .. الإجهاض حرام طبعا لكن بعض الآراء الفقهية الموثوق فيها تؤكد أن التخلص من الحمل خلال أول شهرين لا يعتبر إجهاضا لأن الروح تنبعث في الجنين في بداية الشهر الثالث

- من قال الكلام ده ؟!

- فتاوى موثقة لكبار علماء الدين..

ضحكت سعاد ساخرة وقالت بمرارة :

- دول لازم مشايخ أمريكان ..

- كلمي سيدنا الشيخ بأدب ..

هكذا نهرها الحاج عزام فحدجته بنظرة متمردة وقالت متحدية

- كل واحد يؤدب نفسه

وتدخل الشيخ مهدئنا :

- أعوذ بالله من غضب الله .. يا سعاد يا بنتي اخزي الشيطان .. أنا لا أتحدث في الموضوع برأيي

- معاذ الله – لكني أنقل إليك رأيا فقهيا معتبرا.. لقد ذهب فقهاء ثقاة إلى أن إجهاض الجنين قبل الشهر الثالث لا يعتبر قتلا للنفس إذا تم لظروف قاهرة ..

- .. يعنى أسقط نفسي ويبقى حلال ؟! .. من يقول كده ؟!.. لايمكن أصدقك لو حلفت لي على المصحف ؟!

وهنا نهض الحاج عزام واقترب منها وصاح غاضبا :

- بأقولك كلمي سيدنا الشيخ بأدب

فوقفت سعاد وصاحت وهي تلوح بذراعيها :

- سيدْنا الشيخ إيه !! ..كل حاجة بانت .. أنت مقبضه فلوس عشان يقول كلمتين خايبين .. بقى الإجهاض حلال في أول شهرين ..؟! .. يا شيخ حرام عليك .. تروح من ربنا فين ..؟!

لم يتوقع الشيخ السمان ذلك الهجوم المفاجئ فاربد وجهه وقال محذرا :

- احترمي نفسك يا بنيتي وإياك تتجاوزي حدودك

- أتجاوز إيه واتنيل إيه .. يا شيخ يا مسخرة .. دفع لك كم عشان تيجي معه..؟!..

- آه يا سافلة يا بنت الكلب

هكذا صاح الحاج عزام وصفعها على وجهها فصرخت وأخذت تولول لكن الشيخ السمان أمسك به وجذبه بعيدا وراح يحدثه بصوت خافت ولم يلبث الاثنان أن انصرفا وصفقا الباب وراءهما ..

• • •

طاردتهما سعاد بالشتائم واللعنات ، كانت ترتعد غضبا من كلام الشيخ السمان ومن عزام الذي ضربها لأول مرة منذ زواجهما وظلت تحس بألم الصفعة على وجهها وعزمت في نفسها على أن تنتقم منه ، لكنها مع ذلك شعرت براحة خفية لأنها وصلت معه إلى مواجهة سافرة ، انقطع بينهما أي خيط يلزمها ويحرجها ، لقد ضربها وشتمها ومن الآن فصاعدا ستعبر عن احتقارها وكراهيتها له بأوضح صورة ، والحق أن قدرتها على الشجار والشتائم كانت جديدة عليها وكأنما انفجر الشر في نفسها فجأة ، تراكم في نفسها كل ما عانته وتعذبت به وحان وقت الحساب ، إنها الآن مستعدة لأن تقتله أو يقتلها قبل أن تجهض نفسها .. لما هدأت قليلا سألت نفسها لماذا تحرص على حملها إلى هذه الدرجة ؟! .. إنها طبعا متدينة

والإجهاض حرام كما أنها تحس برعب من عملية الإجهاض نفسها لأن نساء كثيرات يمتن أثناءها..كل هذه اعتبارات صحيحة لكنها ثانوية ... ثمة رغبة غريزية راسخة تدفعها إلى القتال بشراسة دفاعا عن حملها ، تحس كأنها لو أنجبت سوف تسترد كرامتها، ستكتسب خياتها معنى جديدا محترما ، لن تكون المرأة الفقيرة التي اشتراها المليونير عزام ليستمتع بها ساعتين بعد الظهر بل زوجة حقيقية لايمكن تجاهلها وإهانتها ، ستكون أم الولد ، تخرج وتدخل وهي تحمل على ذراعيها ابن الحاج ، أو ليس ذلك من حقها ؟!.. لقد جاعت وتسولت وذاقت الذل ورفضت أن تنحرف مائة مرة وفي النهاية قبلت أن تمنح جسدها لعجوز في سن أبيها ، أن تتحمل ثقله وكآبته ووجهه المليء بالتجاعيد وشعره المصبوغ ورجولته الذابلة ، أن تتظاهر بأنها ارتوت وجسدها يؤلمها من الرغبة ، أن يأتيها وينصرف من عندها خلسة وكأنها عشيقة ، أن تنام كل ليلة وحدها في فراش بارد وشقة متسعة مخيفة وتضطر كل ليلة لإضاءة الأنوار لتبدد الوحشة ، أن تبكي كل يوم شوقا إلى ابنها ثم يحين موعد عزام فتتزين له وتؤدى دورها الذي تقبض ثمنه ،.. أو ليس من حقها بعد كل هذا الذل أن تشعر مرة بأنها زوجة وأم ، أليس من حقها أن تنجب ابنا شرعيا يرث ثروة تقيها شر الفقر إلى الأبد ..؟!.. لقد وهبها الله

هذا الحمل كثـواب عـادل لصبرها الطويـل وهـي لـن تتنازل عنه أبدا بأي ثمن .. هكذا فكرت سعاد ثم دخلت إلى الحمام وخلعت ثيابها وعندما تدفق الماء الساخن على جسدها العاري انتابها إحساس غريب وجديد بأن جسدها الذي طالما استعمله عزام ولوثه وأذله قد تحرر فجأة وصار ملكها وحدها ، يداها وذراعاها وساقاها وصدرها ، كل جزء في جسمها يتنفس بحرية وثمة نبض خافت جميل تشعربه داخلها ، نبض سوف يكبر وينمو ويملؤها يوما بعد يوم حتّى يحين الوقت فيخرج طفلا جميلا يشبهها ويرث ثروة أبيه ويعيد إليها كرامتها ووضعها اللائق ، فرغت من الحمام وجففت جسدها وارتدت ملابس النوم وأدت صلاة العشاء والسنة ثم جلست في فراشها تقرأ القرآن حتى غلبها النعاس.

* * *

– مين ..؟!

.. انتبهت من نومها على حركة وهمهمة خارج الغرفة ، وفكرت في أن لصا تسلل إلى الشقة فارتجفت من الرعب وقررت أن تفتح النافذة وتستغيث بالجيران

– مين ..؟!

صرخت من جديد بصوت حاد وأصاخت السمع

وهي جالسة على فراشها في الظلام لكن الأصوات انقطعت وساد السكون وقررت أن تستطلع الأمر بنفسها فتحركت وأنزلت قدميها من السرير لكن الخوف شل أطرافها فاقتنعت نفسها بأن الأمر مجرد هواجس وعادت إلي الفراش ووضعت وسادة على رأسها ومضت لحظات وهي تحاول الاستغراق في النوم ، وفجأة انفتح باب الحجرة بعنف حتى ارتطم بالجدار وهجموا عليها .. كانوا أربعة أو خمسة ، لم تتبين وجوههم في الظلام ، انقضوا عليها وكتم أحدهم فمها بالوسادة وأمسك الآخرون بيديها وقدميها وحاولت بكل قوتها أن تتملص منهم ، أن تصرخ بأعلى صوتها وعضت يد الرجل الذي يكممها لكن مقاومتها فشلت لأنهم أوثقوها بقوة وشلوا حركتها تماما ، كانوا أقوياء ومدربين وكشف أحدهم كم البيجاما التي ترتديها وأحست بشيء كالشوكة المدببة ينغرز في ذراعها وشيئا فشيئا بدأ جسدها يضعف ويسترخي ثم غامت عيناها وأحست بأن كل ما حولها يبتعد ويتلاشى وكأنه حلم ..

* * *

أنشئت صحيفة " لوكير " Le Çaire في القاهرة منذ مائة عام في نفس المبنى العتيق الذي تشغله الآن في شارع

الجلاء وظلت منذ إنشائها تصدر يوميا باللغة الفرنسية من أجل الناطقين بها المقيمين في القاهرة ولما تخرج حاتم رشيد في كلية الآداب استطاعت والدته الفرنسية أن تجد له عملا في الجريدة وقد أثبت جدارته في الصحافة وترقى بسرعة حتى عين رئيسا للتحرير في سن الخامسة والأربعين وأدخل على الجريدة تطويرا شاملا وأضاف قسما باللغة العربية وجهه إلى القارئ المصري فارتفع توزيع الجريدة في عهده إلى ثلاثين ألف نسخة يوميا وهو رقم ضخم بالنسبة للصحف المحلية الصغيرة، وجاء هذا النجاح كنتيجة طبيعية وعادلة لكفاءة حاتم ودأبه واتصالاته الفعالة بالأوساط المختلفة وقدرته الهائلة على العمل التي ورثها عن أبيه ، وإذا عرفنا أن سبعين شخصا (بين موظفين وصحفيين ومصورين) يعملون تحت رئاسته في الجريدة فأول سؤال يتبادر إلى الذهن : هل يعرفون بشذوذه الجنسي؟!..الإجابة نعم بالطبع لأن الناس في مصر يهتمون بالحياة الشخصية وينقبون عن أسرارها بإلحاح وتركيز .. وموضوع كالشذوذ يستحيل إخفاؤه ، فكل العاملين في الجريدة يعرفون بأن رئيسهم شاذ ، وبرغم ما يثيره ذلك لديهم من تقزز واحتقار فان انحراف حاتم رشيد يظل مجرد ظل باهت بعيد لصورته القوية المقنعة في العمل ، انهم يدركون شذوذه لكنهم لا يشعرون به في تعاملهم اليومي

معه أبدا لأنه جاد وصارم ربما أكثر مما يجب ، وهو يقضي معهم أكثر ساعات اليوم فلا تبدر منه أدنى حركة أو لفتة تنم عن ميوله وإن لم يخل الأمر بالطبع من حوادث سوقية وقعت أثناء رئاسته للجريدة : كان هناك مرة صحفي كسول وفاشل فمنحه حاتم عدة تقارير سيئة تمهيدا لنقله نهائيا من الجريدة ، وعرف الصحفي بنية رئيس التحرير فقرر أن ينتقم واستغل وجود الصحفيين جميعا في اجتماع التحرير الأسبوعي وطلب الكلمة فلما أذن له حاتم بادره قائلا بنبرة ساخرة :

- أريد أن أعرض على سيادتك فكرة تحقيق صحفي عن ظاهرة الشذوذ الجنسي في مصر ..

ساد صمت متوتر بين الحاضرين ولم يخف المحرر ابتسامته إمعانا في إهانة حاتم الذي سكت وأطرق ومسح بيده على شعره الناعم (وهذه عادته عندما يفاجأ أو يتوتر) ثم رجع بظهره في المقعد وقال بهدوء :

- لا أظن هذا الموضوع يهم القراء ..

- بل يهمهم جدا لأن هناك تزايدا كبيرا في عدد الشواذ وبعضهم يحتل الآن مناصب قيادية في البلد والدراسات العلمية تؤكد أن الشاذ لا يصلح نفسيا لقيادة العمل في أية مؤسسة نتيجة للتشوهات النفسية التي يسببها الشذوذ الجنسي ..

كان الهجوم قاسيا وكاسحا ، وقرر حاتم أن يرد بعنف فقال بثبات :

- تفكيرك التقليدي أحد أسباب فشلك الصحفي..

- وهل صار الشذوذ سلوكا تقدميا ..؟!

- ولا هو أيضا المشكلة القومية في بلادنا .. يا أستاذ يا متعلم مصر لم تتخلف بسبب الشذوذ الجنسي بل بسبب الفساد والديكتاتورية والظلم الاجتماعي .. كما أن التلصص على حياة الناس الخاصة سلوك مبتذل لا يليق بجريدة عريقة مثل لوكير

وحاول الصحفي أن يعترض فقاطعه حاتم بحدة :

- المناقشة انتهت ..أرجوك تسكت حتى نتمكن من مناقشة الموضوعات الأخرى ..

وهكذا كسب حاتم الجولة بجدارة وأكد للجميع قوة شخصيته وعدم خضوعه للابتزاز وفي المرة الأخرى الحرجة ، الأكثر سوقية ، تحرش به محرر تحت التمرين، كان حاتم واقفا بين عمال المطبعة يشرف على تنفيذ الجريدة عندما تظاهر المحرر بمناقشته واقترب منه وأشار إلى شيء في الورق على المنضدة والتصق من الخلف بجسده ،و أحس حاتم فورا بمعنى الحركة فابتعد بهدوء واستأنف جولته في المطبعة بطريقة عادية ولما عاد إلى مكتبه بعث في طلب المحرر وصرف الموجودين في

الحجرة ثم تركه واقفا لبضع دقائق وأخذ يراجع أوراقا أمامه بغير أن يسمح له بالجلوس أو يلتفت إليه وأخيرا رفع رأسه ونظر إليه مليا وقال ببطء :

- اسمع .. إما أن تحترم نفسك أو أطردك فورا من الجريدة .. فاهم ..؟!

وحاول المحرر أن يتظاهر بالدهشة والبراءة لكن حاتما قال بلهجة حاسمة قبل أن يعود إلى مطالعة الأوراق:

- دا إنذار نهائي . بدون تفاصيل .. تفضل .. المقابلة انتهت .

• • •

ليس حاتم رشيد إذن مجرد مخنث بل هو شخص موهوب مجتهد أحنكته التجارب ووصل بكفاءته ونكانه إلى قمة نجاحه المهني ، وهو إلى ذلك مثقف من طراز رفيع يجيد عدة لغات بطلاقة (الإنجليزية والأسبانية والفرنسية بالإضافة إلى العربية) وقد قادته قراءاته الواسعة العميقة إلى الأفكار الاشتراكية فتأثر بها كثيرا وسعى إلى صداقة كبار الاشتراكيين المصريين ، وبسبب هذه الصداقة استدعي مرة واحدة في أواخر السبعينيات إلى مباحث أمن الدولة حيث حققوا معه لكنهم أطلقوا سراحه بعد ساعات قليلة بعد

مـا سـجلوا فـي ملفـه أنـه "عنصـر متعـاطف وغـير منظم" وقد رشحته ثقافته الاشتراكية أكثر من مرة للتجنيد في التنظيمات الشيوعية السرية (حزب العمال والحزب الشيوعي المصري) لكن شـذوذه المعـروف كـان يثنـي المسئولين عن تجنيده .. هذه شخصية حاتم رشيد الحقيقية المعلنة أما حياتـه السرية الشـاذة فهي أقرب إلى صندوق مغلق مليء بالألعاب الممنوعة الآثمة الممتعة ، يفتحه كل ليلة ليستمتع به ثم يغلقه ويحاول أن ينساه وهو يسعى إلى تقليص المساحة الشاذة في حياته لأضيق نطاق ، يعيش يومه العادي كصحفـي ومسئول قيادي وفي الليل يمارس لذته لبضع ساعات في الفراش و يقول لنفسه إن معظم الرجال في الدنيا لهم مزاج معين يتخففون به من ضغوط الحياة وقد عرف شخصيات في أرفع المناصب : أطباء ومستشارين وأساتذة جامعة ، مولعين بالخمر أو الحشيش أو النساء أو القمار ولم يقلل ذلك من نجاحهم أو احترامهم لأنفسهم ، وهو يقنع نفسه بأن شذوذه شيء من هذا القبيـل ، مجرد مزاج مختلف ، يحب هذه الفكرة كثيرا لأنها تريحه وتعيد إليه التوازن وتمنحه الاحترام ، من هنا يتطلع دائما إلى علاقة مستقرة مع عشيق دائم حتى يشبع حاجته بطريقة آمنة وينحصر شذوذه في ساعة الفراش الليلية لأنه عندما يكون وحيدا بلا عشاق تستبد به الغواية وتدفعه شهوته

الملحة إلى أوضاع مهينة ، وقد مرت به أيام حزينة مؤلمة اندفع فيها إلى تلويث نفسه فأخذ يتردد على أماكن الشواذ ويبتذل نفسه مع المشبوهين والحثالة ليلتقط من بينهم عشيقا يقضي معه حاجته لليلة واحدة ولا يراه بعد ذلك ولكم تعرض إلى السرقة والإهانة والابتزاز وضربوه مرة بطريقة وحشية في حمام شعبي بحي الحسين واستولوا على ساعته الذهبية ومحفظته .. في أعقاب تلك الليالي الجنونية كان حاتم رشيد يعتكف في البيت عدة أيام لايرى أحدا ولا يكلم أحدا ، يشرب كثيرا ويتأمل حياته كلها ويسترجع ذكرى أبيه وأمه بحنق وكراهية .. يقول لنفسه لو أنهما خصصا بعض الوقت لرعايته لما انحدر إلى هذه الحال ، لكنهما كانا مشغولين بطموحهما المهني فانصرفا إلي تحقيق الثروة والمجد وتركاه للخدم يعبثون بجسده ، انه لا يلوم إدريس أبدا ولا يشك لحظة في أنه أحبه بصدق ، لكنه يتمنى لو يبعث أبوه الدكتور حسن رشيد من قبره مرة واحدة حتى يسمعه رأيه فيه سيقف أمامه ويواجه نظراته القوية وقامته الضخمة وغليونه المهيب.. لن يخاف منه سيقول له : " .. أيها العلامة الكبير إذا كنت قد وهبت حياتك للقانون المدني فلماذا تزوجت وأنجبتني ؟! .. قد تكون نابغة في القانون لكنك بالتأكيد لاتعرف كيف تكون أبا حقيقيا ..كم مرة قبلتني طوال حياتك .. كم مرة جلست معي

لأحدثك عن مشاكلي.. لقد عاملتني دائما وكأنني تحفة أو لوحة نادرة أعجبتك فاقتنيتها ثم نسيتها ومن حين لآخر، فقط عندما يسمح جدول أعمالك المزدحم، تتذكرها فتتأملها قليلا وتنساها من جديد .."، أما أمه جانيت فسوف يواجهها هي الأخرى بحقيقتها: " لقد كنت مجرد ساقية في بار صغير في الحي اللاتيني، كنت فقيرة وغير متعلمة وكان زواجك من أبي نقلة اجتماعية كبيرة لم تكوني تحلمين بها لكنك ظللت بعد ذلك لمدة ثلاثين عاما تحتقرين أبي وتبتزينه لأنه مصري وأنت فرنسية، لعبت دور الأوروبية المتحضرة وسط الهمج، ظللت تتأففين من مصر والمصريين وتعاملين الجميع بجفاء وتعال .. وقد كان إهمالك لي جزءا من كراهيتك لمصر، وأظنك قد خنت أبي أكثر من مرة، بل أنا واثق من ذلك، على الأقل مع المسيو بينار سكرتير السفارة الذي كنت تتحدثين إليه في التليفون بالساعات تستلقين على الفراش وتحتضنين السماعة وتهمسين ويربد وجهك بالشهوة وترسلينني بعيدا ألعب مع الخدم .. أنت في الواقع ساقطة يكفي المرء أن يفتح كفه في بارات باريس ليلتقط عشرة من أمثالك .." في تلك اللحظات السوداء يستبد اليأس بحاتم ويمزقه إحساسه بالمهانة ويستسلم للبكاء كالأطفال ويفكر أحيانا في الانتحار لكنه يفتقر إلى الشجاعة اللازمة للإقدام عليه .. على أنه الآن في

أحسن أحوالـه : امتـدت علاقتـه بعبد ربـه واسـتقرت ونجح في ربط حياته به عن طريـق الكشك والحجرة التي استأجرها له فوق السطح ، وضمن الإشباع الجسدي فانقطع نهائيا عن التردد على بار شـينو وأمـاكن الشـواذ الأخرى ، وهو يلح على عبده لكي يكمل دراسته ليصير رجلا محترما متعلما قادرا على تفهم مشـاعره وأفكـاره وجديرا بصداقته الدائمة ..

- يـا عبده ، أنـت ذكـي وحسـاس وتقـدر تحسـن ظروفك باجتهادك .. .. أنت حاليا تكسب وأسرتك مبسوطة وحياتك مستقرة ، لكن الفلوس مش كل حاجـة ..لازم تتعلم وتبقي رجل محترم ..

كانا قد فرغا مـن نوبـة غـرام صباحية ونـزل حـاتم عاريا من الفراش ومشى بخطـوة راقصـة حالمـة علـى أطراف أصابعه وقد بدا علـى وجهـه الرضـا والانتعـاش كعادته عندما يشبع مـن الحـب ، وأخذ يصب لنفسـه كأسـا بينما ظل عبده مستلقيا على الفراش وضحك وقال مداعبا :

- عاوزني أتعلم ليه ..؟!

- عشان تبقى محترم ..

- يعني أنا مش محترم..؟!

- طبعا محترم .. بس لازم تتعلم وتأخذ شهادة

- شهادة لااله إلا الله

استغرق عبده في الضحك فنظر حاتم إليه لائما وقال :

- أنا أتكلم جد لازم تجتهد ..تذاكر وتأخذ الإعدادية والثانوية وتدخل كلية كبيرة ..الحقوق مثلا

- بعد ما شاب راح الكتاب

- لأ يا عبده .. إياك تفكر كده .. أنت عندك ٢٤ سنة .. الحياة أمامك ..

- كل شيء قسمة ونصيب..

- رجعنا للكلام المتخلف ..!.. نصيبك في الدنيا أنت وحدك تقدر تعمله.. لو كان فيه عدل في البلد كان لازم واحد زيك يتعلم على حساب الدولة .. التعليم والعلاج والعمل حقوق طبيعية لأي مواطن في العالم كله لكن النظام في مصر متعمد يترك الفقراء أمثالك جهلة عشان يعرف يسرقهم .. لاحظ أن الحكومة تختار عساكر الأمن المركزي من أفقر المجندين وأجهلهم .. لو كنت متعلم يا عبده عمرك ما كنت تقبل تشتغل في الأمن المركزي في أسوأ الظروف مقابل ملاليم .. بينما الناس الكبيرة بيسرقوا كل يوم ملايين من قوت الشعب..

- وأنت عاوزني أمنع الكبار من السرقة .. هو أنا كنت قدرت على الرائد قائد المعسكر لما أحاسب الكبار

- ابدأ بنفسك يا عبده .. اجتهد وعلم نفسك بنفسك..

دي أول خطوة تحصل بها على حقوقك ..
ثم نظر حاتم إليه مليا وقال بحنان :
-.. ومن عارف ؟!.. يمكن تبقى يوم من الأيام الأستاذ عبد ربه المحامي ؟!..

نهض عبده من الفراش واقترب منه وأمسك بكتفيه وقبله على وجنته وقال :

- ومن يدفع لي مصاريف التعليم ؟!.. ومن يفتح لي مكتب لما أتخرج ..؟!

اضطرمت مشاعر حاتم فجأة فدنا بوجهه من عبده وقال بصوت هامس :

- أنا يا حبيبي عمري ما أسيبك ولا عمري أبخل عليك أبدا..

واحتضنه عبده وغاب الاثنان في قبلات طويلة محمومة لكن صوتا ترامى إليهما من بعيد وشيئا فشيئا سمعا دقات عنيفة متواصلة على الباب ، نظر حاتم إلى عبده بقلق وهرعا إلى ارتداء ثيابهما على عجل كيفما اتفق وسبقه حاتم ناحية الباب وقد رسم على وجهه تعبيرا متكبرا منزعجا استعد به لما سوف يلقاه ثم تطلع من العين السحرية وقال بدهشة :

- دى مراتك يا عبده

وتقدم عبده بسرعة وفتح الباب وصاح غاضبا :

– خبر ايه يا هدية .. ايه اللي جابك الساعة دى .. عاوزه ايه .. ؟!

فصاحت مولولة وهي تشير إلى طفلها النائم على ذراعيها:

– الحقني يا عبده .. الولد سخن نار وبيستفرغ على طول .. طول الليل على صرخة واحدة.. يا حاتم بك أنا في عرضك .. هات لنا دكتور وألا ننقله على مستشفى ..

• • •

عندما فتحت بثينة باب الحمام وجدت زكي الدسوقى ممددا على الأرض وقد تلوثت ثيابه بالقيء وعجز عن الحركة.. انحنت وأمسكت بيده فوجدتها باردة كالثلج

– زكي بك .. أنت تعبان ..؟!

همهم بكلمات غامضة وظل محدقا في الفراغ فأحضرت مقعدا واحتضنته وأجلسته (واكتشفت في تلك اللحظة أن جسمه خفيف للغاية) ثم خلعت عنه ثيابه المتسخة وغسلت له وجهه ويديه وصدره بالماء الساخن ولم يلبث أن أفاق قليلا وتمكن بصعوبة من الوقوف والسير مستندا إليها، أدخلته إلى الفراش وصعدت إلي حجرتها فوق السطح وعادت بسرعة ومعها كوب كبير من النعناع المغلي شربه

زكي واستسلم إلى النوم العميق .. قضيته الليلة بجواره على الأريكة وتفقدته أكثر من مرة .. جست بيدها حرارة جبينه ووضعت إصبعها أمام أنفه لتتأكد من انتظام النفس .. ظلت مستيقظة وعزمت على استدعاء طبيب إذا ساءت الحالة وتأملت وجهه العجوز وهو نائم فبدا لها لأول مرة حقيقيا وبسيطا ، مجرد رجل عجوز طيب سكران ، ضئيل ووديع ومثير للشفقة كالأطفال ، وفي الصباح أعدت له إفطارا خفيفا مع لبن دافئ وكان أبسخرون قد وصل وعرف بما حدث فوقف مطرقا حزينا أمام سيده المريض وأخذ يردد بصوت ملتاع :

- ألف سلامة سيادتك

فتح زكي عينيه وأشار له أن يخرج ثم نهض بصعوبة وأسند ظهره إلى الحائط وأمسك رأسه بيديه وهو يدمدم بصوت خافت :

- عندي صداع رهيب ومعدتي توجعني جدا

- تحب أنادى دكتور

- لأ .. بسيطة .. أنا شربت زيادة عن اللزوم .. الحكاية دى ياما حصلت لي ..أشرب فنجان قهوة سادة وأبقى تمام

كان يتظاهر بالتماسك والصلابة فضحكت وقالت :

- اسمع بقه .. كفاية مكابرة .. انت بقيت عجوز

وصحتك ضعيفة .. وخلاص ما تقدرش على الشرب والسهر .. المفروض تنام بدري زي العواجيز في سنك ابتسم زكي ونظر إليها بامتنان قائلا :

– أشكرك يا بثينة .. أنت انسانة طيبة ومخلصة .. مش عارف من غيرك كنت أعمل ليه ..

وضعت كفيها على وجهه وقبلت جبينه ..

قبلته كثيرا قبل ذلك لكنها أحست هذه المرة بملمس وجهه مختلفا ، شعرت وهي تلصق شفتيها بجبينه أنها تعرفه جيدا وأنها تحب رائحته الخشنة العتيقة وأنه لم يعد ذلك البك البعيد عنها الذي يحكي لها عن زمان ولم يعد حتى ذلك العشيق الذكر الشائك المختلف عنها ، بل هو الآن قريب منها وكأنها تعرفه من زمان ، وكأنه أبوها أو خالها أو عمها ، وكأنه يحمل رائحتها ودمها ، تمنت لو تضمه إليها بقوة لتحتوي جسده الهش الضعيف بين ذراعيها وتملأ أنفها برائحته الخشنة العتيقة التي تحبها .. فكرت أن ما يحدث بينهما غريب ومفاجئ ، وتذكرت أنها بالأمس فقط حاولت أن تخدعه وتحصل على توقيعه فأحست بالخزي وخطر لها أن خدعتها له بالأمس كانت محاولتها الأخيرة لمقاومة شعورها الحقيقي ناحيته ، كانت بداخلها تريد أن تهرب من حبها له ، كانت تستريح أكثر على نحو ما لو أنها حصرت علاقتها به في حدود الجنس والمال ، هو

يطلب الجنس وهي تريد المال ، هكذا تصورت حدود العلاقة لكنها جاوزت الحدود ، إنها الآن تواجه شعورها الحقيقي وتفهمه بوضوح ، تتمنى لو تظل معه دائما ، تطمئن إليه وتحترمه وتحس ناحيته بامتنان عميق ، وتثق في أنه سيفهم أي شيء تقوله له .. تحكي له عن حياتها ، أبيها وأمها وحبها القديم لطه حتى تفاصيلها القذرة مع طلال تذكرها له ولا تخجل منه .. تشعر براحة عندما تحكي له وكأنها تزيل عنها عبئا ثقيلا وكم تحب وجهه العجوز وهو ينصت إليها باهتمام ويستوضحها عن التفاصيل ثم يعلق على حكاياتها ..

ظل شعورها ناحيته يزداد قوة حتى اكتشفت ذلك الصباح أنها تحبه ، لايمكن أن تصف إحساسها بغير هذه الكلمة .ليس الحب الحار المضطرم الذي كانت تحمله لطه لكنه حب آخر مختلف ، هادئ وراسخ ، أقرب إلى الراحة والثقة والاحترام ، إنها تحبه وقد أدركت ذلك فتحررت إلى الأبد من ترددها واندفعت إليه بقوة ، عاشت معه أوقاتا سعيدة صافية ، صارت تمضي معه معظم النهار وجزءا كبيرا من الليل وتسترجع قبل أن تنام كل ما حدث بينهما فتبتسم ويغمرها حنان جارف ، على أن شيئا صغيرا مدببا شائكا ينخزها كلما فكرت أنها تخونه ، لقد تواطأت عليه لتأخذ توقيعه على العقد حتى يستولي ملاك على شقته، إنها

تستغل ثقته فيها لتؤذيه ، أليس هذا ما حدث ..؟! ألم يكن هذا هدفها ..؟! أن تغافله وتأخذ توقيعه وهو سكران وتقبض من ملاك خمسة آلاف جنيه ، ثمن الخيانة .. كلما رنت هذه الكلمة في ذهنها تذكرت ابتسامته الطيبة واهتمامه بها وحرصه على مشاعرها ، تذكرت أنه عاملها دائما برقة وأنه منحها ثقته الكاملة ، عندئذ تشعر بأنها دنيئة وخائنة وتحتقر نفسها وتدخل في دوامة من تأنيب النفس ، وقد عذبها هذا الشعور طويلا حتى اندفعت ذات صباح وذهبت إلى ملاك ، كان الوقت مبكرا وقد فتح المحل لتوه وأمامه كوب شاي بحليب يرشف منه على مهل ، وقفت أمامه وحيته وبادرته قائلة قبل أن تتسرب شجاعتها :

– يا عم ملاك أنا متأسفة .. مش حاقدر أعمل اللي اتفقنا عليه

– مش فاهم

– موضوع الإمضاء اللي حاخدها من زكي بك .. أنا مش حاعملها

– ليه ؟!

– كده

– دارأيك النهائي ؟

– آه

– طيب خلاص .. شكرا

.. هكذا قال ملاك بهدوء وجذب رشفة من الشاي وأشاح بوجهه عنها وشعرت وهي تنصرف من عنده أنها تحررت من هم ثقيل لكنها استغربت مع ذلك لأنه تقبل اعتذارها ببساطة ، توقعت أن يغضب ويثور لكنه ظل هادئا وكأنه كان يتوقع أو كأنه يضمر أمرا ما ، وأقلقها هذا الخاطر أياما لكنها لم تلبث أن تخلصت من الهواجس وأحست لأول مرة براحة عميقة لأنها توقفت عن خيانة زكي ولم يعد لديها ما تخفيه عنه ..

• • •

في الثامنة صباحا ، استقل الشيخ شاكر وطه الشاذلي مترو الأنفاق في اتجاه حلوان ، كانا قد خاضا على مدى أيام مناقشات طويلة حاول الشيخ خلالها إقناع طه بأن ينسي ما حدث ويستأنف حياته من جديد لكنه ظل ناقما وغاضبا لدرجة بدا معها أكثر من مرة على وشك الانهيار وأخيراً على أثر جدل عنيف صاح الشيخ في وجهه :

- ماذا تريد إذن ؟! لا تريد الدراسة ولا العمل ولا تريد أن ترى أحدا من زملائك ولا حتى من أهلك .. ماذا تريد ياطه ؟!..

- أريد أن أنتقم من الذين اعتدوا على وأذلوني

- وكيف ستعرفهم وأنت لم تر وجوههم ..؟!

- عن طريق أصواتهم .. أستطيع أن أتعرف علي أصواتهم من بين مائة صوت .. أرجوك يا مولانا أن تخبرني باسم الضابط الكبير الذي أشرف على تعذيبي .. قلت لي من قبل أنك تعرف اسمه ..

صمت الشيخ شاكر مفكرا ..

- أرجوك يا مولانا.. لن أهدأ حتى أعرف اسمه..

- لا أستطيع أن أقطع بشخصيته .. لكن التعذيب في أمن الدولة عموما يتم بإشراف اثنين : العقيد صالح رشوان والعميد فتحي الوكيل .. وكلاهما مجرم كافر مصيره جهنم وبئس المصير.. كن ماذا يفيدك أن تعرف اسم الضابط..؟!

- سأنتقم منه ..

- .. كلام تخريف.. هل ستقضي عمرك تبحث عن واحد لم تره بعينيك ..؟!

- صراع جنوني ومحكوم عليه بالفشل

- سأخوضه للنهاية

- .. هل ستحارب وحدك نظاما كاملا يملك جيشا وشرطة وعشرات الأسلحة الجبارة ..؟!

- أنت الذي تقول هذا وقد علمتنا أن المسلم الصادق أمة وحده .. ألم يقل الحق تبارك وتعالى : "وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله" .. صدق الله العظيم

- ونعم بالله لكن صراعك مع النظام سيكلفك حياتك .. ستموت يا ولدي.. سيقتلونك في أول مواجهة معهم سكت طه ونظر إلى وجه الشيخ وقد ترك ذكر الموت أثرا في نفسه ثم قال :

- أنا الآن ميت .. قتلوني في المعتقل ..عندما يعتدون على عرضك وهم يضحكون .. عندما يطلقون عليك اسم امرأة ويجبرونك على أن تجيب باسمك الجديد فتضطر إلى الإجابة من قسوة التعذيب .. كانوا يسمونني فوزية .. وكانوا كل يوم يضربونني حتى أقول أمامهم : أنا امرأة واسمي فوزية .. تريدني أن أنسى كل ذلك وأعيش..؟!

كان يتكلم بمرارة وهو يجز بأسنانه على شفته السفلي فقال الشيخ :

- اسمع يا طه .. هذه كلمة أخيرة أبرئ بها ذمتي أمام ربنا سبحانه وتعالى : التورط في محاربة هذا النظام معناه الموت المحقق

- لم أعد أخاف الموت .. لقد وطنت نفسي على الشهادة وأتمنى من قلبي أن أستشهد وأدخل الجنة ..

ساد الصمت بينهما وفجأة نهض الشيخ من مكانه واقترب من طه وتأمل وجهه قليلا ثم احتضنه بقوة وابتسم قائلا:

- بارك الله فيك يا ولدى ... هكذا يفعل الإيمان

الصحيح بأصحابه.. اسمع .. ارجع الآن إلى بيتك وجهز حقيبتك وكأنك مسافر .. وغدا في الصباح نلتقي لأصطحبك

– إلى أين ؟!

اتسعت ابتسامة الشيخ وهمس :

– لا تسلني ونفذ ما أقوله وسوف تعرف كل شيء في أوانه

• • •

جرى بينهما هذا الحوار بالأمس وفهم طه أن معارضة الشيخ له في البداية كانت حيلة لاختبار قوة عزمه وهما الآن جالسان في عربة المترو المزدحمة متجاوران وصامتان . يتأمل الشيخ المنظر من النافذة بينما يحدق طه في الركاب ولا يراهم وفي ذهنه يتردد سؤال قلق: إلي أين يصطحبه الشيخ ..؟! انه طبعا يثق فيه لكنه برغم ذلك تنتابه الرهبة والهواجس ويحس بأنه مقدم على موقف خطير، فاصل وجوهري في حياته وقد شعر برجفة والشيخ يهمس إليه :

– استعد سننزل في طره الأسمنت .. المحطة القادمة

• • •

تحمل محطة طره اسم شركة الأسمنت التي

انشاها السويسريون في العشرينيات ثم أممتها الثورة وضاعفت من قدرتها الإنتاجية حتى صارت من أكبر شركات الأسمنت في العالم العربي وقد خضعت بعد ذلك كبقية الشركات الكبرى إلى الانفتاح والخصخصة فقامت شركات أجنبية بشراء أسهم كثيرة فيها ، ويخترق خط المترو أرض الشركة في منتصفها : إلى اليمين تقع مجموعة المباني الإدارية والأفران العملاقة والى اليسار تمتد صحراء شاسعة تحوطها جبال وتنتشر المحاجر حيث تنسف الأحجار الجبلية الضخمة باستعمال الديناميت ثم تنقل في ناقلات كبيرة ليتم حرقها في أفران الأسمنت ..

نزل الشيخ شاكر ومعه طه وعبرا محطة المترو إلى ناحية الجبال وسارا في الصحراء ، كانت الشمس حامية والجو ملبداً بالغبار الذي يغطي المنطقة كلها ، وشعر طه بجفاف حلقه وألم خافت مستمر في أعلى بطنه ثم انتابه غثيان وسعل فقال الشيخ مداعبا :

- صبرا جميلا يا بطل .. الجو هنا ملوث من غبار الأسمنت .. بكره تتعود عليه .. وعموما قربنا نوصل..

توقفا أمام تل حجري صغير وانتظرا بضع دقائق ثم تهادى إلى سمعهما هدير محرك وظهرت سيارة كبيرة لنقل الأحجار اقتربت وتوقفت أمامهما ، كان السائق شابا

يرتدي بذلة عمال زرقاء اهترأت وحيل لونها من القدم، تبادل سلاما سريعا مع الشيخ الذي نظر إليه متفحصا وقال:

- الله والجنة ..

فرد السائق مبتسما :

- الصبر والنصر ..

كانت هذه كلمة السر وأمسك الشيخ بيد طه وصعد معه إلى كابينة القيادة وظل الثلاثة صامتين والسيارة تشق طريقهافي الطريق الجبلي ومرت أمامهم سيارات نقل أخرى تابعة للشركة ثم انحرف السائق إلى طريق فرعي ضيق غير ممهد ، قادهم فيه لأكثر من نصف ساعة وكاد طه أن يصارح الشيخ بقلقه لكنه رآه مستغرقا في تلاوة القرآن من مصحف صغير في يده ، وأخيرا لاحت من بعيد أطياف أخذت تتضح شيئا فشيئا فإذا هي مجموعة بيوت صغيرة مبنية بالطوب الأحمر ، توقفت السيارة ونزل طه مع الشيخ وحياهما السائق قبل أن يستدير راجعا .. كان المنظر أشبه بشوارع المناطق العشوائية ، الفقر الواضح وبرك المياه في الطرقات الترابية ودجاج وبط يتراكض حول البيوت وأطفال يلعبون حفاة وبعض النسوة المنقبات يجلسن أمام الأبواب .. مد الشيخ خطوته بثقة من يعرف المكان ودخل وطه وراءه إلى أحد البيوت ، عبرا الباب

المفتوح إلي حجرة متسعة خاوية تماما إلا من مكتب صغير وسبورة سوداء معلقة على الحائط وعلى الأرض فرشت حصيرة صفراء كبيرة جلس عليها مجموعة من الشباب الملتحي بجلابيبهم البيضاء وقد هبوا جميعا لتحية الشيخ شاكر ، عانقوه وقبلوه واحدا واحدا وقد تأخر عنهم قليلا أكبرهم سنا، رجل ضخم طويل في نحو الأربعين لحيته سوداء كبيرة ويرتدي فوق جلبابه الأبيض إزارا أخضر داكنا وثمة ندبة تمتد من جفنه الأيسر إلى أعلى جبينه وكأنها أثر لجرح كبير قديم مما يجعله عاجزا عن إغلاق عينه تماما ، تهلل الرجل لرؤية الشيخ شاكر وقال بصوته الأجش :

- السلام عليكم ....أين أنت يا مولانا ؟! أسبوعين كاملين ونحن ننتظرك

- لم يمنعني عنكم يابلال إلا الضرورة القصوى..كيف حالك أنت وإخوانك..؟!

- الحمد لله نحن على خير إن شاء الله

- وكيف عملكم ؟!

- كما قرأت في الجرائد ..من نجاح إلي نجاح بفضل الله

مد الشيخ شاكر ذراعه حول طه وقال للرجل وهو يبتسم :

– هــاهو طــه الشاذلي الذي حدثتك عنه يا بلال .. نموذج للشاب الملتزم التقي الشجاع ولا نزكي على الله أحدا وتقدم طـه ليصافح الرجل فأحس بقبضته القوية وتأمل وجهه المشوه وكلمات الشيخ تتردد في سمعه :

– يا طه .. أعرفك بإذن الله إلى أخيك في الله الشيخ بلال.. أمير المعسكر .. هنا ياطه مع الشيخ بلال سوف تتعلم بإذن الله كيف تأخذ حقك وتنتقم من الظالمين جميعا ..

• • •

أفاقت سعاد وفتحت عينيها بصعوبة ، كانت تشعر بمغص وغثيان وصداع وحلقها جاف يؤلمها وشيئا فشيئا أدركت أنها في مستشفى ، الحجرة متسعة والسقف شاهق وثمة مقاعد قديمة ومنضدة صغيرة في الركن والباب المزدوج ذي الكوتين الزجاجيتين المستديرتين يشبه أبواب حجرات العمليات في أفلام الأربعينيات المصرية .. بجوار الفراش وقفت ممرضة بدينة لها أنف مفلطح انحنت على سعاد ووضعت يدها على وجهها ثم ابتسمت وقالت :

– حمد لله على السلامة .. ربنا أكرمك . كان عندك نزيف جامد

– كذابة ..

صاحت سعاد بصوت مختنق ودفعت الممرضة بعيدا عنها

- أنتم سقطتوني غصبا عني .. أنا أوديكم في ستين داهية

.. خرجت الممرضة من الحجرة و استبد بسعاد غضب جنوني وأخذت ترفس بقدميها و تصيح بصوت عال "يا مجرمين سقطتوني .. اطلبوا الي بوليس النجدة .. أنا أحبسكم كلكم " ولم يلبث الباب أن انفتح وظهر طبيب شاب تقدم إليها ومن خلفه الممرضة فصاحت سعاد

- أنا كنت حامل وأنتم سقطتوني غصبا عني

وابتسم الطبيب فبان أنه كاذب وخائف وقال بصوت مرتبك:

- حضرتك كان عندك نزيف يامدام .. هدى أعصابك لأن الانفعال ممكن يوذيك ..

وانفجرت سعاد من جديد .. أخذت تصيح وتشتمهم وتبكي فخرج الطبيب والممرضة ثم انفتح الباب من جديد وظهر حميدو أخوها ومعه فوزي ابن الحاج عزام، واندفع إليها حميدو وقبلها فانخرطت في بكاء حار وهي تحتضنه..

تقلص وجه حميدو وزم شفتيه ولم يتكلم.. وفي هدوء جذب فوزي المقعد من آخر الغرفة وجلس بجوار

الفراش ثم أرجع رأسه للوراء وقال بلهجة رصينة وهو يشدد على مخارج الألفاظ وكأنه يلقي درسا على أطفال

– اسمعي يا سعاد .. كل شيء قسمة ونصيب .. الحاج عزام اتفق معك على حاجة وأنت خالفت الاتفاق والبادئ أظلم ..

– ربنا ينتقم منك أنت وأبوك .. يا مجرمين ياولاد الكلب

– اخرسي

هكذا صاح بحدة وقد عبس وجهه فبدا صارما وقاسيا ثم صمت قليلا وتنهد واستأنف حديثه التعليمي :

– برغم قلة أدبك الحاج عاملك بما يرضي الله .. جالك نزيف وكنت هتموتي فنقلناك المستشفى والدكتور اضطر يعمل إجهاض .. أوراق المستشفى موجودة وتقرير الدكتور موجود ..قل لها ياحميدو

نكس حميدو رأسه في صمت وعلا صوت فوزي من جديد

– والدي الحاج عزام يعرف ربنا. طلقك وأعطاك أكثر من حقوقك وربنا يعوض عليه .. المؤخر والنفقة حسبناهم بما يرضي الله وعليهم زيادة من عندنا وأخوك حميدو معه شيك بعشرين ألف .. وحساب المستشفى مدفوع وكل حاجاتك أخذناها من البيت وهنبعتهالك إسكندرية ..

ساد صمت عميق وأخذت سعاد ، وقد انكسرت الآن ، تبكي بصوت خافت .. ونهض فوزي فبدا في تلك اللحظة قويا وحاسما وكأن كل شيء في الدنيا يتوقف على ما سوف ينطق به وتقدم خطوتين في اتجاه الباب ثم استدار كأنما تذكر شيئا وقال:

- ياريس حميدو عقل أختك لأن دماغها خفيفة.. الحكاية كلها صفحة وانطوت وحقها أخذته لآخر مليم وزي ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.. ولو حاولت أنت وأختك تعملوا مشاكل أو شوشرة إحنا نعرف نؤدبكم .. البلد بلدنا ياحميدو وايدينا طايلة وعندنا الألوان كلها.. اختار اللون اللي يعجبك

ثم مشى بتؤدة حتى خرج من الحجرة و ارتجت ضلفتا الباب وراءه ....

• • •

كما ينفض المرء بإصبعين بعض ذرات التراب التي علقت بصدر بدلته الأنيقة ويستأنف المشي كأن شيئا لم يكن .. تخلص الحاج عزام من سعاد جابر واستطاع أن يسحق حنينه إليها ، كانت ذكرى جسدها اللين الحار اللذيذ تعاوده فيبذل مجهودا جبارا ومؤلما حتى ينساها ، يستحضر

عامدا وجهها الشرس الكريه في المشاهد الأخير ويتخيل المشاكل والفضائح التي كانت ستلحق به لو لم يتخلص منها ويعزي نفسه بأن زواجه منها على ما منحه من أوقات رائعة لم يكلفه كثيرا ويفكر أن تجربته معها قابلة للتكرار فالجميلات الفقيرات كثيرات والزواج حلال لا يعيب أحدا ، كل هذه الخواطر يحاول بها أن يطمس صورة سعاد من ذاكرته فينجح أحيانا ويخفق أحيانا وقد ألقى بنفسه في خضم العمل لينسى ، كان افتتاح توكيل تاسو للسيارات يحين موعده بعد أيام فأقام مع ابنيه فوزي ومؤمن حجرة عمليات في مكتبه وكأنه يخوض حربا ، أشرف على تجهيزات الحفل الضخم في فندق سميراميس ودعا بنفسه كل الكبار في البلد وقد جاءوا جميعا ،وزراء حاليون وسابقون ومسئولون حكوميون كبار ورؤساء تحرير الصحف القومية الرئيسية ، وكلفته صداقة هؤلاء عشرات السيارات التي منحت كهدايا مجانية أو بأسعار رمزية ..تم ذلك بموافقة المسئولين اليابانيين وأحيانا بناء على اقتراحهم، واستمر الحفل حتى ساعة متأخرة وأذاع التليفزيون أجزاء منه كإعلانات مدفوعة الأجر ونشرت معظم الصحف تغطية وافية له وكتب محرر اقتصادي كبير في جريدة الأخبار يقدم افتتاح توكيل تاسو على أنه خطوة وطنية شجاعة أقدم عليها رجل الأعمال المصري الأصيل محمد

عزام بغرض كسر احتكار السيارات الغربية وناشد المحرر جميع رجال الأعمال المصريين بأن يختاروا الطريق الصحيح الصعب كما فعل الحاج عزام من أجل نهضة مصر وسلامة اقتصادها ، وعلى مدى أسبوعين كاملين امتلأت الصحف بصور الحاج عزام وتصريحاته وكانت الصورة المنشورة لتوقيع عقد التوكيل فريدة ومعبرة، يظهر فيها الحاج عزام بقامته الضخمة ووجهه السوقي ونظرته الثعلبية المراوغة وبجواره يجلس المستر ين كي رئيس مجلس إدارة شركة تاسو بقامته اليابانية الضئيلة ونظراته المستقيمة ووجهه المهذب الجاد.. وكأن المفارقة بين مظهر الرجلين تلخص المسافة الشاسعة بين ما يحدث في مصر وما يحدث في اليابان .. وقد حقق التوكيل منذ الشهور الأولى مبيعات خرافية جاوزت كل توقع ، وانهمرت الأرباح على الحاج عزام الذي تلقى نعمة الله شاكرا وأخرج عنها صدقات بعشرات الألوف ، وقدم الجانب الياباني لعزام مشروعات إضافية لمحطات صيانة في القاهرة والإسكندرية ، وعاش الحاج عزام أبهى أيامه على الإطلاق إلا من سبب واحد للكدر حاول أن يتجاهله لكن عبثا .. فقد طارده الفولي ليلتقي به وظل عزام يسوف حتى لم يعد للتسويف مجال فاستجاب أخيرا وذهب للقاء الفولي في الشيراتون وقد أعد نفسه للمتاعب .

بدت القاعة المظلمة في عز النهار المزدحمة عن آخرها أقرب إلى عربة الدرجة الثالثة في قطار الصعيد منها إلي قاعة استقبال مستشفى ، النساء واقفات متكدسات بأطفالهن المرضى ورائحة العرق خانقة والأرض والحوائط في منتهى القذارة وبضعة ممرضين ينظمون الدخول إلى حجرة الكشف فيشتمن النسوة ويدفعوهن بالأيدي ومشاجرات وصراخ وجلبة لاتنتهي وقد وصل حاتم رشيد وعبده ومعهما هدية تحمل الطفل الذي لم ينقطع عن البكاء وظلوا واقفين فترة في الزحام ثم اقترب حاتم من أحد الممرضين وطلب مقابلة مدير المستشفى فنظر إليه الممرض باستياء وقال إن المدير ليس موجودا وكاد عبده أن يتشاجر عندما أخبروه أن عليه ينتظر الدور حتى يكشف على الطفل ..خرج حاتم إلى أقرب تليفون عمومي وأجرى عدة اتصالات من المفكرة الصغيرة التي لا تفارق جيبه ، كانت نتيجتها أن خرج إليهم نائب مدير المستشفى واستقبلهم بحفاوة معتذرا لغياب المدير ، كان النائب رجلا أبيض في نحو الأربعين أبيض وسمين يوحي وجهه بالطيبة والبساطة، وقد كشف بعناية على الطفل ثم قال بصوت قلق :

- للأسف الحالة متأخرة وحرجة.. الولد عنده جفاف وحمى

ثم كتب أوراقا وأعطاها إلى عبده الذي كان فاقدا

لأعصابه لا ينقطع عن التدخين والصياح ناهرا زوجته وقد حمل الطفل بين ذراعيه وركض مع الممرضة التي انتقل إليها اهتمام الدكتور بالحالة ، وضعوا الطفل في عنبر الحالات الحرجة وتم تركيب أنابيب الجلوكوز في ذراعه الصغيرة ، كان وجهه شاحبا للغاية وعيناه غائرتين وقد بدأ صوت بكائه يخفت وأحس الجميع بكآبة ثقيلة وسأل عبده الممرضة فأجابت :

- نتيجة العلاج تظهر بعد ساعتين على الأقل .. ربنا كبير

وران الصمت من جديد وأخذت هدية تبكي بصوت خافت ولم يلبث حاتم أن انتحى جانبا بعبده ودس في جيبه رزمة من الأوراق المالية وربت على كتفه قائلا:

- خذ يا عبده عشان مصاريف المستشفى ، ولو احتجت أي حاجة أرجوك قل لي .. أنا مضطر أروح الجريدة وهاطمئن عليك بالليل

• • •

- نفسي كنت أقابلك من زمان ..؟!

- ليه ..؟!

- كانت حياتي كلها تغيرت ..

– إحنا فيها .. ياللـه غير حبابك
– أغير إيه يا بثينة .. أنا عندي خمسة وستين سنة.. يعني حسن الختام..
– من قال لك.. ممكن تعيش عشرين وثلاثين سنة.. الأعمار بيد الله
– باريت ..الواحد نفسه فعلا يعيش ثلاثين سنة كمان .. على الأقل

ضحكا معا.. هو بصوته الأجش وهي بزقزقاتها المنغمة المتلاحقة..استلقيا عاريين في الفراش وهو يحتضنها، يستشعر ملمس شعرها الناعم الكثيف على ذراعه .. كانا قد تخلصا تماما من إحساسهما بخصوصية جسديهما، يقضيان الساعات عاريين تماما ، تصنع له القهوة وتعد له كئوس الويسكي والمزة ومن حين لحين ينامان معا، قد يضاجعها وكثيرا ما يستلقيان هكذا فقط ، يغلق نور الحجرة ويتأمل وجهها في الضوء الخافت المهتز القادم من الشارع ، تبدو له في تلك اللحظة وكأنها غير حقيقية ، خيال جميل ، كائن ليلي سوف يختفي كما جاء فجأة مع أول ضوء للفجر ، يتكلمان ، ينبعث في الظلام صوتها عميقا وعذبا وحميما ..قالت بلهجة جادة وهي تحدق في السقف :
– امتى حنسافر..؟!
– نسافر فين..؟!

- أنـت وعدتنـي نسافر مع بعض

.. سألها وهو يتأمل وجهها

- أنت لسه كارهة البلد ..؟!

أومأت برأسها وهي تنظر إلى السقف

- أنا مش قادر أفهم الجيل بتاعكم أبدا..علـى أيامي حب الوطن كان زي الديـن..شباب كثير ماتوا في الكفاح ضد الإنجليز

اعتدلت بثينة جالسة وقالت :

- كنتـم بتعملـوا مظـاهرات عشـان تطـردوا الإنجليز؟!.. أهم خرجوا ..يعني البلد حالها انصلح ؟!

- السبب في تدهـور البلد انعدام الديمقراطية.. لو فيه نظام ديمقراطي حقيقي مصر تبقى قوة عظمى ..مصر بلوتها الديكتاتوريـة والديكتاتوريـة نهايتهـا المحتومـة فقر وفساد وفشل في كل المجالات

- دا كلام كبير ..أنا بأحلم على قدي.. نفسي أعيش مرتاحة ويبقى عندي أسرة .. زوج يحبني وأولاد أربيهم وبيت صغير جميل ومريح بدل السكن فوق السطح ، نفسي أروح بلد نظيفة ، ماقيهاش وساخة ولا فقر ولاظلم ..تعرف .. أخو واحدة صاحبتي سقط ثلاث سنين في الثانوية العامة قام سافر هولندا واتجوز واحدة هولندية وقعد هناك .. بيقول لنا في بلاد بره ما فيش ظلم ولا افترا زي عندنا.. هناك كل

واحد يـأخذ حقـه والنــاس تحترم بعض حتى الكناس في الشارع الناس تحترمه.. عشان كده نفسي أسافر بـره ، أعيش هناك وأشتغل وابقى محترمة بجد : أكسب من شغلي بدل مـا أروح المخزن مع واحد زي طـلال عشان يديني عشرة جنيه .. تصور .. كان بيديني في المرة عشرة جنيه .. ثمن علبتين مارلبورو .. دا أنا كنت عبيطة بشكل..

– أنت كنت محتاجة والمحتاج مـا بيفكرش ..بثينة أنا مش عاوزك تعيشي في اللي فات .. كل اللي حصل لك صفحة وانطوت خلاص .. فكرى في المستقبل .. إحنـا دلوقت مع بعض ومبسوطين وأنا مش حاسيبك أبدا..

ساد الصمت لحظة ثم استطرد زكي بمرح ليطرد الحزن :

– .. أنا قدامي شهر أو شهرين على الأكثر وأقبض مبلغ كبير وآخذك ونسافر

– بجد ..؟!

– بجد ..

– نروح فين ..؟!

– فرنسا..

صرخت وصفقت بيديها كالأطفـال ثم قـالت تداعبه بخبث :

– بس أنت شد حيلك وخللي بالك من صحتك لحسن تتعب مني هناك تبقى حكاية ..

عندما تضحك تتقلص عضلات وجهها وينفر عرق في جبينها ويبدو شكلها وحشيا وغريبا على نحو ما وكأنها فوجئت بالسعادة فقررت أن تقبض عليها بقوة لئلا تفلت منها.. احتضنها زكي وهمس:

- خلاص .. اتفقنا ..؟!

- اتفقنا

بدأ من يديها ..أخذ يقبل أصابعها واحدا واحدا ثم انتقل إلى كفها وذراعها وصدرها المكتنز الناعم وعندما وصل إلى رقبتها ورفع شعرها الكثيف ليلتهم أذنها الصغيرة الرائعة في فمه كان يشعر بجسدها تحته يضطرم بالرغبة

بدأ الأمر بهسة ، هسة الكلمة الصحيحة ، صوت خافت للغاية انبعث فجأة وانقطع بينما زكي يلتهم شفتي بثينة في قبلة حارة ومرت ثوان وهما متعانقان ثم تكرر الصوت ، واضحا هذه المرة ، كان باب الغرفة التي ينامان فيها مفتوحا وخطر في ذهن زكي كومضة أن أحدا ما يتحرك في الصالة فانتفض عاريا من الفراش و أطلقت بثينة صرخة حادة وهي تقفز لتضع ملابسها كيفما اتفق على جسدها العاري ثم توالت المشاهد المفزعة وكأنها كابوس ، لحظات حادة مرعبة لن ينساها زكي وبثينة أبدا : أضيء النور في الغرفة وظهر ضابط شرطة بالبذلة

الرسمية ، ومن ورائه وقف بعض المخبرين وتقدمت من بينهم دولت وعلى وجهها ابتسامة شامتة خبيثة وسرعان ما علا صوتها حادا كريها كالموت :

- مسخرة وقلة حيا .. كل يوم جايب مومس وبايت معها .. كفاية نجاسة يا أخي حرام عليك..

- اخرسي

هكذا صاح زكي في أول رد فعل وقد تخلص من ذهوله وبدا منفعلا للغاية ، كان جسده العاري يرتعش وجحظت عيناه من الغضب وبطريقة لاشعورية امتدت يده إلي البنطلون وصاح وهو يرتديه :

- جرى إيه .. إيه المهزلة دي ؟!.. من أذن لك تدخل مكتبي..معك إذن من النيابة ؟!

هكذا صاح في وجه الضابط الشاب الذي كانت ملامحه عدائية من البداية فرد بنبرة هادئة متحدية :

- أنت بتعلمني شغلي ..؟! ..أنا لا أحتاج إذن نيابة .. المدام أختك ومقيمة معك وتقدمت ببلاغ ضدك لأنك تمارس الفحشاء في بيتها وطلبت إثبات الحالة لأنها رافعة عليك قضية حجر ..

- كلام فارغ ..دا مكتبي الخاص وهي لا تقيم معي هنا

- لكنها فتحت بمفتاحها وأدخلتنا

- حتــى لومعهـــا مفتاح .. دا مكتبي ..باسمي
- ابقى اثبت الكلام ده في المحضر ..
- أثبت إيــه .. دا أنـا حـاوديكم فـي ستين داهيـة .. لازم تدفعوا ثمن الاعتداء على حرمة الناس
- حرمة المواسم وأنت الصادق
هكذا صاحت دولت وقد اتسعت عيناها واقتربت منه متحفزة
- قلت اخرسي
- اخرس أنت يا شايب ياعايب
- اسكتي يا مدام من فضلك
هكذا صاح الضابط في دولت وهو يصطنع الغضب ليغطي انحيازه لها ثم التفت إلي زكي قائلا:
- اسمع يا حضـرة .. أنـت رجـل كبير و مـا فيش داعي للبهدلة .
- أنت عاوز إيه بالضبط ..؟!
- نثبت الحالة ونأخذ منكم كلمتين
- حالـة إيه اللي تثبتهـا .. قـل انـك متوصـي .. موصياك الحرباية دي
- أنت باين عليك قليل الأدب .. اسمع أنا باقولك لآخر مرة .. خللي ليلتك تعدي على خير
- انـت تهددنـي .. أنـا أتكلم في التليفون وأعرفـك مقامك

- كده ..؟! ..طيب حقك على .. هكذا ردد الضابط بغيظ ثم قال ..

- تعال يا روح أمك على القسم أنت والمومس بتاعتك

- أنا أحذرك من استعمال ألفاظ ستحاسب عليها بشدة وليس من حقك أن تقبض علينا

- أنا أعرفك حقي ولا لأ ..

ثم استدار الضابط وقال للمخبرين : هاتوهم .. وكان المخبرون ينتظرون الكلمة كإشارة سحرية فانقضوا على زكي وبثينة ، قاوم زكى وأخذ يهدد ويصيح محتجا لكن المخبرين أمسكوا به بقوة ، أما بثينة فظلت تصرخ وتلطم وجهها وتستعطفهم وهم يجذبونها إلى الخارج..

في البداية أحس طه بضيق لم يلبث أن زال مع الأيام عندما تعود على نظام المعسكر الصارم : الاستيقاظ قبل الفجر وأداء الصلاة وقراءة القرآن والإفطار ثم ثلاث ساعات من التدريبات البدنية العنيفة المتصلة (لياقة وفنون قتالية) .. بعد ذلك يجتمع الاخوة لتلقي الدروس (فقه وتفسير وعلوم قرآن وحديث) يلقيها عليهم الشيخ بلال وعلماء آخرون ، أما بعد الظهر فيخصص يوميا لتدريبات السلاح ، يستقل الاخوة أتوبيسا كبيرا (مكتوبا عليه شركة أسمنت طره المصرية) ويذهبون إلى قلب الجبل حيث يتمرنون على إطلاق النار وصناعة القنابل واستعمالها ، كان الإيقاع في المعسكر سريعا لاهثا ولم يكن لديه فرصة للتفكير حتى في ساعة السمر بعد صلاة العشاء كان الحديث بين الاخوة يتحول عادة إلى مناقشات دينية تقدم خلالها الحجج الشرعية على كفر النظام ووجوب قتاله والقضاء عليه ، وعندما تحين ساعة النوم يتفرق الاخوة فيذهب المتزوجون إلى مساكن الأسر في سفح الجبل بينما ينام العزاب في المبنى الصغير المخصص لهم، عندئذ فقط، بعدما تطفأ الأنوار ويسود السكون ،يستلقي طه الشاذلي على فراشه في الظلام ويسترجع بصفاء كامل أحداث حياته وكأن طاقة مضيئة مدهشة تنفتح فجأة من ذاكرته فيرى بثينة السيد ويجرفه الحنين حتى يبتسم أحيانا وهو يسترجع

أوقاتهما الحلوة ثم يجتاحه الغضب عندما يطالعه وجهها آخر مرة وهي تقول باستهانة : "حكايتنا خلصت ياطه وكل واحد من طريق " وفجأة .. تنهال على رأسه كالضربات المتلاحقة ذكريات الاعتقال : الضرب والإهانة وشعوره بأنه ضعيف ومنهك ومنكسر بعد كل مرة يهتكون عرضه فيها ، انخراطه في البكاء واستعطافه للجنود حتى يكفوا عن إدخال العصا الغليظة في جسده ، صوته الخافت المتقطع عندما يأمرونه فيقول ..: " أنا امرأة .." فيضربونه من جديد ويسألونه عن اسمه فيقول بصوت ميت : " فوزية .." عندئذ تعلو ضحكاتهم وكأنهم يشاهدون فيلما ساخرا .. يتذكر طه كل ذلك فيفقد قدرته على النوم ، يظل ساهرا و ينكأ جروحه فيتقلص وجهه في الظلام وتتلاحق أنفاسه ، يلهث وكأنه يعدو ويتملكه حقد عارم ولا يهدأ حتى يسترجع أصوات الضباط ، يصنفها ويميزها ويختزنها بعناية في ذاكرته وتجتاحه بعد ذلك رغبة حارقة يكاد جسده يرتعش من وطأتها ، يتوق إلى الانتقام ويتخيل نفسه وهو ينكل بكل الذين عذبوه وانتهكوه .. ذلك التعطش للانتقام استبد به ودفعه دفعا حتى أحرز تقدما مدهشا في تدريبات المعسكر ، برغم صغر سنه صار يتغلب على كثيرين يكبرونه في القتال الجسدي وخلال بضعة أشهر برع في إطلاق النار من البنادق العادية والنصف آلية والآلية وأصبح بإمكانه

صناعة القنابل اليدوية بسهولة وإتقان ولقد أدهش تقدمه السريع جميع الاخوة حتى أنه ذات مرة بعد ما أنجز تمرينا لتصويب النار لم يخطئ فيه سوى مرة واحدة من عشرين ، اقترب منه الشيخ بلال وربت على كتفه وقال والندبة تختلج على حاجبه كعادته عندما ينفعل :

- بارك الله فيك ياطه .. صرت أستاذا في الرماية ..

- ومتى تسمح لي بالجهاد ..؟!

هكذا رد طه بجرأة وقد تحين الفرصة لسؤال كان يعتمل بنفسه وصمت الشيخ بلال قليلا ثم همس بود :

- لا تتعجل يا ولدي .. كل شيء بميعاد

ثم انصرف بسرعة كأنما ليقطع الحديث ولم يسترح طه لإجابته الغامضة .. كان يتعطش لثأره ويشعر بأنه جاهز تماما للعمليات فلماذا كل هذا التأخير..؟! ..انه ليس أقل من زملائه الذين يخرجون للجهاد ثم يعودون إلى المعسكر مزهوين بما فعلوا و يتلقون التهاني من إخوانهم .. وقد ذهب طه بعد ذلك أكثر من مرة إلى الشيخ بلال ليستحثه على إرساله في عمليات لكنه ظل يستمهله بإجابات غامضة حتى غضب طه في المرة الأخيرة وصاح بحدة :

- قريبا .. قريبا.. متى يحين هذا القريب ..؟! إذا كنت تراني لا أصلح للجهاد لماذا لا تخبرني حتى أنصرف من المعسكر

واتسعت ابتسامة الشيخ بلال كأنما أسعده حماس طه وقال :

- توكل على الله ياطه وسوف تسمع خيرا إن شاء الله ..

وفعلا .. لم يمض أسبوع حتى أخبره بعض الاخوة بأن الشيخ بلال يطلبه وما أن فرغ من صلاة الظهر حتى هرع إلى مكتب الشيخ : حجرة ضيقة بها مكتب عتيق وعدة مقاعد متهرئة وحصيرة من الخوص جلس عليها الشيخ يقرأ القرآن وقد استغرق في التلاوة فلم يشعر بوجود طه بجواره إلا بعد لحظات فابتسم مرحبا به وأجلسه بجواره ..

- بعثت إليك في أمر مهم

- تحت أمرك

- الأمر لله وحده .. اسمع يا سيدي .. قررنا أن نزوجك

هكذا قال الشيخ فجأة وضحك لكن طه لم يضحك .. اربد وجهه الأسمر وقال بتحفز :

- لاأفهم

- نتزوج يا ولدي.. ألا تفهم معنى الزواج ؟!

وهنا علا صوت طه :

- لا يا مولانا لا أفهم ..لا أفهم أن أتوسل إليك لكي

تأذن لي بالجهاد فتحدثني عن الزواج.. هل جئت هنا لكي أتزوج ..؟! لا أفهم ذلك أبدا إلا أن تكون تريد أن تسخر مني ..

ولأول مرة انقبض وجه الشيخ من الغضب وصاح:

– لا يليق بك ياطه أن تحدثني بهذه الطريقة وأرجو أن تتمالك نفسك في المستقبل لأنني سأغضب منك .. أنت تريد أن تنتقم من ظالميك وأقول لك : لست الوحيد الذي عذبوه في أمن الدولة ، لقد عذبوا آلاف الاخوة.. أنا نفسي أحمل أثر التعذيب في وجهي كما ترى لكنني لا أفقد صوابي وأصرخ كل يوم في وجه شيوخي.. تظنني أمنعك من الخروج إلى الجهاد ويعلم الله يا ولدي أن الأمر ليس بيدي .. أنا لاأملك اتخاذ قرار العمليات بل ولا أعرف بها إلا في اللحظات الأخيرة .. أنا أمير معسكر ياطه ولست الأمير العام ولست حتى عضوا في مجلس شورى الجماعة.. أرجو أن تفهم ذلك فتستريح وتريحني ..لست صاحب القرار ، كل ما أستطيعه ترشيح اسمك للاخوة في شورى الجماعة وقد ألححت عليهم في ذلك وكتبت تقارير عديدة عن شجاعتك وتقدمك في التدريب لكنهم لم يقرروا إرسالك بعد فالذنب ليس ذنبي كما ترى .. وان كنت أعتقد بخبرتي أنهم سيكلفونك قريبا باذن الله

صمت طه وأطرق قليلا ثم قال بصوت خافت :

– أعتذر يا مولانا عن طريقتي المنفعلة ..يعلم الله كم أحبك وأحترمك يا شيخ بلال ..

– لا عليك يا ولدي

هكذا تمتم الشيخ بلال وظل يسبح بمسبحته واستطرد طه بلهجة ودية كأنما ليزيل أثر المشادة :

– .. لكنني فعلا مستغرب مسألة الزواج ..

– وما الغريب في ذلك ..؟!.. الزواج سنة من سنن الله في خلقه ، شرعه سبحانه وتعالى من أجل صلاح الفرد والمجتمع في الإسلام .. أنت شاب ولك احتياجات طبيعية وزواجك طاعة لله ورسوله تثاب عليها بإذن الله .. قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح " من استطاع منكم الباءة فليتزوج " وقد أمرنا صلى الله عليه وسلم بتيسير الزواج والتعجيل به درءا للفاحشة عن المسلمين .. ونحن هنا نعيش ونموت على نهج الله ورسوله لا نحيد عنه قيد أنملة بإذن الله .. ولقد رشحت لك أختا فاضلة صالحة ولا أزكي على الله أحدا ..

– أتزوج واحدة لا أعرفها..؟!!

هكذا ردد طه بغير تفكير فابتسم الشيخ بلال وقال :

– ستعرفها بإذن الله .. هي الأخت رضوى أبو العلا ، خير نموذج للمرأة المسلمة ، تزوجت من الأخ حسن نور الدين من أسيوط وعندما فاز بالشهادة رحمه الله حملت

معها ابنها الصغير وجاءت إلينا لتحيا معنا حياة الإسلام
سكت طه وبان عليه التردد فاستطرد الشيخ :
– معاذ الله يا ولدي أن أفرض عليك شيئا .. سوف تقابل رضوى وترى وجهها وتتحدث معها كما يقضي الشرع الحنيف ثم تتخذ قرارك بمطلق الحرية أرجو ياطه أن تراجع كتاب الزواج في الإسلام الذي وزعناه عليكم في الدرس واعلم يا ولدي أن الزواج من أرملة شهيد ورعاية ابنه اليتيم يضاعف من ثوابك بإذن الله ..

قرب منتصف الليل ، ساءت حالة الطفل وبدأت مؤشرات الشاشات في العناية المركزة تسجل اضطرابات في التنفس والنبض ، واستدعيت الطبيبة المقيمة فجاءت على عجل وأوصت بحقنة في الوريد أعطتها الممرضة للطفل فتحسنت حالته قليلا لكنه بعد أقل من ساعة تدهور من جديد ولم يلبث في النهاية أن فارق الحياة.. أجهشت الممرضة بالبكاء وغطت وجهه الصغير بالملاءة ثم خرجت من الحجرة وما أن لمحتها هدية حتى أطلقت صرخة حادة ملتاعة ترددت في أنحاء المستشفي ثم أقعت على الأرض وغطت رأسها بيديها وأخذت تولول أما عبد ربه فقد تقلص وجهه الأسود وكز على أسنانه بشدة حتى أصدرت صريرا وسحق بيديه علبة السجائر فمزقها وتناثر الدخان بين أصابعه كالتراب ، كان يبذل مجهودا خارقا ليمنع البكاء لكنه رغما عنه فرت من عينيه الدموع ثم استسلم تماما وعلا نحيبه.. بكى الحاضرون جميعا : عمال النظافة والممرضات وأهل المرضى حتى الطبيبة خلعت نظارتها لتمسح دموعها ، كان على عبد ربه وزوجته هدية أن يحفظا جثة الطفل في ثلاجة المستشفى حتى يحين وقت الدفن في الصباح ، وكان هذا مشهدا أليما آخر فعندما وضع الجسد الصغير وسط الجثث الكبيرة لم يستطع عامل الثلاجة العجوز (المعتاد على مشاهدة الموت بحكم عمله) أن

يتمالك نفسه فأخذ يردد بصوت منفعل متهدج " لا اله إلا الله " " انا لله وانا إليه راجعون " ... أماسكان السطح في عمارة يعقوبيان فقد عرفوا الخبر بطريقة ما وظلوا ساهرين جميعا ، فتحوا أبواب حجراتهم وانتظروا صامتين مطرقين وكأنهم في سرادق العزاء وأدار بعضهم (الذين يملكون أجهزة تسجيل) تسجيلات القرآن الكريم بصوت عال تردد في أنحاء السطح .. وقبل الفجر بقليل ظهر عبدربه وهدية في السطح وقد أنهكهما الألم والإرهاق، تدافع سكان السطح جميعا إليهما معزين فالتهبت الأحزان من جديد ، عانق الرجال عبده وشدوا على يديه (وكانوا جميعا صادقين في تأثرهم حتى أكثرهم شراسة وعدوانية مثل على السواق الذي كانت رائحة الخمر الرخيصة تفوح من فمه كالعادة لكنه بكى بحرارة كطفل ضائع) أما الشاذلي البواب العجوز بشواربه البيضاء وقامته الطويلة الجافة فما أن دنا من الأب المكلوم وصافحه (وكان بينهما ود خاص) حتى احتضنه عبده بشدة ودفن وجهه في جلبابه الأبيض وهو ينوح بلكنته الصعيدية :

- .. ولدي راح يا خال ..

أما النساء فكن يعرفن كيف يعبرن عن الفجيعة : انطلقت صرخاتهن الحادة تمزق السكون ولطمت كثيرات خدودهن بقوة حتى سقطن على الأرض ، وشينا فشيئا

هدأت فورة الأحزان وكما يحدث عادة في مثل هذه المواقف ألح الرجال على عبده حتى يأخذ زوجته ويستريحان قليلا في حجرتهما لأن أمامهما في الغد يوما شاقا واستجاب الزوجان في النهاية ودخلا إلى الحجرة ، لكن الضوء ظل مضاءا حتى الصباح لأنهما لم يناما بل اشتبكا في حديث طويل لم يلبث أن احتد حتى صار مشاجرة مريرة وعنيفة سمعت أصداؤها في السطح .. كان صوت هدية يعلو ناقما متحديا بينما يخفت صوت عبده شيئا فشيئا حتى سكت تماما، وفي اليوم التالي بعد أن تمت إجراءات الدفن والعزاء فوجئ أهل السطح بسيارة نقل كبيرة تقف بالليل أمام باب العمارة ثم رأوا عبده يساعد العمال على نقل الأثاث من الحجرة ، واستفسر السكان بانزعاج فأخبرهم عبده أنهم سينتقلون إلى حجرة أخرى في امبابة ..كان وجهه منقبضا وطريقته جافة لدرجة منعتهم من إبداء دهشتهم أو حتى توديعه بالحرارة المناسبة..

– .. أنـت بـدأت بالغلط يا عزام
– أعوذ بالله يا كمال بك ... أنا كلمتي على رقبتي لكن الموضوع محتاج وقت ..

كانا يجلسان في مطعم الشيراتون وقد تكهرب الجو وبدأ عزام يتحدث في موضوع آخر فاربد وجه كمال الفولي وقال بحدة :

– مـا تتوهنيش فـي موضوعـات ثانيـة..أنـا مـش صغير ... أنت اتفقت ورجعت في اتفاقك. أنا أعطيتك العقد من ثلاثة شهور لأجل توقعه مع الرجل الكبير وأنت بتماطل

– يـا كمـال بك عيب تقول بتماطل .. الموضـوع لازم أعرضـه علـى الشريك اليابـاني وأنـا منتظـر الوقت المناسب

– ومال اليابانيين ومالنا .. العقد بينك وبيـن الرجل الكبير على نسبة أرباح بينكم..

– يـا باشـا اليابـانيين لازم يعرفـوا كـل حاجـة ولـو عملت حاجة من ورائهم ممكن يفسخوا التوكيل

نفث كمال الفولي نفسا كبيرا مـن الشيشة ثـم وضـع المبسم الكبير على المنضدة ونهض فجـأة فنهض معـه ابنـه وأفراد الحراسـة فـي المـائدة المجـاورة ، وقـال بحسم وهـو يصلح من هندامه تأهبا للانصراف :

– أنت بتلعب بالنار يا عـزام .. وأنـا مندهش لأنـك

رجل ذكي ..لازم تفهم إن اللي دخلك مجلس الشعب يقدر يخرجك منه

– بتهددني يا كمال بك ..؟!

– افهم زي ما تفهم

نهض الحاج عزام ومد ذراعه إلى كتف الفولي محاولا احتضانه وقال :

– يا باشا أرجوك ما تكبرش الموضوع

– .. السلام عليكم ..

استدار الفولي لينصرف لكن الحاج عزام تشبث بذراعه قائلا:

– يا باشا الكلام أخذ وعطا .. والله العظيم ثلاثة أنا عند وعدي

وانتزع الفولي ذراعه غاضبا لكن عزام اقترب منه وهمس بما يشبه التوسل

– يا كمال بك اسمعني أرجوك ..أنا طالب منك طلب يريحني ويريحك

تطلع إليه الفولي متسائلا والغضب لم يفارق وجهه فقال عزام :

– عاوز أقابل الرجل الكبير

– الكبير ما بيقابلش حد

– يا كمال بك أرجوك تساعدني .. نفسي أقابل

سيادته و أشرح لـه الوضـع بنفسي ..وحياة العيش والملـح يا شيخ ما ترفض طلبي

وحدجه الفولي بنظرة عميقة متفحصة وكأنمـا يسبر غوره لمرة أخيرة ثم قال وهو ينصرف :

– نشوف ...

• • •

لم يكن سهلا على الحاج عزام أن يتنازل ببساطة عن ربع أرباح التوكيل و لم يكن بمقدوره أيضا أن يرفض بوضوح ، كان تقديره أنهم لن يبدأوا في محاربته مادام عندهم أمل ولو قليل في أنه سيدفع ، وقد طلب لقاء الرجل الكبير وألح في ذلك أولا حتى يكسب الوقت وثانيا لأنه لديه شعوراً غامضاً مؤكداً أنه إذا التقى بالكبير وجها لوجه سينجح في إقناعه بتخفيض النسبة وكـان لـه غرض أخير مهم : أن يتأكد من وجود الرجل الكبير أساسا .. أليس محتملا أن يكـون الفولـي يستعمل اسـم الكبـير بغـير علمه..؟!.. احتمال ضئيل طبعا لكنه قائم .. واستغرق الأمر بضعة أسابيع وعدة مكالمات تليفونية ألح فيها عزام على الفولي حتى يدبر له موعدا مع الكبير ، وذات صباح دق جرس التليفون في مكتب عـزام وسمع صوت السكرتيرة الناعم :

- الحاج عزام .. السلام عليكم .. كمال بك حيكلم سيادتك

وجاءه صوت الفولي قائلا باقتضاب :

- ميعادك مع الكبير يوم الخميس.. الساعة ١٠ صباحا تكون جاهز في مكتبك وهنبعث لك سيارة تأخذك

• • •

أعدت دولت خطتها بعناية واستطاعت بالواسطة والرشوة أن تجذب الضباط جميعا إلى صفها فعاملوا زكى الدسوقى بمنتهى الفظاظة والوقاحة ومنعوه من استعمال التليفون وتبادلوا التعليقات الهازئة به :

- عامل لي فالنتينو

- أنت بقه الشيخ الشريب ..

- تلاقي الماكينة عطلت وبقيت شغال يدوي

أخذوا يطلقون ضحكات عالية تتبعها نحنحات ونوبات سعال وشاركتهم دولت في الضحك بغرض المجاملة والتشجيع والشماتة وظل زكي صامتا ، لم يرد عليهم ، كان الحاجز الذي جهد ليحتفظ به حول نفسه قد سقط وانتهى الأمر وأدرك أن مقاومته ستزيد من سفالتهم وشعر بإشفاق بالغ على بثينة التي لم تنقطع عن النحيب أما

الضابط الذي قبض عليهما فقد قال ضاحكا بتشف:

- إيه رأيك ياخواجه ؟! .. عرفت أن الله حق ؟!

فأجابه زكى بصوت خافت:

- تصرفاتك غير قانونية وأنا سأقدم شكوى ضدك

وصاح الضابط :

- لسه بتكابر ..؟! .. أما انك فعلا نطع وبجح ..يا رجل اختشي دا أنت خلاص.. قدم في الدنيا وقدم في الآخرة.. واحد في سنك المفروض يعتكف في الجامع مش نجيبك عريان من على مومس ولك عين تتكلم

وحاولت بثينة أن تستعطف الضابط فنهرها بحدة :

- اخرسي يا بنت القحبة ياالما أعمل لك قضية آداب حالا .. ؟!

استسلما تماما وأجابا على أسئلة الضابط وأكد زكي في أقواله أن الشكوى كيدية وأن دولت لاتقيم معه في المكتب وفسر وجود بثينة معه بأنها ابنة صديق له تشاجرت مع أسرتها واستضافها في مكتبه حتى يصالحها عليهم ، ثم وقع على المحضر ووقعت بثينة و دولت (الشاكية) التي انصرفت بعدما شكرت الضباط واطمأنت على سير الموضوع وابتلع زكى كرامته بعد كل هذه الإهانات وأخذ يتوسل إلى الضابط حتى سمح له أخيرا ، على مضض ، باستعمال التليفون فاتصل مستنجدا بصديق له مستشار سابق

جاء على عجل وآثار النـوم على وجهه ودخل إلى مكتب رئيس النقطـة الذي استدعى زكي ودعـاه الـى الجلـوس وأصر أن يطلب له فنجان قهوة وأعطاه سيجارة (وكان قد نسى علبة السيجار في مكتبـه أثنـاء المعمعـة) نظـر رئيس النقطة إليه وقال مبتسما بصوت هادئ :

– طبعـا .. أنـا أعتذر عن أي إهانـات حدثـت مـن زملائي لكن أنت عارف الواقعة أخلاقية والموضـوع شـائك والضباط هنا غيورين على التقاليد وكلنا متدينين والحمد لله..

لم ينطق زكي بكلمة .. أخذ يدخـن وهـو يحدق فـي الضابط بينما انبرى المستشار قائلا :

– .. يـاريت يـا باشـا نلـم الموضـوع ويبقـى كـتر خيرك..

– طلبات سعادتك أوامر لكن للأسف المحضر تم تسجيله برقم مسلسل ولا يمكن إلغاؤه ، سيادتك أسـتاذنا وعارف الإجراءات ، الممكن نعمله إننا نسيبه هو والبنت يمشوا الليلة ويحضروا الصبح للعرض على النيابة وأنا أكلم وكيل النيابة يحفظها بإذن الله ....

وقع زكي وبثينة على تعهد بالحضور للنيابة وعندما خرجا من النقطة صافح زكي صديقه المستشار شاكرا فقال:

– يا زكي بك إحنا أخوات ما فيش بيننا شكر ..

على فكرة واضح إن أختك دولت واصلة والضباط كلهم في جيبها .. رئيس النقطة كان ممكن يقطع المحضر قدامنا لو كان عاوز..

وابتسم زكي في حزن فقال المستشار يواسيه :

– ولا يهمك .. أول ما النهار يطلع حاتصل بالمديرية وربنا يسهل

شكره زكي من جديد ومشى بجوار بثينة في اتجاه عمارة يعقوبيان ، كان نور الصباح قد بدأ يتسرب إلي شارع سليمان باشا الخالي تماما إلا من عمال البلدية الذين يكنسون بتثاقل وبعض المارة القلائل المبكرين لسبب ما أو العائدين من سهرة ممتدة وشعر زكي بتعب بالغ ودوار وغثيان ، لم يكن ثائرا ولا غاضبا ، كان فقط يحس بمعدته تؤلمه وذهنه فارغ وأفكاره مشتتة وشيئا فشيئا بدأ يستشعر أحزانا ثقيلة تدنو منه كالسحابات المسرعة قبل العاصفة ، سيسترجع مائة مرة الإهانات والشتائم التي وجهوها إليه ، لن يغتفر لنفسه أبدا أنه انكسر واستسلم لهم ، سيقارن – ليؤلم نفسه بقسوة – بين الاحترام الذي عرفه طيلة حياته وتلك المهانة التي سحقته سحقا في النقطة ، عاملوه وكأنه نشال أو قواد وما يعتصر قلبه حقا أنه استسلم تماما ولو ضربوه لما اعترض ..لماذا أذعن وتحول إلى خرقة بالية في أيديهم..؟! كيف ضاعت إرادته وهانت كرامته إلى هذا

الحد ..؟! كان يجب أن يقاومهم إلى النهاية وليكن ما يكون ، إن لم يكن دفاعا عن شرفه فعن كرامة بثينة التي أجهزوا عليها ، ماذا تقول عنه الآن وكيف يواجه عينيها وقد عجز عن حمايتها أو حتى الدفاع عنها بكلمة..؟! التفت إليها ، كانت تمشي صامتة بجواره وسمع نفسه يقول فجأة بصوت مبحوح:

– تعالي نفطر في الاكسلسيور .. أنت أكيد جعانة لم ترد بكلمة ، تبعته صامتة إلي المطعم الكبير المواجه لعمارة يعقوبيان الذي خلا تماما في تلك الساعة المبكرة إلا من عمال النظافة المنهمكين في غسيل الأرضية بالماء والصابون وزبون واحد أجنبي عجوز في أقصى المكان يحتسي القهوة ويطالع جريدة فرنسية ، .. جلسا متواجهين إلى منضدة بجوار الزجاج في الركن الذي يكشف تقاطع شارعي سليمان باشا وعدلي ، طلب زكى كوبين من الشاي "كومبليه" (مع الجاتوه) واحتواهما صمت ثقيل مؤلم حتى رشف من فنجان الشاي وتكلم ببطء وكأنه يتلمس طريقه :

– بثينة..أرجوك ما تضايقيش نفسك .. الإنسان معرض في حياته لمواقف سخيفة كثيرة ولو توقف عندها يبقى غلطان ..ضباط البوليس في مصر زي الكلاب المسعورة وللأسف صلاحياتهم كبيرة عشان قانون الطوارئ..

بدا ما يقوله سخيفا وغير ملائم وظلت بثينة مطرقة، أمامها فنجان الشاي والجاتوه لم تمسسهما وأدرك زكي كم هي حزينة فقال : ..

– أنا بس نفسي أعرف دولت جابت مفتاح المكتب منين ؟! .. هي دبرت الحركة القذرة بغرض أنها تحجر على لكنها هتخسر القضية.. المحامي أكد لي إنها حتخسر كان يقاوم انفعاله بالثرثرة ، يسعى إلى تحويل الموقف المؤلم إلى مجرد كلام.. احتمالات وافتراضات ، وكانت هذه طريقة ربما تنجح للخروج من البؤس الجاثم عليهما ..

– المحامي شرح لي الشروط القانونية للحجر .. الحجر موضوع معقد والمحكمة لا تأخذ القرار بسهولة .. دولت لأنها جاهلة فاهمة المسألة بسيطة

.. فشلت محاولته وظلت بثينة صامتة ، لم تنطق بكلمة، وكأنها فقدت قدرتها على السمع والكلام واقترب زكي منها عبر المائدة ولاحظ لأول مرة في الضوء لونها الممتقع الشاحب وعينيها المحتقنتين وتلك الخدوش المتناثرة على وجهها ورقبتها من أثر مقاومة المخبرين فابتسم بعطف واحتضن يديها بين يديه وهمس :

– بثينة لو بتحبيني انسي الموضوع البايخ ده

كانت رقته فوق احتمالها ، وكأنها اللمسة الواحدة الهينة التي ينتظرها الجبل المتصدع المتماسك بالكاد حتى

ينهار ..أخذت تبكي وقالت بصوت خافت:

– طول عمري حظي قليل .. في كل حاجة . . .

• • •

التقي طه برضوى في حضور الأخوات ، رآها مكشوفة الوجه وتحدث معها طويلا ، عرف أنها تكبره بثلاث سنوات وأعجبته معرفتها العميقة بالدين وطريقتها الهادئة الدمثة في الحديث ، حكت له عن نفسها وزوجها السابق حسن نور الدين و كيف قتلوه ..قالت:

– كتبوا في الصحف أنه أطلق النار على الضباط فاضطروا إلى قتله ويعلم الله أنه تلك الليلة لم يطلق طلقة واحدة من سلاحه .. طرقوا عليه الباب وبمجرد أن فتح أطلقوا عدة دفعات من الآلي فاستشهد فورا وثلاثة اخوة معه .. قتلوهم متعمدين وكان بوسعهم لو أرادوا أن يعتقلوهم أحياء

بان الحزن في وجه طه وعقب بمرارة :

– التعليمات الجديدة أن يقتلوا أكبر قدر من الإسلاميين .. يسمونها سياسة الضرب في سويداء القلب .... لو تعامل النظام الكافر بهذه الوحشية مع اليهود لكانت القدس تحررت من زمان..

أطرقت رضوى وساد صمت ثقيل ثم استطردت وكأنها تود لو تحكي بصراحة كل ما حدث في حياتها :

– بعد استشهاد المرحوم سعى أهلي لتزويجي وعرفت أن العريس المنتظر مهندس ثري لكنه تارك صلاة وحاول أهلي إقناعي بأنه سيلتزم بعد الزواج لكني رفضت .. شرحت لهم أن تارك الصلاة كافر شرعا ولا يجوز أن يتزوج مسلمة لكنهم ضغطوا على بشدة حتى صارت حياتي جحيما ،المشكلة أن أهلي غير ملتزمين ، هم ناس طيبون لكنهم للأسف لازالوا على الجاهلية وقد خفت على نفسي من الفتنة في ديني وأردت لعبد الرحمن ابني أن ينشأ في طاعة الله فاتصلت بالشيخ بلال ورجوته أن يسمح لي بالمعيشة في المعسكر ..

– وماذا فعل أهلك .. ؟!

– بعثت إليهم من يطمئنهم علي وسوف أزورهم بإذن الله في أقرب فرصة وأدعو الله أن يغفر لي إن كنت أسأت إليهم ..

كان يشعر وهو يستمع إليها أنها صادقة وأعجبه ذلك التعبير الجاد المخلص الذي يرتسم على وجهها الجميل وهي تتكلم وكأنها طفل مذنب يعترف بصراحة ، ولاحظ أيضا أن جسدها ممتلئ متناسق وصدرها مكتنز راسخ

(ولام نفسه بعد ذلك على هذا الخاطر واستغفر الله)..
بعد أيام استدعاه الشيخ بلال إلى مكتبه وصافحه بترحاب ثم نظر إليه مليا وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى وقال بصوت عميق وكأنه يستأنف حديثا بينهما :

- هه .. ما رأيك ..؟!
- في أي موضوع ..؟؟

.. أطلق الشيخ ضحكة عالية وقال :

- ألا تعرف الموضوع يا شيخ طه ؟! .. موضوع رضوى يا سيدي ..؟!

سكت طه وابتسم بحرج فربت الشيخ على كتفه وقال:

- مبارك يا ولدي ..

... وما أن انتهت صلاة العشاء يوم الخميس حتى تحلق الاخوة حول طه يهنئونه بينما لعلعت الزغاريد من الحجرة الداخلية المخصصة للحريم ، كانت الأخوات على مدى يومين قد انهمكن في إعداد العروس وتجهيزها ، وبعد ربع ساعة من الزغاريد والتهاني جلس الشيخ بلال لعقد القران .. وكلت رضوى عنها في عقد الزواج الأخ أبو حمزة (قريبها وبلدياتها من أسيوط) وتطوع أخوان آخران للشهادة على العقد وبدأ الشيخ بلال بكلمة معتادة عن الزواج في شرع الله ثم جمع يد طه إلي يد أبي حمزة وردد صيغة

العقد فردداها وراءه ولما فرغوا تمتم الشيخ :

- اللهم اجعل قرانهما مباركا واهدهما إلي طاعتك وارزقهما الذرية الصالحة .. ثم وضع يده على رأس طه قائلا :

- بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما أنت وزوجتك في الخير

تدافع الأخوة جميعا إلى معانقة العريس وتهنئته وانطلقت الزغاريد بقوة وأخذت الأخوات ينشدن وهن يضربن على الدفوف :

أتيناكم .. أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم

.. كان طه يرى طريقة الزفاف الإسلامية لأول مرة وتأثر من فرح الأخوات وغنائهن وحماس الاخوة في تهنئته ثم اصطحبت الأخوات العروس إلى بيتها الجديد : حجرة واحدة متسعة تفضي إلى حمام صغير منفصل في المبنى الكبير المخصص للمتزوجين (الذي كان في الأصل مسكنا لعمال المحاجر في شركة الأسمنت أيام السويسريين ظل مهجورا ومنسيا تماما حتى أخذه بعض الإسلاميين العاملين في الشركة وأعدوه كمعسكر سري للجماعة).. انصرفت النساء وساد السكون في المسجد وجلس الاخوة مع العريس

ودار حديث مرح تعالت خلاله ضحكاتهم ثم نهض الشيخ بلال قائلا :

- هيا بنا يا اخوان..

وحاول طه أن يستبقيه فضحك الشيخ وقال :

- في ليلة العرس يجب ألا تبدد طاقتك في الحديث

وانهمرت التعليقات الضاحكة من الاخوة وهم خارجون من المسجد وودعوا طه وانصرفوا فمضى وحيدا وبدأ يشعر برهبة .. كان قد تخيل ما سيفعله ليلة الزفاف بأشكال عديدة مختلفة ، ثم توكل على الله في النهاية وقرر أن يترك كل شيء يمضي كما قدر الله وان ظلت تقلقه فكرة أنه بلا تجارب مع النساء بينما زوجته لها خبرة سابقة ربما تجعل إرضاءها صعبا ، وكأنما قرأ الشيخ بلال أفكاره فانفرد به في اليوم السابق على الزفاف وحدثه عن الزواج وحقوق زوجته الشرعية عليه وأكد على عدم تحرج المسلم من زواج المرأة الثيب وأن الزواج السابق للمرأة المسلمة لا ينبغي أن يكون نقطة ضعف يستغلها ضدها زوجها الجديد وقال ساخرا:

- العلمانيون يتهموننا بالتزمت والجمود بينما يعانون هم من عقد نفسية لا حصر لها ..ترى الواحد منهم إذا تزوج من امرأة سبق لها الزواج ظلت ذكرى زوجها الأول تلاحقه وقد يسيء معاملتها وكأنه يعاقبها على

زواجها الحلال .. الإسلام لا يعرف هذه العقد النفسية .. كانت كلها رسائل غير مباشرة فهمها طه عن كيفية معاملة رضوى و استعرض الشيخ معه ما يكون بين الرجل والمرأة وشرح له الآية من سورة البقرة " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم" واستفاض في شرح التعبير القرآني " وقدموا لأنفسكم " الذي يعلمنا من خلاله المولى عز وجل كيف نأتي النساء بطريقة إنسانية رقيقة وكانت للشيخ قدرة على الحديث في أدق التفاصيل الجنسية بطريقة جادة ومحترمة لا تخدش الحياء وقد أفاد طه من كلامه وعرف أشياء كثيرة كان يجهلها وازداد حبا له وقال لنفسه لو أن أبي نفسه كان معي لما فعل أكثر مما فعله الشيخ بلال .. وهاهي طقوس الزفاف تنتهي ويتركه الاخوة وحده ليواجه اللحظة الحاسمة .. صعد الدرج وطرق الباب ثم دخل إلى حجرة العروس فوجدها جالسة على حافة الفراش وقد كشفت الحجاب عن رأسها ، كان شعرها أسود ناعما منسدلا على كتفيها وبدا سواده بجوار بياض بشرتها المتوردة خلابا ولاحظ طه لأول مرة عنقها الجميل ويديها الصغيرتين وأناملها الرقيقة فخفق قلبه بشدة وتنحنح ثم قال بصوت مرتبك:

- السلام عليكم ..

فابتسمت رضوى وأطرقت وهمست برقة وقد تضرج وجهها: - وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . .

عرف حاتم رشيد بالخبر في اليوم التالي ، سهر في الجريدة حتى صدور الطبعة الأولى وعاد منهكا إلي البيت حوالي الرابعة صباحا فقال لنفسه " أنام والصبح أطمئن على عبده " .. ثم استيقظ متأخرا واستحم وارتدى ثيابه وخرج متوجها إلي المستشفى وفي مدخل العمارة لقيه الشاذلي البواب فقال باقتضاب:

– عبد ربه سايب لك مفاتيح الحجرة والكشك ..

– إيه ؟!

هكذا هتف حاتم مأخوذا وأخبره البواب بوفاة الطفل وما حدث بعد ذلك فأشعل سيجارة وسأل وهو يجهد ليبدو متماسكا :

– قال لك رايح فين ؟!.

– قال انه حيسكن في امبابة ورفض يسيب عنوانه الجديد ..

عاد حاتم وصعد إلى السطح وأخذ يسأل السكان عن عنوان عبده الجديد وتحمل نظراتهم الوقحة وإجاباتهم العدوانية (كان لسان حالهم اترك عبده في حاله وكفاية ما جرى له) لكنه في النهاية لم يتوصل إلى شيء، وفي المساء، لمدة ساعتين، وقف بسيارته أمام الكشك المغلق لعل عبده يكون نسى شيئا فيعود ليأخذه بالمفتاح الإضافي الذي يحتفظ به ، ذهب إلى الكشك ثلاثة أيام متوالية لكن عبده لم

يظهر ولم ينس حاتم ، أخذ يبحث عنه في كل مكان وعند كل من يعرفه لكن عبثا .. وبعد أسبوع طويل من البحث تأكد له أن عبده قد ذهب الى الأبد فجرفته موجة عاتية من الحزن واليأس ، انتابته مشاعر مؤلمة ومختلطة : كان يفتقد عبده .. وجوده الحار وجسده القوى الصلب وطيبته وتقانه وصوته الأجش ولكنته الصعيدية ، كان أيضا يفيض بالإشفاق عليه لأنه يعرف كم يحب ابنه وكم يحزنه أن يموت وأحس بالندم لأنه تركه ذلك اليوم في المستشفى وذهب الى الجريدة ، قال لنفسه : كان من الممكن أن أؤجل العمل لأظل معه في هذا الوقت الصعب ..كان يحتاج إلي وجودي بجواره لكنه خجل من أن يطلب ذلك..'

يوما بعد يوم ازدادت لوعة حاتم وتملكه إحساس بأنه سيئ الحظ حقا : أعواما طويلة قضاها في بؤس ومعاناة حتى يجد رفيقا وديعا وحساسا لا يثير المشاكل وما أن بدأت حياته تستقر إذا بالطفل يموت وعبد ربه يختفي ليستأنف حاتم من جديد رحلته الضائعة ..سيكون عليه أن يجوب شوارع وسط البلد كل ليلة ليلتقط جنديا من الأمن المركزي ، قد يكون لصا أو مجرما يضربه أو يسرقه كما حدث كثيرا من قبل ، سيعود مرة أخرى إلى بار شينو بحثا عن برغل والى حمام الجبلاوي في الحسين ليلتقط صبيا مراهقا يشبع معه شهوته ويتحمل في المقابل سوقيته

وجشعه ، لماذا ضاع منه عبد ربه بعد ما أحبه واطمئن إليه وخطط لحياتهما معا..؟!.. هل كان من الصعب حقا أن يهنأ بعشيقه طويلا ..؟! لو أنه يؤمن بالله لاعتقد أن محنته عقاب الهي على اللواط لكنه يعرف عشرة لوطيين على الأقل يهنأون بحياة وادعة مطمئنة مع عشاقهم ، فلماذا هو بالذات يضيع منه عبده..؟! شيئا فشيئا تدهورت نفسيته ، فقد شهيته للطعام وأخذ يسرف في الشراب ولزم البيت ، لم يعد يذهب إلي الجريدة إلا لضرورات العمل القصوى ، يقضيها بسرعة ويهرع عائدا إلى بيته حيث الصمت والحزن والذكريات .. هنا كان يجلس عبده وهنا كان يأكل وهنا كان يطفئ سجائره وهنا .. هنا كان يستلقي بجواره فيمسح حاتم بيديه على جسده الأسود ويقبل كل مكان فيه ويهمس بصوت متهدج من وهج الشهوة :

- أنت ملكي وحدي يا عبده .. أنت حصاني الأسود الجميل..

ليالى كاملة قضاها حاتم في اجترار الذكريات ، واسترجع علاقته بعبده دقيقة بدقيقة ، ووسط غيوم السكر واليأس بزغت ذات ليلة فكرة ، ومضت في ذهنه كالبرق، استعاد جملة قالها عبده مرة بدعابة :

- الصعيدي عمره ما يستغنى عن الصعايدة ...بالك أنا لورحت أي مكان ؟!.. لازم أسأل عن قهوة الصعايدة واقعد فيها.

انتبه حاتم ونظر بلهفة إلى الساعة فوجدها جاوزت الواحدة صباحا ، ارتدى ثيابه على عجل وبعد نصف ساعة كان يسأل المارة في امبابة عن قهوة الصعايدة وبعد نصف ساعة أخرى وجدها .. وفي المسافة الصغيرة التي قطعها من السيارة إلى مدخل القهوة أحس بالعرق يتصبب على جبهته وقلبه يكاد يتوقف من شدة الخفقان .. كان المقهى ضيقا وقذرا للغاية ودخل حاتم بسرعة وأخذ يتلفت حوله بلهفة (ونذكر بعد ذلك في العلاقة بين رغبتنا الشديدة في شيء ما وإمكانية تحققه ، هل يتحقق ما نريده حتما إذا رغبنا فيه بالقوة الكافية ؟!) .. كان يتوق لأن يجد عبده لدرجة أنه وجده فعلا ، لمحه جالسا في أقصى المقهى يدخن المعسل وقد ارتدي جلبابا فضفاضا داكنا ووضع على رأسه عمامته الصعيدية الكبيرة ، بدا ضخما ومهيبا في تلك اللحظة وكأنه مارد سحري أسمر تجسد من الخيال ، بدا أيضا وكأنه قد عاد إلي نفسه ، إلى أصله وجذوره ، وكأنه خلع مع ثيابه الإفرنجية كل تاريخه الاستثنائي الطارئ مع حاتم رشيد الذي وقف أمامه صامتا للحظة ، أخذ يتفحصه مليا وكأنه يتأكد ، يستوثق ، يتمسك بوجوده لئلا يختفي من جديد ولم يلبث أن اندفع ناحيته وهتف بصوت لاهث جعل الرواد يلتفتون إليه:

- عبده ..أخيرا ..

في الليلة الأولى تم لقاؤهما ببساطة وعفوية وكأنها زوجته من سنوات ، تفتحت الوردة بين أصابعه وسقاها أكثر من مرة حتى ارتوت ، وأدهشه ذلك وأخذ يتساءل وهو يسترجع تفاصيل الزفاف : كيف نجح مع رضوى بسهولة وهو الذي لم يلمس امرأة من قبل ؟!..أين ذهب توجسه وتردده وخوفه من الفشل ؟!ربما لأنه استراح نفسيا لرضوى أو لأنه نفذ نصائح الشيخ بلال كلها أو لأن زوجته شجعته بخبرتها واطلعته على مكامن الأسرار ، فعلت ذلك ببراعة ولباقة وبغير أن تتخلى عن حيائها الطبيعي كامرأة مسلمة ..فكر طه في كل ذلك واستقر رأيه على أن زواجه بهذه المرأة نعمة كبيرة من ربنا سبحانه وتعالى لأنها انسانة مهذبة أمينة صادقة الإسلام ، وقد أحبها واستقرت حياته معها واستراح لنظامهما اليومي : يتركها في الصباح ويقضي النهار كله في المعسكر ثم يعود بعد صلاة العشاء فيجد الحجرة نظيفة مرتبة والطعام الساخن الشهي ينتظره وكم يحب جلوسه معها إلى الطبلية ليتناولا العشاء : يحكي لها عن وقائع اليوم ، وتروي له أحاديثها مع الأخوات وملخص ما قرأته في الصحف (إذ لم يكن يجد وقتا لقراءتها) ويضحكان معا من طرائف عبد الرحمن الصغير وشقاوته التي لا تنتهي إلا بسقوطه المفاجئ في براثن النعاس .. عندئذ تحمله رضوى إلى

فراشه الذي أعدته له على أرض الحجرة ثم تعود لترفع بقايا الطعام وتغسل الصحون بعناية ، بعد ذلك تستأذن إلي الحمام فيسبقها طه إلي سريرهما المعدني القديم ، ينتظرها مستلقيا على ظهره، يحملق في سقف الحجرة وقلبه يفيض بذلك الشغف المتوتر اللذيذ الذي صار يعرفه ويحبه وينتظر حدوثه كل ليلة ، شوقه العارم إليها ، جسدها الفاتن المنتعش من أثر الماء الساخن ، العاري تماما إلا من فوطة كبيرة تتدثر بها وهي خارجة من الحمام ، اللحظات الصامتة الشيقة المتوترة المفعمة بالرغبة بينهما وقد أعطته ظهرها وأخذت تتزين أمام المرآة ، تلك الجمل المرتبكة الفارغة من المعنى التي تنطق بها بصوت خافت لاهث ، تتظاهر بالحديث في أي موضوع وكأنها تداري شوقها إليه فيلتقط الإشارة ولا يمهلها ، يضم إليه جسدها الفارع اللين ويدغدغه بقبلاته وأنفاسه الملتهبة حتى تفيض عذوبته ثم يفرغ في أحضانها مشاعره جميعا : أحزانه وذكرياته وأحلامه المحبطة ورغبته التي لا تهدأ في الانتقام وكراهيته الوحشية لمعذبيه ، حتى تلك الأشواق الجنسية الغامضة المضطرمة التي كثيرا ما اجتاحته وآلمته في غرفته فوق السطح ، يفرغها في جسد رضوى فيتحرر ويرتاح وتخمد النار لتخلف محبة هادئة مستقرة تزداد رسوخا كل ليلة، يتأملها بعد الغرام بامتنان صادق ويغرق يديها ووجهها

وشعرها بالقبلات ، وقد صار خبيرا بثنايا جسدها وتفاصيله وأتقن لغته حتى ليمتد بهما الحب ساعات يتألق خلالها وجه رضوى بالنشوة مرات ، وقد مرت شهور على حياته الجديدة معها تذوق فيها السعادة حتى كانت ليلة التقى بها في الفراش فتعثر أداؤه على غير العادة وارتبك ثم انقطع ..ساد الصمت بينهما وفجأة هب ناهضا بعنف فارتج الفراش تحتهما واندفع فأوقد النور ولملمت هي ثوبها لتغطي جسدها العاري وسألت بقلق:

– فيه إيه ..؟!

ظل صامتا وجلس ببطء على الأريكة ثم انحنى ببطء ووضع رأسه بين يديه وتقلص وجهه وكأن شيئا ما يؤلمه فهرعت إليه وقد اشتد جزعها :

– مالك ياطه .....؟!

ولعله تأثر من لهفها الصادق عليه فتململ وزفر بقوة ثم قال متحاشيا النظر إلى عينيها :

– أرجوك يارضوى ما تفهميني غلط ..أنا طبعا سعيد بزواجنا وأحمد ربنا ألف مرة لأنه وفقني لزوجة صالحة زيك ..لكني لم أنضم إلى المعسكر بغرض الزواج .. أنا جئت مع الشيخ شاكر لهدف محدد.. الجهاد في سبيل الله.. بقى لي هنا سنة كاملة . خلصت كل أنواع التدريب وحتى الآن لم يكلفوني بأي مهمة .. أنا خايف نفسيتي

تضعف مع الوقت..

كان يتكلم بصوت حزين خافت ثم خبط بيده على ساقه وصاح بمرارة :

- إن كان على الزواج كنت تزوجتك في أي مكان غير المعسكر .. أنا أسأل نفسي مائة مرة كل يوم أنا موجود هنا ليه .. ليه يارضوى ..؟!.. أنا متأكد إن الشيخ بلال زوجني بك حتى يصرفني عن الجهاد..

ابتسمت رضوى كأم حكيمة متفهمة وأحاطت كتفه بذراعها وقالت بصوت حان :

- استعذ بالله واطرد هذه الأفكار عن رأسك لأنها وسوسة شيطان .. الشيخ بلال رجل صدق وهو لا يكذب أبدا ولو أنه يراك غير جدير بالجهاد لأخرجك من المعسكر .. كما أنه لم يزوجك من امرأة فاسدة تلهيك عن دينك (وهنا اكتسى صوتها بنبرة لائمة) ..أنا زوجتك ياطه وأول من يحثك على الجهاد وأول من يفخر بك لو نلت الشهادة وأدعو الله أن أنالها معك..لكنني بخبرتي مع المرحوم الشهيد حسن أعرف أن العمليات العسكرية ليست نزهة أو لعبة وهي محكومة باعتبارات دقيقة لا يعرفها إلا الاخوة في شورى الجماعة

وفتح طه فمه ليعترض فأسرعت ووضعت يدها بلطف على فمه كأنما لتمنعه من الحديث وهمست :

- اصــبر ياطـــه . اصبر. إن الله مع الصابرين.

* * *

في تمـام العاشرة ، صبـاح الخميس ، توقفت أمام عمـارة يعقوبيـان سيارة مرسيدس شبح سوداء نـزل منهـا رجل أربعيني أنيق وسأل حتى أوصلوه إلـى مكتب الحـاج عزام فحياه وقدم نفسه بخيلاء :

- جمال بركات .. من سكرتارية الباشا

ركب الحاج عـزام بجواره فـي السيارة ولـم يتبادلا طـوال الطريق سوى بضع كلمات مجاملة استغرق بعدها عزام فـي التسبيح وترديد الأدعيـة ، كـان يعرف أن الرجـل الكبـير يسكن على ترعة المريوطية لكنه لم يتخيل بيتـه أبدا بهـذا الشكل : قصر ضخم ذكره بالقصور الملكية التي كان يراهـا في طفولته مقام على ربوة عالية تجعله أشبه بقلعـة حصينـة تحوطها مساحة لاتقل عن مائة فدان مزروعة عن آخرها ، قطعت السيارة المسـافة من البوابـة الخارجيـة حتـى بـاب القصر في حوالي نصف ساعة عبرت خلالها طريقا طويـلا وسط الحدائق والأشجار وتوقفت أمـام ثـلاث حواجز أمنيـة ليفحصها رجال الأمن ، كانوا ضخاما يرتدون بدلا كاملـة وأربطة عنق متشابهة وتتدلى من أحزمتهم طبنجـات كبيرة

ويمسكون في أيديهم بأجهزة إليكترونية على هيئة عصى تصدر أزيزا يفحصون بها السيارة بعناية وبعد ذلك يطلعون على بطاقة الحاج و يطابقون بياناتها بالتصريح الذي يقدمه لهم السكرتير ، حدث ذلك ثلاث مرات مما ضايق الحاج عزام حتى كاد يعترض في المرة الأخيرة لكنه كظم غيظه وآثر الصمت وأخيرا صعدت السيارة ممرا عريضا ملتويا حتى وصلت إلى باب القصر وهناك تكررت إجراءات الأمن بنفس العناية والحزم وفتحوا هذه المرة حقيبة الحاج عزام وفتشوها ثم طلبوا إليه أن يجتاز بوابة إليكترونية .. وقد بدا الضيق على وجهه فاقترب منه السكرتير وقال بوقاحة:

- إجراءات الأمن أساسية..

ثم طلب إليه أن ينتظر في البهو وانصرف وظل عزام منتظرا فترة راح خلالها يتأمل الأعمدة الرخامية المستديرة والنقوش الفارسية على السجاجيد الفخمة والثريات الكريستال العملاقة المتدلية من السقف الشاهق وشيئا فشيئا أحس بالضيق والمهانة وفكر في أنهم يتعمدون إذلاله بالانتظار الطويل وإجراءات الأمن المبالغ فيها " انهم يهينونني وفي نفس الوقت ينهبون أموالي .. يريدون أن يأخذوا ربع الأرباح على الجاهز ولا ينطقون بكلمة شكر واحدة .. بلطجة وقلة أدب " امتلأ عزام بالحنق وامتعض

وجهـه وراودتـه نفسـه بالانسحاب من هذه المقابلة ، تمنى لو ينهض الآن ويطلب السكرتير ويخبره بأنه سينصرف وليكن ما يكون لكنه في داخله كان يعلم استحالة ذلك ، لو تركوه ينتظر حتى الصباح لما تجرأ على الاعتراض بكلمة ..انه الآن في دائرة الكبار وغلطة واحدة تعني نهايته وعليه أن يستحضر حيلته ويستجمع خبراته حتى يستعطف الكبير ويقنعه بتخفيض النسبة إلي أقل من الربع.. هذا أقصى ما يستطيعه وأية حماقة يرتكبها سوف يدفع ثمنها غاليا وفورا .. أخيرا سمع وقع خطوات يتردد من خلفه وتملكته الرهبة لدرجة لم يقو معها على الالتفات وسرعان ما ظهر أحد أفراد الحراسة وأشار له أن يتبعه ، مشيا في ممر طويل وخطواتهما تقعقع على رخام الأرضية المصقول حتى وصلا إلي قاعة فسيحة يتصدرها مكتب كبير من خشب الأرو ومائدة اجتماعات كبيرة اصطفت حولها عشرة مقاعد .. أشار فرد الحراسة إلى عزام أن يجلس وقال ببرود وهو ينصرف:

– انتظر هنا لغاية الباشا ما يكلمك ..

استراب عزام من كلمة " يكلمك " وتساءل هل يعنى ذلك أن الرجل الكبير غير موجود ..؟!.. لماذا لم يتصل به ليعتذر عن الموعد ويوفر عليه هذا العناء وتركوه ينتظر فترة طويلة وفجأة سمع صوتا يتردد عاليا في أنحاء

القاعة:

- أهلا يا عزام ..

هب واقفا وقد تملكه الفزع وأخذ يلتفت حوله بحثا عن مصدر الصوت الذي أطلق ضحكة خفيفة واستطرد :

- ما تخافش .. أنا موجود في مكان تاني لكني بأكلمك وشايفك .. للأسف ماعنديش وقت كتير .. خلينا نتكلم في الموضوع .. ليه طلبت مقابلتي..؟!

استجمع الحاج ذهنه وبذل مجهودا حتى يرفع صوته بالكلام الذي كان أعده على مدى أسبوعين لكن الأفكار تبخرت من رأسه من فرط الخوف واستطاع بعد لحظات أن ينطق بصعوبة :

- يافندم أنا خدامك وتحت أمر سيادتك .. جميلكم مغرقني وخيركم على البلد كلها .. ربنا يخليكم ويحفظكم لمصر . كلي أمل إن سيادتك تنظر لموضوعي برحمة يافندم .. أنا عندي مسئوليات كبيرة وورايا بيوت مفتوحة ربنا يعلم ..نسبة الربع تتعبني يافندم جدا

ظل الكبير صامتا فتشجع عزام واستطرد متوسلا :

- أنا طمعان في كرم سيادتك .. سايق عليك النبي ما ترجعني مكسور الخاطر لو سيادتك تخفض النسبة إلى الثمن مثلا يبقى سيادتك كتر خيرك

مرت لحظة أخرى من الصمت ثم علا صوت

الكبير منفعلا:

- اسمع يا عزام .. أنا ما عنديش وقت أضيعه معك ..النسبة دي ثابتة عليك وعلى غيرك ..أي بزنس كبير زي التوكيل بتاعك ندخل فيه شركاء بالربع ..والنسبة دي نحصل عليها مقابل شغل ..إحنا بنحميك من الضرائب والتأمينات والأمن الصناعي والرقابة الإدارية والف جهة تقدر توقف مشروعك وتضيعك في لحظة .. وبعدين أنت بالذات احمد ربنا إننا قبلنا نشتغل معك أصلا لأن شغلك وسخ ..

- وسخ ..؟!

هكذا ردد عزام بصوت عال وتململ وأفلتت منه تمتمة مستنكرة استفزت الكبير فارتفع صوته منذرا :

- انت عبيط وإلا بتستعبط ؟! ..أنت مكسبك الأصلي من شغل وسخ غير التوكيل الياباني.. من الأخر أنت شغال في البودرة واحنا عارفين كل حاجة.. . اقعد على المكتب وافتح الملف المكتوب عليه اسمك .. تلاقي صور من التقارير عن نشاطك .. تحريات أمن دولة ومكافحة مخدرات ومباحث عامة .. كلها عندنا واحنا اللي موقفينها واحنا برضه في لحظة واحدة نقدر نشتغل بها ونضيعك . اقعد يا عزام واعقل واقرأ الملف ، ذاكره واحفظه كويس ، وفي آخر الملف حتلاقى نسخة من عقد

الشركة بيننا لوتحب توقع عليه وقع .. على راحتك..
ثم أطلق الكبير ضحكة متهكمة وانقطع الصوت . . .

• • •

لقيه عبده بجفاء.. صافحه ببرود وهو جالس ثم أشاح بوجهه واستغرق في تدخين الشيشة فابتسم حاتم وقال متوددا :

– إيه المقابلة الوحشة دي .. اطلب لي شاي على الأقل ؟!

وبغير أن يلتفت إليه ، صفق عبده وطلب من النادل كوبا من الشاي وبدأ حاتم حديثه قائلا :..

– البقية في حياتك يا عبده.. أنت مؤمن بربنا وقدره .. لكن كونك حزين على ابنك هل يمنعك تشوفني..؟!..

فانفعل عبده فجأة :

– يا حاتم بك كفاية .. ربنا يتوب علينا.أنا ولدي مات على ذراعي ..

– يعني إيه ..؟!..

– يعني ربنا عاقبني على ذنبي معك..

– هوكل واحد ابنه يموت يبقى ربنا عاقبه

– أيوه .. ربنا سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل وأنا غلطت معك كثير واستأهل العقاب..

– من أقنعك بالكلام ده ؟!.. هدية مراتك ؟

– هدية ولاغيرها مالك أنت .. أقولك حكايتنا خلصت .. كل واحد من سكة ..لا تشوفني ولا أشوفك بعد كده أبدا ..

كان صوته مختنقا مضطربا وهو يصيح ويشيح بيديه كأنما ليقطع على نفسه خط الرجعة وصمت حاتم قليلا ثم بدأ يتكلم بصوت هادئ وقد غير من خطته:

– طيب يا سيدي..اتفقنا .انت تركت السطح والكشك وعاوز تقطع علاقتنا وأنا موافق .. لكن حتصرف على نفسك ومراتك منين ؟!

– الأرزاق على الله ..

– طبعا على الله ..لكن واجبي اني أساعدك حتى لو انتهت علاقتنا ..برغم معاملتك الوحشة يا عبده أنا شامل همك .. .

– ...

– اسمع..أنا شفت لك شغلة حلوة لأجل تفتكرني بالخير..

ظل عبده صامتا وبان عليه بعض التردد وجذب نفسا طويلا من الشيشة كأنما يداري ارتباكه

– ما سالتش شغلة ايه ؟!

– ....

- أنا وصيت عليك تشتغل بواب في المركز الثقافي الفرنسي في المنيرة .. شغلة نظيفة ومريحة ومرتبها خمسمانة جنيه شهري

ظل عبده صامتا ، لم يرد ولم يعترض واستطرد حاتم وقد أحس نجاحه

- أنت تستأهل كل خير يا عبده.. خذ

.. أخرج من حقيبة يده القلم ودفتر الشيكات وارتدي نظارته الطبية وكتب شيكا وابتسم قائلا

- دا شيك بألف جنيه لزوم مصاريفك لغاية ما تستلم الشغل ظلت يده ممدودة لحظة حتى حرك عبده يده ببطء وأخذ الشيك قائلا بصوت خافت :

- شكرا ..

- عبده .. أنا عمري ما فرضت عليك علاقتنا ..إذا قررت تسيبني سيبني .. لكن لي عندك طلب واحد أخير..

- طلب إيه ..؟!

اقترب منه حاتم حتى التصق به ثم وضع يده على ساقه وهمس بصوت مضطرم

- تبيت معي الليلة .. الليلة بس وتبقى آخر ليلة بيننا.. أوعدك يا عبده لوجنت معي الليلة أوعدك انك ما تشوفني أبدا بعد كده ..أرجوك

جلسا متجاورين في السيارة واحتواهما صمت متوتر، كان حاتم ينفذ خطته بدقة وقدر أنه سيحتفظ في

النهاية بعبده الذي لن يصمد لإغراء المال والعمل الجديد كما أنه ما أن يتذوق اللذة من جديد حتى يستأنف العلاقة .. أما عبده فقد برر استجابته لدعوة حاتم بأنها ضرورة فرضتها الظروف ، منذ أن ترك الكشك وهو لايجد ما ينفقه على نفسه وزوجته حتى الشاي والمعسل يأخذهما على الحساب من صاحب القهوة بلدياته وقد استدان من معارفه الصعايدة ثلاثمائة جنيه في أقل من شهرين وأعياه البحث عن عمل مناسب بلا جدوى واشتغل في الفاعل فلم يتحمل وتركه بعد أيام قليلة ، لم يعد بمقدوره تحمل هذه الأعمال الشاقة : يحمل القصعة الثقيلة على ظهره ويصعد ويهبط بها طوال النهار من أجل بضعة جنيهات يسرق المقاول نصفها ناهيك عن الشتائم والإهانة ، ماذا يفعل إذن ..؟! إن الشغلة التي يعرضها حاتم عليه محترمة ونظيفة وسوف تقيه شر الفقر إلى الأبد ، فليضاجعه الليلة فقط ، يرضيه مرة واحدة ثم يصرف الشيك ويسدد ديونه واحتياجاته وبمجرد أن يستلم عمله الجديد يقطع علاقتهما ويطوي هذه الصفحة القذرة.. انه واثق أن الله سيتوب عليه ويتقبل توبته ولسوف يذهب بعد ذلك في أول فرصة لأداء الحج ليعود نقيا من الذنوب كما ولدته أمه ، ستكون آخر ليلة يرتكب فيها الذنب ومن الغد سوف يعلن توبتَه ويستقيم .. وقرر عبده في نفسه ألا يخبر هدية بأنه رأى حاتما لأنها لو عرفت ستحيل حياته إلى جحيم ، والحق أنها لم تتركه يوما

واحدا منذ وفاة الطفل بغير أن تتشاجر معه وتشتمه وتدعو الله عليه ، أفقدها الحزن عقلها وصارت عبئا ثقيلا على أعصابه وحياته كلها ، تعامله وكأنه قتل ابنه بيديه ، والمحزن أن الإحساس بالذنب تسرب إليه وتمكن منه وكثيرا ما يمنعه من النوم ، لكن كل ذلك سينتهي الليلة، سوف يشبع جسد حاتم لمرة أخيرة ويحصل على الوظيفة ويتوب..

دخلا إلى الشقة في صمت وأضاء حاتم الأنوار قائلا بمرح :

– البيت من غيرك وحش ..

فاقترب منه عبده فجأة واحتضنه وحاول أن يخلع ملابسه ليضاجعه ، كان متعجلا لإنهاء المهمة وفهم حاتم تعجله كدليل على اشتياقه فضحك بسعادة أنثوية وهمس بدلال :

– صبرك يا عبده ..

وهرع إلى الداخل بينما فتح عبده البار وأخرج زجاجة الويسكي وصب لنفسه كأسا كبيرة تجرعها دفعة واحدة بلا ماء ولا ثلج ، شعر بحاجة شديدة لأن يسكر وفي الفترة القصيرة التي استغرقها حاتم في التزين أفرغ في جوفه عدة كئوس فسرى إليه مفعول الخمر وشعر بالدم يتدفق حارا ساخنا في عروقه وتملكه إحساس بأنه قوي

قادر لا يمنعه شيء عن تنفيذ ما يريد خرج حاتم من الحمام وهو يرتدي البيجاما الحريرية الوردية على اللحم ومشى متأودا إلى المطبخ وعاد بطعام ساخن وضعه على المائدة وصب لنفسه كأسا بدأ يحتسيها ببطء وهو يلحس طرف الكأس بلسانه بطريقة مثيرة ثم وضع يده على ذراع عبده القوية وتنهد وهمس :

– وحشتني جدا..

فأبعد عبده يده وقال بصوت مخمور :

– يا حاتم بك إحنا اتفقنا .. الليلة آخر ما بيننا .. من باكر كل واحد يروح لحاله .. صح..؟!

فابتسم حاتم ومر بأصابعه على شفتيه الغليظتين وقلد لكنته مداعبا :

– صح يا صعيدي

هذه المرة لم يطق عبده فانقض على حاتم وحمله كالطفل بين ذراعيه برغم اعتراضه الضاحك وصيحاته المثيرة، ألقى به على الفراش وخلع بنطلونه وألقى بنفسه عليه، ضاجعه بقوة، افترسه كما لم يفعل من قبل حتى أن حاتما صرخ بصوت عال أكثر من مرة من فرط اللذة والألم، أطفأ شهوته في جسده ثلاث مرات في أقل من ساعة، فعل ذلك بغير أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه يؤدي المهمة الثقيلة بحماس ليتخلص منها ولما فرغا استلقى حاتم

عاريا على بطنه وأغمض عينيه في غيبوبة النشوة وكأنه مخدر أو نائم لا يريد أن يصحو أبدا من حلمه الرائع اللذيذ بينما ظل عبده مستلقيا يحدق في السقف ودخن سيجارتين بغير أن ينطق بكلمة ثم هب ناهضا وشرع في ارتداء ملابسه فانتبه حاتم إليه ، اعتدل جالسا على الفراش وسأله بقلق :

– على فين..؟!

– ماشي

هكذا قال بعدم اكتراث وكان الأمر منته فنهض حاتم ووقف أمامه

– خليك بايت الليلة والصبح تمشي

– ولا أستنى ولا دقيقة واحدة ..

احتضنه حاتم بجسده العاري وهمس :

– عشان خاطري تبات

فجأة ..دفعه عبده بقوة لدرجة أنه سقط على المقعد المجاور للفراش فتضرج وجهه وصاح غاضبا:

– أنت تجننت ؟!.. ازاي تزقني ..؟!

ورد عبده متحديا :

– .. دلوقت كل واحد يروح لحاله

– واغتاظ حاتم من جملة عبده الواضحة التي أكدت فشل خطته فقال :

– اتفقنا تبيت الليلة
– اللي اتفقنا عليه أنا عملته ومالكش حاجة عندي
– أنت فاهم نفسك مين بالضبط .. ؟!
لم يرد عبده وأكمل ارتداء ثيابه في صمت فاستطرد حاتم وقد ازداد حنقه :
– رد علي .. أنت فاهم نفسك مين ..؟!
– بني آدم زيي زيك
– أنت مجرد صعيدي جاهل حافي ..أنا لميتك من الشوارع ونظفتك وعملتك بني آدم ..
.. تقدم منه عبده بخطوة بطيئة ونظر إليه مليا بعينيه المحمرتين من أثر الشراب وقال محذرا:
– بص .. إياك تغلط معي.. فاهم ..؟!
لكن حاتما فقد السيطرة على نفسه وكأنما مسته لعنة شيطانية تدفع به إلى النهاية فتفحص عبده بنظرة مستهزئة وقال :
– أنت نسيت نفسك يا عبده ..؟! .. أنا بتليفون واحد أوديك في ستين داهية
– ماتقدرش ..
– حاوريك أقدر ولا لأ .. لو نزلت دلوقت حابلغ البوليس انك سرقتني
كاد عبده أن يرد عليه لكنه هز رأسه وخطا ناحية

الباب لينصرف ، كان يحس بأنه الأقوى وأن حاتم لايمكن أن ينفذ تهديده ، مد يده ليفتح باب الشقة لكن حاتم أمسك بجلبابه وصاح :

- مش حتمشي

- أقولك سيبني

- لما أقولك تستنى يعني تستنى..

هكذا هتف حاتم وهو يتشبث برقبته من الخلف فاستدار عبده ونزع يديه بسهولة ثم صفعه بعنف على وجهه فحملق لحظة وجحظت عيناه وكأنه جن ثم صاح :

- بتضرب سيدك يا خدام يابن الكلب .. وحياة أمك ولا فيه شغل ولا فلوس ..أنا الصبح أتصل بالبنك وأوقف صرف الشيك .. أبقى بله واشرب ميته ..

ظل عبده واقفا في وسط الحجرة حتى استجمع الأمر في ذهنه ثم أصدر صوتا غليظا أشبه بحشرجة حيوان متوحش غاضب وانقض على حاتم يركله ويلكمه بيديه وقدميه ثم أمسك به من رقبته وأخذ يضرب رأسه في الجدار بكل قوته حتى أحس بدمه ينبثق حارا لزجا على يديه وقد ذكر الجيران بعد ذلك ، في المحضر ، أنهم سمعوا في حوالي الرابعة صباحا صياحا وصرخات تنبعث من شقة حاتم لكنهم لم يتدخلوا لمعرفتهم بطبيعة حياته الخاصة ....

بسم الله الرحمن الرحيم ...

" فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا .."

قرأ الشيخ بلال من سورة النساء بصوت رخيم عذب أثر في الاخوة المصلين خلفه فتملكتهم الرهبة ورددوا خلفه دعاء القنوت خاشعين .. انتهت صلاة الصبح و جلس الشيخ بلال يسبح وتقدم إليه الاخوة واحدا واحدا يصافحونه بحب واحترام ولما انحنى عليه طه الشاذلي جذبه الشيخ ناحيته برفق وهمس : "انتظرني في المكتب .. سألحق بك حالا بإذن الله .."

انطلق طه إلي المكتب وهو يسأل نفسه : لماذا يريده الشيخ ؟.. هل نقلت له رضوى ما قاله عليه ؟!..إنها تؤكد دائما أنها تحب الشيخ بلال كأبيها ولكن هل تحبه لدرجة أن تنقل له كلام زوجها عنه ..؟! لو أنها فعلت ذلك سيكون حسابها معه عسيرا ، لن يغفر لها أبدا لأن الزوجة يجب أن تكون أمينة على أسرار زوجها ، ولو سأله الشيخ عن كلامه لرضوى لن يكذب ، سيكرر الكلام أمامه وليكن ما يكون..

ماذا سيفعل به الشيخ ..؟ .. أقصى ما يفعله أن يطرده من المعسكر، فليكن ؛ ما قيمة بقائه في المعسكر ليأكل ويشرب وينام ولا يفعل شيئا ..؟! إذا كان الشيخ لن يسمح له بالجهاد فالأفضل أن يخرجه من المعسكر ليعود من حيث أتى ..أخذ طه يفكر على هذا النحو حتى أنه دفع بيده باب المكتب ودخل متحفزا وهناك وجد اثنين من الاخوة ينتظران : الأخ الدكتور محجوب وهو طبيب بيطري جاوز الأربعين ، من جيل الرواد الذين أسسوا الجماعة الإسلامية في السبعينيات والأخ عبد الشافي من الفيوم كان طالبا في حقوق القاهرة ثم تكرر اعتقاله وطارده الأمن حتى هجر الدراسة وعاش في المعسكر ، صافحهما طه بود وجلس الثلاثة يتبادلون حديثا عاما لكنهم كانوا يشعرون داخلهم بقلق وتوجس ثم وصل الشيخ بلال فصافحهم وعانقهم بحرارة وقال وهو يتأملهم مبتسما :

" يا شباب الإسلام هذا يومكم.. لقد اختاركم مجلس شورى الجماعة للخروج في عملية مهمة .."

مرت لحظة من الصمت ثم اندفع الاخوة يهللون ويكبرون واحتضنوا بعضهم البعض مهنئين وكان أكثرهم فرحا طه الذي أخذ يصيح "الحمد لله.. الله أكبر" واتسعت ابتسامة الشيخ وقال :

" ما شاء الله .. بارك الله فيكم وزادكم إيمانا ، لهذا

يرتعد أعداء الإسلام خوفا منكم لأنكم تحبون الموت كما يحبون الحياة ..."

ثم ارتسم على وجهه الجد وجلس إلى المكتب وبسط أمامه ورقة كبيرة وقال وهو يبحث في جيب جلبابه عن قلم:

- ليس أمامنا وقت ..يجب تنفيذ العملية الساعة واحدة ظهر اليوم . وإلا سيكون علينا أن ننتظر شهرا كاملا على الأقل .. اجلسوا يا أبنائي وركزوا انتباهكم معي إلي أقصى حد.."

• • •

بعد ساعتين كانت سيارة نقل صغيرة ممتلئة عن آخرها بأنابيب البوتاجاز تشق طريقها إلى منطقة فيصل بالهرم وقد جلس إلى مقعد القيادة الدكتور محجوب وبجواره طه الشاذلي أما الأخ عبد الشافي فقد وقف بين الأنابيب المتكدسة في خلفية السيارة ، كانوا قد حلقوا لحيهم وارتدوا ملابس موزعي البوتاجاز ، وكانت الخطة تقضي بمعاينة الموقع قبل العملية بساعة على الأقل ثم التواجد في الشارع بطريقة طبيعية حتى ينزل ضابط أمن الدولة من بيته وفي الفترة منذ خروجه من باب العمارة حتى يستقل سيارته ، يكون عليهم أن يعطلوه بأية طريقة ثم يفتحوا النار عليه من

البنادق الآلية الثلاث المخبوءة تحت مقعد القيادة .. كانوا أيضا مزودين بتعليمات إضافية صارمة :.. إذا استطاع الضابط دخول سيارته قبل التنفيذ يكون عليهم أن يعترضوه بسيارتهم ثم يلقوا عليه بحمولتهم من القنابل اليدوية دفعة واحدة وبعد ذلك يتركون السيارة ويركضون كل واحد في اتجاه وهم يطلقون النار لأعلى لئلا يتعقبهم أحد وإذا ساورهم الشك في أنهم مراقبون فإن الدكتور محجوب (باعتباره أمير المجموعة) يملك صلاحية إلغاء العملية فورا وعندئذ يجب عليهم أن يتركوا السيارة في أي شارع جانبي ويعودوا إلى المعسكر متفرقين بالمواصلات العامة ..

ما أن دخلت السيارة إلى منطقة فيصل حتى قللت من سرعتها وأخذ الأخ عبد الشافي يرن بالمفتاح على أنابيب البوتاجاز معلنا للسكان عن وصولها ، وخرجت بعض النسوة من الشرفات والنوافذ ونادوا على السيارة فتوقفت أكثر من مرة وحمل عبد الشافي عدة أنابيب إلى السكان وقبض ثمنها وعاد بالفوارغ إلى السيارة ، كانت هذه تعليمات الشيخ بلال إمعانا في التمويه ، ثم وصلت السيارة إلى شارع عاكف حيث يسكن الضابط وطلبت امرأة أنبوبة من شرفتها فحملها إليها عبد الشافي وكانت هذه فرصة لمحجوب وطه لكي يتفقدا الموقع على مهل .. كانت سيارة

الضابط مرسيدس زرقاء طراز أواخر السبعينيات تنتظر أمام مدخل العمارة ودرس محجوب جيدا المسافات والمحلات المجاورة والمداخل والمخارج ولما عاد عبد الشافي انطلقت السيارة بعيدا عن الموقع ونظر الدكتور محجوب إلي ساعته وقال :

- أمامنا ساعة كاملة .. ما رأيكم في كوب شاي..؟

كان يتكلم بصوت مرح كأنما ليبث في نفوسهم الطمأنينة ووقفت السيارة أمام مقهى صغير في شارع مجاور حيث جلس الثلاثة يحتسون الشاي بالنعناع ، كان مظهرهم عاديا تماما لا يمكن أن يثير الريبة ورشف محجوب من الكوب بصوت مسموع وقال :

- الحمد لله .. كل شيء تمام

وردد طه وعبد الشافي بصوت خافت الحمد لله

- هل تعلمان أن الاخوة في شورى الجماعة ظلوا يراقبون الهدف لمدة عام كامل..؟

- عام كامل ..؟

هكذا سأل طه

- والله العظيم عام بحاله .. التحريات صعبة لأن الضباط الكبار في أمن الدولة يبالغون في التخفي ، يستعملون أكثر من اسم ويقيمون في أكثر من مسكن وأحيانا ينتقلون مع أسرهم بين الشقق المفروشة وكل ذلك يجعل

الوصـــول إليهـــم شـــبه مستحيل..

- ما اسم الضابط يا أخ محجوب ؟

- المفروض ألا تعرفه ..؟

- فاهم انه ممنوع لكنني أحب أن أعرف ..

- يفرق معك اسمه ..؟

وسكت طه ثم نظر مليا إلى محجوب وقال بانفعال :

... يا أخ محجوب لقد بدأنا الجهاد بالفعل وربما يكرمنا اللـه بالشهادة فتصعد أرواحنا معا إلى خالقها .. أولا تثق بي ونحن على حافة الموت ..؟

وتأثر محجوب من كلمة طه وكان يحبه فقال بصوت خافت:

- صالح رشوان ..

- العقيد صالح رشوان ؟؟

- مجرم وكافر وسفاح.. كان يتلذذ بالإشراف على تعذيب الإسلاميين وهو المسئول المباشر عن مقتل اخوة كثيرين في المعتقل ، بل أنه قتل بمسدسه الخاص اثنين من خيرة شباب الإسلام الأخ حسن الشرباصي أمير الفيوم ، والأخ الدكتور محمد رافع المتحدث باسم الجماعة . وكان يتباهى بقتلهما أمام الاخوة المعتقلين في سجن العقرب .. رحم اللـه جميع شهدائنا الأبرار وأسكنهم فسيح جناتـه وجمعنا بهم على خير باذن الله

قبل الواحدة بخمس دقائق توقفت سيارة البوتاجاز على الناحية المقابلة لمدخل العمارة ونزل عبد الشافي واقترب من كابينة القيادة وأخرج من جيبه دفترا صغيرا وتظاهر بمراجعة الحسابات مع محجوب السائق ، انهمك الاثنان بصوت مسموع في مناقشة عدد الأنابيب المباعة ، كان منظرهما طبيعيا وأمسك طه بمقبض الباب متحفزا كان مدخل العمارة مكشوفا أمامه وشعر بقلبه يكاد يتمزق من قوة الخفقان ، وجهد لكي يركز ذهنه في نقطة واحدة لكن شلالا هادرا من الصور اجتاح مخيلته ، مرت دقيقة رأى خلالها حياته كلها مشهدا مشهدا : حجرته فوق سطح عمارة يعقوبيان وذكريات طفولته وأمه وأباه الطيبين وحبيبته القديمة بثينة السيد وزوجته رضوى واللواء قائد كلية الشرطة يعيره بمهنة أبيه ، والجنود في المعتقل يضربونه ويهتكون جسده ، كان يتحرق شوقا لأن يعرف هل هذا الضابط الذي أشرف على تعذيبه في المعتقل ولم يفاتح محجوب برغبته لئلا يقلق منه فيستبعده من العملية ، ظل طه يحدق في مدخل العمارة والذكريات تتسارع أمامه ثم ظهر الضابط ، بداكما وصفوه له ، بدينا أبيض البشرة لازالت آثار النوم والحمام الساخن على وجهه ، يمشي بهدوء وثقة والسيجارة تتدلى من زاوية فمه .. أسرع طه ففتح الباب ونزل إلى الشارع متوجها ناحيته ، كان عليه أن

يعطله بأيـة طريقـة حتـى يطلق عليـه الأخـوان النـار عندئذ يركض طـه ويقفز إلى السيارة ويلقي بقنبلة يدوية لتغطية الهروب ، تقدم طه من الضابط وسأله بصوت جهد ليبدو طبيعيا:

– من فضلك يا أستاذ..؟ رقم ١٠ شارع عاكف مـن أي ناحية ..؟!

لم يتوقف الضابط ، أشار إليه بتعال وتمتم هو يتقدم ناحية السيارة :

– الناحية دي ..

كان هو ..هو الذي أشرف على تعذيبه ، الذي طالما أمر الجنود بضربه وتمزيق جلده بالسياط وإدخال العصا في جسده ، هو بلا أدنى شك ، نفس الصـوت الأجش والنبرة اللامبالية وذلك اللهاث الخفيف من أثر التدخين .. خرج طه عن شعوره وقفز ناحيته وأطلق صيحة حادة مبهمة وكأنهـا زمجرة غاضبة فالتفت إليه الضابط بعينين خائفتين وتقلص وجهه من الرعب وكأنه أدرك الموقف وفتح فمه ليقول شيئا لكنه عجز فقد انطلقت فجأة زخات متتابعة من البنادق الآلية أصابت كلها جسد الضابط فسقط علـى الأرض والـدم يسيل منـه بغزارة و خـالف طـه الخطـة وظـل واقفا حتـى يـرى الضابط بعينيه وهو يموت ثم صاح : الله أكبر .. الله أكبر وقفز عائدا إلى السيارة لكن مفاجأة حدثت ، فقد سمعت

أصوات زجاج يتكسر بشدة في الدور الأول وبرز رجلان أخذا يطلقان النار في اتجاه السيارة ، وأدرك طه ما يحدث فحاول أن يخفض من رأسه ويجري في اتجاه متعرج كما تعلم في التدريب حتى يتفادى مرمى النيران ، وأخذ يقترب من السيارة والطلقات تنهمر حوله كالمطر و لما صار على بعد مترين أحس فجأة ببرودة في كتفه وصدره ، برودة قارصة كالثلج أدهشته ونظر إلى جسده فرأى الدم يغطيه ويتدفق وتحولت البرودة إلى ألم حاد ينهشه فسقط على الأرض بجوار الإطار الخلفي للسيارة وصرخ متألما ثم خيل إليه أن الألم الرهيب يتلاشى شيئا فشيئا وأحس براحة غريبة غامرة تحتويه وتحمله في طياتها وتناهت إلي سمعه أصوات بعيدة مفعمة : أجراس وترانيم وهمهمات منشدة تتردد وتقترب منه وكأنها تستقبله في عالم جديد ..

منذ العصر ، انقلب مطعم مكسيم رأسا على عقب..

بالإضافة إلي العاملين في المطعم تم الاستعانة بعشرة عمال إضافيين وانهمك الجميع في تنظيف الأرضية والجدران والحمام بالماء والصابون والسوائل المطهرة ثم قاموا بنقل المناضد والمقاعد إلي جانبي المكان بحيث تركوا ممرا متسعا يصل بين المدخل والبار ومساحة واسعة في الوسط تصلح كحلبة رقص ، ظلوا يعملون بدأب تحت إشراف كريستين التي ارتدت زيا رياضيا فضفاضا وأخذت تساعدهم بنفسها في حمل الأشياء (وكانت هذه طريقتها في حثهم على العمل بحماس) ومن حين لحين يعلو صوتها بعربية مكسورة تؤنث كل من تكلمه :

– انتي شيللي كله هنا .. نظفي كويس ..انتي ايه تعبتي والايه ..؟!

في الساعة السابعة صار المكان متألقا وبسطت على الموائد مفارش بيضاء ناصعة جديدة أخرجت خصيصا للمناسبة ثم جاءت سلال الزهور فأشرفت كريستين على وضعها في أماكنها ، فكت الباقات الصغيرة ووزعت الأزهار على الأصص وأمرت العمال بوضع السلال الكبيرة على مدخل المحل من الخارج وبطول الممر ، ثم أخرجت من درج مكتبها لافتة قديمة أنيقة مكتوب عليها

بالفرنسـية والعربيـة : المطعم محجوز الليلة لحفل خاص ، علقتها كريستين على الباب الخارجي ثم أطلت برأسها لتلقي نظرة أخيرة اطمـأنت بها على شكل المطعم وأسرعت إلى بيتها القريب لتغير ملابسها ولما عادت بعد ساعة، بثوبها الأزرق الأنيـق وماكياجها المتقن الهادئ وشعرها المصفف "شينيون" إلى أعلى على طريقة الخمسينيات ، كانت الفرقة الموسيقية قد وصلت وعكف أعضاؤها على ضبط آلاتهم : المزمار والساكسفون والكمان وآلات الإيقاع المختلفة وتعالت أنغام الضبط المتنافرة وكأنها همهمة كائن موسيقي عملاق ، كان المدعوون قد بدءوا في الظهور ، جاء بضعة عجائز من أصدقاء زكي الدسوقي ، كانت كريستين تعرف بعضهم وصافحتهم جميعا ودعتهم إلى البار حيث تقدم البيرة والويسكي مجانا ، وازداد توافد المدعوين فجاءت صديقات لبثينة من مدرسة التجارة مع أسرهم وجاء على السواق (الذي شق طريقه إلى البار مباشرة) وصابر الكواء وزوجته وأولاده ، وآخرون كثيرون من السطح ، كانت النسوة يرتدين ثيابا لامعة موشاة بالقصب والترتر ، والبنات في سن الزواج جئن على أتم زينة وأناقة تحسبا لفرصة زواج كامنة في الفرح وقد داخلت أهل السطح رهبة من فخامة المطعم وطرازه الأوروبي العريق إلا أن النسوة شيئا فشيئا بدأن بكسر هذه

الرهبة بأحاديث جانبية مرحة وضحكات عالية أقرب إلى الخلاعة من وحي المناسبة وفي نحو التاسعة فتح الباب ودخل بعض الأشخاص بسرعة ثم تبعهم بتؤدة زكي الدسوقي ، ببدلته السوداء الأنيقة وقميصه الأبيض والبابيون الأحمر الكبير على عنقه وشعره المصبوغ المصفف إلى الخلف في تسريحة جديدة اقترحها الحلاق وآتت ثمرتها فبان أصغر عشرة أعوام من عمره الحقيقي ، كانت خطوته متصلبة قليلا وعيناه محتقنتين من اثر كاسين دوبل من الويسكي آثر أن يبدأ بهما الليلة وما أن ظهر في الحفل حتى تعالى الهتاف والصفير والتصفيق من كل صوب .." مبروك" "ألف مبروك" وانطلقت بضع زغاريد على استحياء ، وبينما الناس يصافحونه مهنئين اندفعت كريستين ناحيته وعانقته وقبلته بطريقتها الحميمة

– " تبدو كنجوم السينما "

هكذا هتفت بحماس ثم تنهدت ونظرت له مليا قائلة:

– "كم أنا سعيدة من أجلك يا زكي ..!! لقد فعلت ما كان عليك أن تفعله من زمان .."

كان هذا حفل زواج زكي بك الدسوقي من بثينة السيد ، التي تأخرت قليلا عند مصفف الشعر كعادة العرائس ثم جاءت بفستان العرس الأبيض يحمل أطراف ذيله الطويل اخوتها البنات وأخوها الصغير مصطفى ، ما

أن ظهرت العروس حتى تأثر الحاضرون جميعا لمرآها وانطلقت بوضوح وصراحة عاصفة من الزغاريد المتتالية المنغمة ، كان الجميع سعداء وبعد أن فرغت الفرقة الموسيقية من الزفة وتم افتتاح البوفيه حاولت كريستين أن تحافظ على الطابع الأوروبي للاحتفال فعزفت على البيانو اغنية الحياة بلون الورد لاديث بياف ورددت بصوتها العذب الكلمات :

عندما يأخذني بين ذراعيه ويهمس لي .. أرى الحياة بلون الورد

يقول لي كلمات حب.. كلمات كل يوم .. لكنها تصنع في قلبي شيئا

رقص العروسان وحدهما واضطربت بثينة قليلا وكادت تتعثر في الرقصة لكن العريس أرشدها للخطوة الصحيحة وانتهز الفرصة ليضمها اليه ولم تفت الحركة على الحاضرين فأطلقوا التعليقات الضاحكة وفكر زكي أن بثينة تبدو في ثوب العرس مخلوقا نقيا رائعا وكأنها ولدت اليوم وقد تخلصت إلى الأبد من ؛ وانب الماضي التي لوثتها بغير ذنب ، ولما انتهت الأغنية حاولت كريستين بلباقة أن تقترح أغانى فرنسية أخرى ولكن عبثا فقد ضغط الرأي العام بقوة حتى استجيب له في النهاية وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعات الرقص الشرقي ..كانت هذه

اللحظة السحرية فانطلقت ـ النسوة والبنات – وكأنهن وجدن أنفسهن أخيرا – يصفقن ويغنين ويتمايلن على الإيقاع وتحزمت أكثر من واحدة ورقصت والححن على العروس حتى استجابت وسمحت لهن بتحزيمها ثم اندمجت في الرقص وزكى بك الدسوقى يتأملها بنظرة محبة معجبة ويصفق على الإيقاع بحماس وشينا فشينا رفع ذراعيه لأعلى وبدأ يشاركها الرقص وسط تهليل الحاضرين وضحكاتهم ..

" تمت "